

الرمح مشرقى

تأليف

الدكتور أحمد محمد الخوفى

الطبعة الأولى

١٩٦٦

ملتزمة الطبع والنشر

دار الفكر العربى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ... وبعد .
فإن الأمة العربية ما كادت تفيق من خورّها حتى تلفقت إلى ماضيها
للشرق ، فبصّرت به أعظم ماضٍ تفاخر بمثله أمة ، ووجدت فيه أنفس تراث
يخايل يشبهه خلف ، فأيقنت أنها لا تستطيع أن تبدل حاضرها ، ولا أن تحقق
آمالها في مستقبلها ، إلا بالتأسي بماضيها العظيم ، فجعلت تستحي هذا الماضي ،
وتبتعث مفاخره ، وتجلّ عظمته ، وتدرس أبطالها وعظماؤها وعلماءها وأدباءها
ومفكرها دراسة واعية موحية .

ولأمر ما نعدّ من العرب أعلاما من أعصار شتى ، ومواطن متباعدة ،
وثقافات متعددة ، لأنهم جميعاً عرب ، امتزجوا بالعروبة ديناً ولغة وثقافة وإنتاجاً
وتاريخاً وحضارة ، حتى إن كثيراً منهم يمتنون إلى أصول غير عربية ، ولسكنهم
نسوها أو ذكروها على أنها أطياف من ماضٍ سحيق ، لطول العهد بينها وبينهم ،
ولسلطان العروبة الغلاب على يثائهم ، إذ كانت العربية ينبوع الشريعة ، ولغة
الثقافة أحقاباً متوالية ، لا تنازعها لغة من لغات الأمم التي نشر العرب عليها
ظلالهم .

بهذا التصور كتبت عن الطبري من قبل ، وبالتصور نفسه أكتب عن
الزحشري اليوم .

ومن حق الزحشري أن يخص بدراسة مفصلة متكاملة تكشف عن

عصره وحياته وأساتذته وتلاميذه ومؤلفاته ، وتفوقه وابتداعه ، فقد كان في الصدارة بين علماء عصره ، وكان إماماً في أفانين من المعرفة ، وخلف في كل منها آثاراً بقي منها كثير ، واحتجب منها كثير ، ولعله يسفر بعد طوإل احتجاب ، وإن ما بقي من آثاره السليل بتقديره ، والتنويه به ، والاحتفاء بذكره .

وقد رجعت إلى ما كتبه القدماء عنه ، وقرأت مؤلفاته مطبوعة ومخطوطة ، لأستنبط منها أحداث حياته ، ومعالم شخصيته ، وخصائصه الفكرية والفنية ، ومثلت بنماذج من كتبه لتسكون كالإشارة التي تدل على معالم الطريق الطويل .

ولست أنسى أن أتوه بالدراسة التي قام بها الدكتور مصطفى الجويني في كتابه (منهج الزمخشري في تفسير القرآن) وبالفصل الذي كتبه الدكتور شوقي ضيف عن الزمخشري في كتابه (البلاغة تاريخ وتطور) .

وإني لأرجو أن يمنح الله دراستي هذه من السداد والتوفيق ما يجعلها جديرة بما قصد منها وأريدت له .

أصم محمد الحوفي

الحرم ١٣٨٦
إبريل ١٩٦٦

القاهرة في

تَحْصِيدُ بَيْعَةٍ (١) خَوَازِم

هنالك على حَفَافَى نَهْر جِيحُون فِي آسِيَا الْوَسْطَى كَانَتْ وِلَايَاتُ خَمْسٍ هِيَ
الضَّمْدُوعَا صَمْتَاهَا بَخَارِي وَسَمَرْقَنْدُ ، وَفِي غَرْبِي الصَّغْدُ خَوَازِمُ الَّتِي تَسْمَى الْيَوْمَ
خِيَوَه أَوْ كِيَوَه ، وَصَفَايَان ، وَفَرغَانة ، وَالشَّاشُ الْمُسَمَّاةُ الْآنَ طَشْقَنْدُ .
وَقَدْ فَتَحَ الْعَرَبُ الْإِقْلِيمَ سَنَةِ ٩٣ هـ (٧١٢ م) بِقِيَادَةِ قَتِيبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيِّ (١) .
وَلَمْ يَلْبَثْ هَذَا الْإِقْلِيمُ بَعْدَ الْفَتْحِ أَنْ صَارَ مَرْكَزًا مِنْ مَرَاكِزِ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ
وَالْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمَشْرِقًا لِكَثِيرٍ مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ كَالزُّمَخْرَشِيِّ وَالرَّازِي وَالسَّكَاكِينِيِّ
وَالطَّرْزِيِّ .

وَحَسِبْنَا مِنْ وَصْفِ خَوَازِمٍ وَمَا جَاوَرَهَا أَنْ نَذْكُرَ مَا قَالَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الرِّحَالَةِ
شَاهِدُوها بِأَعْيُنِهِمْ وَأَقَامُوا بِهَا زَمَنًا .

فَالْقَدْسِيُّ رَجُلٌ إِلَى إِقْلِيمِ الْمَشْرِقِ - وَكَانَتْ تُطَلَّقُ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ عَلَى إِقْلِيمِ
خِرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ - فِي عَهْدِ الدَّوْلَةِ السَّامَانِيَّةِ الَّتِي حَكَمَتْ مِنْ ٢٦١ إِلَى
٣٨٩ هـ (٨٧٤ - ٩٩٨ م) فَوَصَفَهُ بِقَوْلِهِ : « إِنَّهُ أَجَلُ الْأَقَالِيمِ ، وَأَكْثَرُهَا
أَجَلَةٌ وَعِلْمَاءٌ ، وَهُوَ مَعْدِنُ الْخَيْرِ ، وَمُسْتَقَرُّ الْعِلْمِ ، وَرُكْنُ الْإِسْلَامِ الْحَكْمِ ، وَحَصْنُهُ
الْأَعْظَمُ ، مَلِكُهُ خَيْرُ الْمُلُوكِ ، وَجُنْدُهُ خَيْرُ الْجُنُودِ ، فِيهِ يَبْلُغُ الْفَقْهَاءُ دَرَجَةَ الْمُلُوكِ .
وَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ لِدَعَايِهِ : « عَلَيْكُمْ بِخِرَاسَانَ ، فَإِنَّ هُنَاكَ الْعَدَدَ الْكَثِيرَ
وَالْجَلَدَ الظَّاهِرَ ، وَهُنَاكَ صُدُورُ سَلِيمَةٍ ، وَقُلُوبُ فَارِغَةٍ لَمْ تَنْفَسْهَا الْأَهْوَاءُ ،

ولم تنوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ،
ومنا كبوكواهل ، وهامات ولحي وشوارب ، وأصوات هائلة ولغات نغمة ...
وأهل خراسان أشد الناس تفقها ، وبالحق تمسكا ، وهم بالخير والشر أعلم ، وإلى
إقليم العرب ورسومهم أقرب ، وإقليمهم أكثر أجلة وعقلاء ، مع العلم الكثير ،
والحفظ العجيب ، والمال المديد ، والرأى الرشيد ، به مرّو التي قامت بها الدنيا ،
وبلّخ وإليها المنتهى ، ونيسابور فلا تنسى .

وهو أكثر الأقاليم علما وفقها ، وبه يهود كثيرة ، ونصارى قليلة ، وأولاد
على رضى الله عنه فيه على غاية الرفعة ، ولا ترى به هاشميا إلا غربيا ، ومذاهيبهم
مستقيمة ، غير أن الخوارج بسجستان ونواحي هراة كثيرة ، والمعتزلة بنيسابور
ظهور بلا غلبة ، والشيعة والكرامية بها جلبة ، والغلبة فى الإقليم لأصحاب
أبي حنيفة إلا فى كورة الشاش وطوس ونسا وأبيورد فلمهم شفعوية (شافعية)
ولهم جلبة بهراة وسجستان وسرخس .

ورسومهم تخالف رسوم أقاليم العرب فى أكثر الأشياء ، فلمؤذنين سرير
قدام المنبر يؤذنون عليه بتطريب وألحان ، ويدكرون بلا دفاتر - من غير كتب -
يقرءون فيها - بنيسابور رسوم حسنة ، منها مجالس المظالم فى كل يوم أحد
وأربعاء بحضرة صاحب الجيش أو وزيره ... وألسنتهم مختلفة ، أما لسان نيسابور
ففصيح مفهوم ، غير أنهم يكسرون أوائل الكلام ، وفيه رخاوة ، وأهل طوس
ونسأ أحسن لسانا ... وبهذا الإقليم عصبية بين الشيعة والكرامية وبين
الشافعية والحنفية ، وقد يهراق فى هذه العصبية الدماء ، ويدخل بينهم السلطان ..
ولهم مجالس عشية تجمع شهر رمضان للمناظرة بين يدي السلطان ، فيبدأ هو فيسأل
مسألة ثم يكلمون عنها ... إلى أن يقول : وأقل إمام فى الفقه والأدب والقرآن
لقيته له تلميذ خوارزمي قد تقدم ونفذ فى فنه واستقام ^(١) .

والذى يسترعى النظر من هذا الوصف :

- ١ — كثرة العلماء ، وتقدير الحكماء لهم .
- ٢ — الكلف بالحفظ .
- ٣ — إجلال نسل على بن أبى طالب ، وكثرة الشيعة .
- ٤ — كثرة المعزلة بنيسابور خاصة .
- ٥ — العصبية بين الشيعة والكرامية ، وبين الشافعية والحنفية .
- ٦ — الكلف بالمناظرات :

وجاء فى وصف ياقوت لإقليم خوارزم أنه موفور الخيرات ، كثير الثمرات ، جميل المناظر ، وقال إن أهله كرام الأخلاق ، وإن لم يسكنوا من ذوى الظرف والكياسة . وزار ياقوت عاصمة خوارزم (الجرجانية) سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) فوصفها بأنه لم ير مدينة أعظم منها ولا أكثر أموالا ولا أحسن أحوالا^(١) . ويقول فى موضع آخر إنه زار إقليم خوارزم سنة ٦١٦ هـ فلم ير ولاية أعمر منه ، فإنه — على رداءة أرضه وكثرة سبخها وتوزعها — متصل العمارة ، متقارب القرى ، كثير البيوت المفردة والتصور فى صحاريها ، وقاما يقع النظر فى رسائيقه — ضياعه ومزارعه — على موضع لا عمران منه ، هذا إلى كثرة الأشجار والخيرات . وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين ، ويندر أن تكون قرية بغير سوق ، والأمن هناك شامل والطمأنينة تامة^(٢) .

ووصفها ابن بطوطة بعد عصر الزمخشري — فى رحلته التى بدأها من المغرب إلى المشرق سنة ٥٧٢٥ (١٢٢٤ م) واستغرقت ٢٧ عاما — بقوله « لم أر فى بلاد

(١) معجم البلدان ٢/ ٧٩ .

(٢) معجم البلدان ٣/ ٤٧٤ .

الدنيا أحسن أخلاقاً من أهل خوارزم ، ولا أكرم نفوساً ، ولا أحب في الغرياء .
ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم ، وهي أن المؤذنين في مساجدها يطوف
كل واحد منهم على دور حيران مسجده معلماً لهم بحضور الصلاة ، فمن لم يحضر
الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة ، وفي كل مسجد درة معلقة برسم
ذلك ، ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح المسجد ، أو لإطعام الفقراء والمساكين ،
وينذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة من قديم الزمان ^(١) .

ومن البديهي أن وصف ابن بطوطة - وإن كان بعد عصر الزمخشري -
ينبئ عن أخلاق أصيلة قديمة العهد ، لأن السجاياء الحميدة لا تكتسب سريراً بعد
تجرد وخلاء ، ولأنه يذكر أن عاداتهم في ضرب المتخلف عن صلاة الجماعة قديمة
منذ زمان بعيد .

وفي إقليم خوارزم عدة مدن ، منها الجزجائية وزمخشري وخوارزم ، وزمخشري
إحدى قرى خوارزم القريبة منها ، ويظهر أن كلامها امتدت فتدخلنا ،
لأن القفطي يقول : سمعت بعض التجار يقول إنها قد دخلت في جملة المدينة ،
وإن العبارة لما كثرت وصلت إليها وشملتها ، فصارت من جملة محالها ^(٢) .
وهي زمخشري هذه نسب جاز الله محمود بن عمر ، فقيل الزمخشري ، وهذه
النسبة حين تذكر لا تنصرف إلا إليه .

والبرد شديد جداً هناك ، حتى إن الثلج كثيراً ما يؤثر في الأطراف
فتسقط ، ويذكر ابن خلكان أنه شاهد خلقاً كثيراً ممن سقطت أطرافهم في
خوارزم بسبب البرد ، ويعلق على هذا بأنه من الخطأ أن يستبعد من لا يعرفه ^(٣) .
ويذكر ياقوت أنه رأى نهر جیحون - وعرضه ميل - وهو جامد ، والقوافل
والعجول الموقرة ذاهبة وآية على جليده ^(٤) .

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ١/٢٦٨ .

(٢) إنباء الرواة ٣/٢٦٥ .

(٣) وفیات الأعيان ٤/٢٥٥ .

(٤) معجم البلدان ٤/٤٧٤ .

وكثيراً ما ردد ابن بطوطة آلامه من برد الاقليم ، حتى إنه كان يتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار ، فما تقطر من الماء قطرة إلا اجذت لحينها ، وإذا غسل وجهه بالماء ووصل الماء إلى خيته جدد ، فيسقط منها شبه الثلج ، والماء الذي ينزل من الأنف يجمد على الشارب ^(١) .

ويقول إن نهر جيحون يجمد في أوان البرد ، ويسلك الناس عليه ، وتبقى مدة جموده خمسة أشهر ^(٢) . ويقول إن السلطان علاء الدين طرمشيرين — سلطان ماوراء النهر — أعطاني سبع مئة ^(٣) دينار دراهم وفروة سمور تساوي مئة دينار طلبتها منه لأجل البرد ، وأعطاني فرسين وجلين ، ولما أردت وداعه أدر كته في طريقه إلى الصيد ، وكان اليوم شديد البرد جدا ، فوالله ما قدرت على أن أنطق بكلمة ، لشدة البرد ، ففهم ذلك وضحك ، وأعطاني يده وانصرفت ^(٤) .

(٢) الحياه السياسية

خضعت تلك البلاد للحكم العربي مدة، ثم آل الأمر فيها إلى ثلاث دول متتابعة. أولاها الدولة السامانية من سنة ٢٦١ إلى ٣٨٩ هـ (٨٧٤ — ٩٩٩ م) وقد نشأ السامانيون في بلخ واتخذوا بخارى عاصمة لهم ، وكانوا في عصرهم الذهبي أصحاب النفوذ والسلطان بالشرق كله ، ثم تقلص ظلمهم فشمخ خراسان وماوراء النهر وحدها . وإذا كانوا قد جدوا في تشجيع الأدب الإيراني ، وكانت الفارسية لغتهم الرسمية في أكثر سنوات ملكهم ، فإنهم جمعوا في قصورهم كتاب العربية كما جمعوا كتاب الفارسية ، واجتذبت عاصمتهم بخارى كثيرا من العلماء

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ١/ ٣٩٤ .

(٢) مهذب الرحلة ١/ ٢٩٨ .

(٣) هكذا أثرت كلمة مئة ومرتباتها .

(٤) مهذب الرحلة ١/ ٣٠٩ .

والشعراء ، وكانوا حماة لأهل السنة — إلا في نحو أربعين سنة من القرن العاشر الميلادي — ففي عهدهم ألف كتاب في العقائد باللغة العربية لوقاية الشعب من الرافضة ، ثم ترجم إلى الفارسية ، وترجم تفسير الطبري إلى الفارسية ، كما ألف بها تفسير آخر ، وأفتى الناس بجواز الصلاة باللغة الفارسية كاللغة العربية^(١) .
ثم قضى محمود بن سبكتكين الغزنوي على دولتهم سنة ٥٣٨٩هـ^(٢) .

ومآيتها الدولة السلجوقية العظمى^(٣) من سنة ٤٢٩ إلى ٥٥٥٢ (١٠٣٧ — ١١٥٧م) التي امتلكت خوارزم سنة ٤٣٤هـ ثم خراسان وبلاد الرى وأصبهان وأذربيجان ، وكان نفوذ البويهيين قد انحسر عن بغداد ، فتقدم طغرل بك إليها ودخلها بغير حرب سنة ٤٤٧هـ ، وقبض على آخر سلاطين بى بويه ، ومن هذا التاريخ قامت الدولة بالعراق وماوراءه .

وهي تنقسم إلى خمسة بيوت ، يهمن منها البيت الأول ، وملوكه هم السلاجقة العظام الذين ملكوا خراسان والرى والجبل والعراق والجزيرة وفارس والأهواز ، وقد قامت من سنة ٤٢٩ إلى ٥٥٢٢ (١٠٣٧ — ١١٢٨م) وعاصر الزمخشري من ملوكها :

- ١ — عضد الدين أبو شجاع ألب أرسلان ٤٥٥ — ٥٦٥هـ
- ٢ — جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ٤٦٥ — ٥٨٥هـ
- ٣ — ناصر الدين محمود ٤٨٥ — ٥٨٧هـ
- ٤ — ركن الدين أبو المظفر بركياروق ٤٨٧ — ٥٩٨هـ
- ٥ — ركن الدين ملكشاه الثانى ٤٩٨ — ٥٩٨هـ

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٨ بارتولد .

(٢) وفيات الأعيان ٤/٢٤٥ .

(٣) الدولة العباسية ١٢ للخصري . وكانت للسلاجقة دول غيرها أقل منها شأنًا .

٥٩٨ — ٥١١

٦ — غياث الدين أبو شجاع محمد

٥١١ — ٥٢٢

٧ — معز الدين أبو الحارث سنجر

ثم انقضت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم .

ويرتبط تاريخ هذه الدولة باسم وزيرها العظيم نظام الملك الذي استورزه ألب أرسلان ، واستعان به في إدارة ملكه ، ثم استورزه ابنه جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ، فقام بالتدبير والإصلاح خير قيام ، وبفضله اتسع نفوذ جلال الدين ، فخطب له من حدود الصين شرقا إلى آخر الشام غربا ، وازدهرت الآداب والفنون ، وازدانت المدن بالمدارس والمستشفيات . وكان جلال الدين سلطانا عادلا شجاعا متدينا ، وكان وزيره عالما جوادا مشفوقا بالعلم معظما للعلماء ، وهو الذي أمر بالأبلا بلعن الأشعرية والرافضة على المنابر ، إذ كان الوزير عميد الملك الكندري قد زين للسلطان طغرليك لعن الرافضة ، فأمر بذلك ، فأضاف إليهم الأشعرية ، ففارق كثير من العلماء بلادهم ، مثل إمام الحرمين وأبي القاسم القشيري ، ولم يسكتف نظام الملك بإلغاء ذلك ، بل أعاد العلماء إلى أوطانهم ^(١) .

ثم قتل الوزير سنة ٤٨٥ هـ ، ومات السلطان بعده بنحو شهر ، فأفلت شمس آل سلجوق ، ونشبت الفتن بين كبارهم ، وحكموا السيوف فيما بينهم ، فكانت النتيجة سقوط دولتهم ، وقيام الدولة الخوارزمية .

أما الدولة الثالثة التي حكمت خوارزم فهي الدولة الخوارزمية التي نشأت إمارة (أتابكية) في خوارزم ، وجعلت تتقوى وتتوسع ، على حين أن الدولة السلجوقية تضعف وتضيق ، فلما سقط السلاجقة خلفهم الخوارزميون ، وضموا تحت لوائهم الأقاليم التي كان يحكمها السلاجقة .

وهذه الدولة تنتسب إلى نوشتكين أحد الأتراك في بلاط ملكشاه الساجوقى .

أما مؤسسها الحقيقى فهو ابنه محمد ^(١) الذى عينه أحد قواد السلطان بر كياروق الساجوقى (٤٨٧ — ٥٤٩٨ هـ) حاكما على إقليم خوارزم ، ولقبه خوارزم شاه . وقد جعلت هذه الدولة الناشئة تمتد وتقوى منذ أنسز بن محمد بن نوشتكين ، ثم تصارع سنجر الساجوقى وأنسز صراعا استمر حتى توفى أنسز سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) وتوفى سنجر بعده بعام ، وكانت وفاة سنجر نهاية للسلاجقة فى فارس وخراسان ، فلم يجد الخوارزميون بعده من يعوق طموحهم أو يحتجز اتساعهم ، فاستطاع إيل أرسلان بن أنسز أن يبسط سلطانه على غربى خراسان . ثم امتدت الدولة غربا فى عهد تكش خوارزم شاه ، وصار لها نفوذ على أمراء العراق ، واستعان الخليفة العباسى الناصر لدين الله بتكش على طغربك آخر السلاجقة فى بغداد ، فحرب تكش بهذه الفرصة المواتية ، والتقى جيشه بالجيش الساجوقى عند الرى سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) وانجلىت المعركة عن انتصار تكش ، وعن قتل طغربك .

وحينئذ بسطت الدولة الخوارزمية سلطتها على الأقاليم العراقية التى كانت للسلاجقة ، فاحتل تكش همدان عاصمة سلاجقة العراق سنة ٥٩٠ هـ واحتل أصفهان والرى . ثم حارب دولة (الخطا) شرقا ، واستولى على إحدى مدنها المهمة وهى بخارى سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٧ م) . وفى عهد ابنه علاء الدين محمد تم اقتطاع مدينتى بلخ وهراة من الدولة الغورية سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) كما نجح فى هزيمة دولة (الخطا) سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) فاستولى على بلاد ما وراء النهر ، ثم مد نفوذه إلى إقليم كرمان وإقليم مكران وإلى الأقاليم التى غربى نهر السند ، وبهذا طوق قرنة عاصمة الدولة الغورية ، واحتلها سنة ٦١٣ هـ (١٢١٥ م) .

كان الخوارزميون يتطلعون إلى تكوين دولة إسلامية عظيمة ترث الدويلات الإسلامية والإمارات المنتشرة المفككة ، وقد تم لهم النصر على السلاجقة سنة ٥٩٠ هـ فسيطروا على العراق العجمي ، وحكموه من قبل الخليفة العباسي ، وطالبوا الخليفة بأن يحل اسمهم في خطبة الجمعة محل أسلافهم السلاجقة ، وأن ينقش اسمهم إلى جوار اسم الخليفة على النقود ، ثم طلب تكش من الخليفة الناصر أن يعيد دار السلطنة في بغداد إلى ما كانت عليه أيام السلاجقة فلم يستجب الناصر لهذه المطالب .

فلما تولى علاء الدين محمد العرش بعد أبيه تكش أعد العدة لغزو بغداد^(١) سنة ٦١٤ (١٢١٧) فتأهب الناصر لصدّه ، وساعدته عوامل عدة على النجاة من هذا الغزو ، وفي الوقت نفسه كان سيل المغول يكسح ما أمامه . وإذاً فقد خلف الخوارزميون السلاجقة على فارس وخراسان والعراق ، وخلفوا الغوريين ، واستولوا على بلاد ما وراء النهر .

أما عاصمتهم فكانت تارة مرو — عاصمة خراسان — وتارة ممرقند — عاصمة بلاد ما وراء النهر — وحينئذ أصفهان كبرى مدن العراق العجمي . وامتد حكم هذه الدولة من سنة ٤٩١ إلى ٦٢٨ هـ (١٠٩٧ — ١٢٣٠ م) ، وقد فاجأها المغول في عهد ملكها علاء محمد شاه ففر منهم ومات سنة ٦١٧ هـ وفي السنة نفسها هجموا على خوارزم ، فتولى الدفاع بعده ابنه جلال الدين منكبرتي ، وقاومهم في بسالة وبطولة إلى أن قمعهم في قلة من رجاله ، فلما أيقن أنه لا بد من أن يقتل أو يؤسر ألقى بنفسه من مرتفع على شاطئ نهر السند ، وهو على صهوة جواده لينجو فيلقاهم من جديد ، فضرب بهذا الصنيع مثلاً رائعاً للبطولة والفداء ، وما زال يقاومهم بعد ذلك حتى انتهت دولته سنة ٦٢٨ هـ^(٢) .

(١) لهذا الغزو أسباب منها أن علاء الدين اعتنق المذهب الشيعي واجتهد في إسقام الخلافة العباسية من بغداد وإقامة خلافة علوية مكانها .

(٢) سيرة جلال الدين منكبرتي ١٦٠ .

كان الوزراء في الدولة الخوارزمية يغالون من السلاطين أعظم التقدير ، فيجلسونهم عن أيمنهم في الحافل العامة ، وكان الوزير الذي يلقب بنظام الملك لا يتفطن بدخل عليه وهو في دست الوزارة مهما تكن مكانته ، إجلالا للمنصب لأنه قائم مقام السلطان .^(١)

وكثيرا ما عهدوا بحكم الأقاليم أو المدن إلى حكام أطلقوا على كل منهم لقب وزير^(٢) ، فلما قوى نفوذ الأتراك صار الوزراء أكثر حرية ، فاستأثروا بثروات الأقاليم ، وتمردوا على السلاطين .

أما سلاطين الدولة فهم ثمانية^(٣) ، وأما السلاطين الذين عاصرهم الزمخشري فهم :

١ — نوشتكين من ٤٧٠ إلى ٤٩٠ هـ (١٠٧٧ — ١٠٩٦ م)

٢ — قطب الدين محمد » ٤٩٠ — ٥٢١ هـ (١٠٩٦ — ١١٢٧ م)

٣ — أنسر » ٥٢١ — ٥٥١ هـ (١١٢٧ — ١١٥٦ م)

ومن هذا يقين أن الزمخشري عاصر تأسيس الدولة ، وأدرك ثلاث عشرة سنة من عهد أنسر ، لأن الزمخشري عاش فيما بين سنة ٤٦٧ و ٥٣٨ هـ ، فلم يدرك سقوط آل سلجوق وقيام الخوارزميين مقامهم ، إذ كانت نهاية السلاجقة سنة ٥٥٢ هـ .

(١) سيرة جلال الدين منكبرتي ١٨٦ .

(٢) المرجع السابق ٢٤٠ ، ٢٤٧ .

(٣) الدولة العباسية ٥٥١ الحضري ، وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ١ ، واندولة الخوارزمية والمقولات ٢٧٣ .

(٣) حياة الثقافة

ما كادت أقاليم خراسان وخوارزم وما وراء النهر وغيرها تخضع للحكم العربي حتى جعلت تستعرب، وتكاثرت فيها بذور اللغة العربية والأدب والعلوم الإسلامية، وسرعان ما نبئت وبسقت فروعها، وأنبعت عمارها.

فلا غرابة في أن كثر العلماء والمؤلفون والأدباء في خوارزم، لأنها بيئة كثيرة الخيرات، ومنتجع الوافدين الذين يطمنون إلى طيب المقام، ولأن أهلها أقبلوا على الإسلام بشغف، ونشطوا أيما نشاط في تعلم اللغة العربية لغة القرآن والحديث، وهما مصدرا الشريعة ومنبعها، فلما كانت النهضة العلمية والأدبية في العصر العباسي ازدادوا ركضا في ميادين الثقافة العربية.

وكان نشاطهم العلمي والأدبي مقرونا بالغيرة على الإسلام، والحرص على تعاليمه، والحفاظ عليه من أعدائه المحيطين بهم.

ثم إن المدارس كانت كثيرة في الإقليم، وكان العلماء والمؤلفون والمدرسون جادين في التعليم والتثقيف والتأليف، وكانت المكتبات العامة عديدة، والحكام حراساً على تشجيع الحركة الفكرية، كافرين بتقريب الشعراء إليهم، ليضيفوا إلى مملكتهم هبة وجمالاً، ولينافسوا سلفهم وجيرانهم من السلاجقة وغيرهم في الجاه وحسن الأحدثه وبعد الصيت.

ولأهل خوارزم اتجاه في التفكير اشتهروا به، فقد وصفهم المقدسي بأنهم أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب، وقال إنني قلما لقيت إماماً في الفقه والقرآن والأدب ليس له تلميذ من خوارزم^(١).

(١) في خوارزم

وإذا أردنا أن نختص خوارزم وحدها بالنظرة السريعة وجدناها متوج
بالعلماء والأدباء ، منذ عاش هنالك أخلاط من الفرس والعرب والترك ، ومنذ
أقامت الدولة الخوارزمية ملكها على أنقاض السلاجقة في فارس والعراق
وخوارزم ، وعلى أنقاض الدولة الغورية في غزنة ، وامتلكت ما وراء النهر ،
فورثت ثقافات هؤلاء جميعا .

ولقد شجع الخوارزميون الأدباء والعلماء ، فازدانت دولتهم بكثير منهم ،
ويذكر النسوي - وهو الكاتب المؤرخ الذي خالطهم وعمل في دولتهم -
أن سلاطينهم عمروا قصورهم بالشعراء والكتاب والعلماء من فرس وعرب ،
وقربوهم إليهم ، وأغدقوا عليهم ، كما فتحو المدارس ، وشجعوا الوعاظ ، على
الرغم من أن بعضهم مثل السلطان محمد بن تكش كان تركيا قليل المعرفة
باللغة العربية ^(١) .

ويذكر أن الدولة كان لها ديوان إنشاء وعرض ، وأن هذا الديوان كان
أرفع رتبة من ديوان الطُّغْغراء عند السلاجقة ، وكان له رئيس ويتبعه كتاب
يلقب كل منهم بنائب ^(٢) .

أما إنتاج هؤلاء الأدباء والعلماء فإنه كان بالعربية والفارسية ، فمن الذين
أنتجوا بالفارسية زين الدين أبو إبراهيم إسماعيل بن حسن الجرجاني - عاش في
ظلالهم من سنة ٥٠٤ إلى ٥٣١ هـ - وألف كتابا في الطب سماه ذخيرة خوارزم
شاه ، ومنهم رشيد الدين محمد عبد الملك الباخى الملقب بالوطواط المتوفى بخوارزم .

(١) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ٥١ ، ٣٠٤ ، ٢٠٨ .

(٢) المرجع السابق ٥٧ ، ١٩٤ ، ٢٥١ .

سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) كان رفيقا وصديقا للسلطان أنسز، وكان شاعر البلاط في عهده، وفي عهد إيل أرسلان وابنه علاء الدين تكش، وهو مؤلف كتاب (حدائق السحر في دقائق الشعر) وهو من تلاميذ أبي سعد آدم بن أحمد الهروي^(١).

ومنهم محمد بن قيس الذي كان في عهد علاء الدين خوارزم شاه، وألف كتاب (المعجم في معايير أشعار العجم) لأبي المظفر خوارزم شاه.

وبعضهم برع في الإنتاج بالعربية والفارسية مثل الوطواط، الذي كان أفضل زمانه في النظم والنثر، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب وأسرار النحو والأدب، وكان ينشئ في حالة واحدة بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر، ويثليهما معا. وله ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية، ومؤلفات أخرى، ومن رسائله ما كتبه لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري:

لقد حاز جـار الله - دام جماله - فضائلَ فيها لا يشقُّ غبارُه
تجدد رَسْمُ الفضل بعد اندثاره بأثار جـار الله فالله جاره
ثم أتبع البيتين رسالة نثرية، يثنى فيها على الزمخشري، ويود أن يكون من تلاميذه^(٢).

ومن هؤلاء نصره الدين حمزة بن محمد بن عمر، كان يحفظ سقط الزند لأبي العلاء المعري، واليمينى للعتبي، والمخلص لفخر الدين الرازي، والإشارات لابن سينا، وله بالعربية والفارسية أشعار مدونة، وأما ترسله فالسحر الخلال والعذب الزلال^(٣).

(١) معجم الأدباء ١/ ١٠٣ و ١٩/ ٢٩.

(٢) معجم الأدباء ١٩/ ٢٩.

(٣) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ١٨٧.

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن حيدر بن علي الخوارزمي (ولد سنة ٥٥٩) ، له من التصانيف كتاب ديوان الأنبياء ؛ وكتاب شرح كفاية بالفارسية ، وكتاب الوسائل إلى الرسائل (من ثمره) وديوان شعر بالفارسية ، وكتاب الخطب في دعوات ختم القرآن ، سماه بقيمة القيمة ، وكتاب الطرفة في النحو بالفارسية وغيرها (١) .

ومنهم محمد التتوي — نسبة إلى مدينة نسا بخراسان — الذي كان كاتب الإنشاء للسلطان جلال الدين منكبرتي . ثم وزير له في مدينة نسا ، وهو مؤلف أدق كتاب في سيرة جلال الدين .

وكان ثمة علماء وأدباء تفوقوا في الإنتاج بالعربية مثل أبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م) وهو شاعر نثر عالم ، كان يحاضر بأخبار العرب وأيامها وأشعارها ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر (٢) .

ومثل أبي سعيد الشيبلي الفارس الأديب ، كان في أيام شبابه بخوارزم يقول شعرا جاسيا ، فلما عاشر الناس ، ولقى الأدباء لطف طبعه ، ورق شعره ، وقد اختص بالدولة السامانية والدولة البويهية فسمى صاحب الجيشين وشيخ الدولتين (٣) .

ومثل أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الرقاشي من أبناء الوزراء بمدينة خوارزم ، وكان مثل كشاجم كاتبا شاعرا منجما (٤) .

ومثل أبي الحسين أحمد بن محمد الشهبلي الخوارزمي (المتوفى سنة ٤١٨ هـ ١٠٢٧ م) كان من أجلة خوارزم ، وبنته بيت رياسة ووزارة وكرم ومروءة ،

(١) معجم الأدباء ١٥/٢ ، وسلم الوصول ٣٢/١ .

(٢) بقيمة الدهر ١١٤/٤ .

(٣) بقيمة الدهر ١٥٤/٤ .

(٤) القيمة ١٥٧/٤ .

وكان يجمع بين آلات الرياسة وأدوات الوزارة ويضرب في العلوم والآداب
بالسهام الفائزة ، وله كتاب الروضة السُّهيلية في الأوصاف والتشبيهات ، وبمشورته
صنف الحسن بن الحارث الحسَوْنِي في المذهب كتاب السُّهيلي يذكر فيه المذهبيين
مذهب الشافعي والحنفي . خرج من خوارزم سنة ٤٠٤ هـ إلى بغداد وتوطنها ،
وترك وزارة خوارزم شاه أبي العباس مأمون خوفاً من شره ^(١) .

ومثل الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الحوفي (حوالي ٤٤٤ هـ) من تلامذة
الشيخ أبي حامد الإسفرايني ، تفقه عليه ببغداد ، وبيته بيت كبير ، قال صاحب
السكافي في تاريخ خوارزم إن بيته معمور بالعلماء منذ نحو مئتين وخمسين سنة ،
وأطال في ترجمته ^(٢) .

ومثل أبي القاسم محمود بن عبد العزيز العارضي الخوارزمي الملقب بشمس الدين
(٥٢١ هـ - ١١٢٧ م) كان من أفضل الناس في عصره في علم اللغة والأدب ،
وتخطى إلى الفلسفة فصار مفتوناً بها ، وكان يطالع الفقه وينظر في مسائل
الخلافاً ، سمع الحديث من أبي نصر القشيري وغيره ، وأملى طرفاً منه وشرحه .
وكان الزمخشري يدعوه الجاحظ الثاني ، لكثرة حفظه وفصاحته لفظه .

أقام مدة بخوارزم مكرماً في خدمة خوارزم شاه ، ثم ارتحل إلى مرو ،
فأت بها ^(٣) .

ومثل أبي علي الحسن بن المظفر الشاعر المصنف الذي كان مؤدب أهل
خوارزم في عصره وخرجهم وشاعرهم ومقدمهم ، وهو شيخ أبي القاسم الزمخشري
قبل أبي مُضَر ، ومن مصنفاته التي رأها ياقوت : تهذيب ديوان الأدب ، تهذيب

(١) معجم الأدباء ٣١/٥ .

(٢) طبقات الشافعية ٤٨/٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٢٦/١٩ .

إصلاح المنطق ، ديوان شعره ، ديوان رسائله ، زيادات أخبار خوارزم^(١) .

ومثل أبي الحسن علي بن عرقاق الصناري (انتوفى سنة ٥٣٩هـ — ١١٤٤م —
مُذَنِّاة وهي قرية من قرى خوارزم) كان نحوياً لغوياً عروضياً فقيهاً مفسراً
مذكوراً ، درس بخوارزم وبخارى ، وصنف كتاب شتاربخ الدرر في تفسير
القرآن^(٢) .

ويكفي للدلالة على كثرة العلماء وتقديرهم ما ذكره النسوى في سيرة السلطان
محمد بن تكش ، وهو أنه سیر إلى خوارزم برهان الدين محمد بن أحمد بن
عبد العزيز البخارى المعروف بصدر جهان ، رئيس الحنفية ببخارى وخطيبها
المقدم ، وكان في جملة من يعيش في ظل برهان الدين وإدارة سلقه ما يقارب ستة
آلاف فقيه ، وكان كريماً يقصده العلماء والفضلاء^(٣) .

وقد سارت طريقة التأليف في خوارزم على غرار الطريقة في البلاد العربية ،
ففي النحو والصرف والعروض لم تخرج عما سته المؤلفون في العراق والشام ومصر
والأندلس ، وفي اللغة سلكت الاتجاهين المعروفين ، وهما تأليف المعاجم على ترتيب
الألفاظ كما نجد في أساس البلاغة للزمخشري ، أو تأليف المعاجم على حسب
المعاني كما نجد في قسم الأسماء من (مقدمة الأدب) للزمخشري .

وأما في البلاغة فقد تميز الخوارزميون بما تميز به المشارقة بعامه ، وهو التأثر
بالفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، على حين أن أهل العراق والشام ومصر
والأندلسيين والغاربة تأثروا بالمذهب الأدبي .

وإذا كان مذهب المشارقة قد اتضح عند الزمخشري والرازي والمطرزي .

(١) معجم الأدباء ١٩١/٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٥/٦٣ .

(٣) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ٦٨ .

والسكاكي وأشباههم ، فإنه كان أقدم منهم ، إذ برزت معاملته في كتابي أسرار
البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، وهو متكلم على مذهب
الأشعري ، ولكنه يمتاز بتروعه الأدبي وذوقه الرفيع عن الذين خلفوه ،
فصبروا البلاغة علما جافا تعوزه نفحة الأدب ورفيف الجمال .

ويظهر أن طول ممارستهم للفلسفة والعلوم العقلية جعلهم يحفلون بدراسة
البيان والمعاني أكثر مما يحفلون بدراسة الألفاظ وفنون البديع .

وقد تنبه ابن خلدون إلى عناية المشاركة بالبيان والمعاني فقال : ^(١) « والعناية
به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم أكثر من غيره ، وبالجملة
فالمشاركة على هذا الفن أقوم من المعاربة ، وسببه — والله أعلم — أنه كالم في
العلوم اللسانية ، والصنائع السكالية توجد في العمران ، والمشرق أوفر عمرا من
المغرب كما ذكرناه ، أو نقول لعناية العجم — وهم معظم أهل المشرق — كتفسير
الرمحشري ، وهو كله مبني على هذا الفن ، وهو أصله ، وإنما اختص بأهل المغرب
من أصنافه علم البديع خاصة ، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية ، وفرعوا
له ألقابا ، وعدوا أبوابا ، ونوعوا أنواعا ، وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين
الألفاظ ، وأن علم البديع سهل المأخذ ، وصعبت عليهم مأخذ البلاغة — يريد علم
المعاني — والبيان لدقة أنظارهما ، ونحوض معانيهما ، فتجافوا عنهما . »

والمشاركة أصحاب السبق إلى تقسيم علوم البلاغة إلى بيان ومعاني وبديع .

ولأهل خوارزم بخاصة الفضل في هذا المجال منذ الرمحشري والسكاكي ^(٢)

إلى اليوم .

(١) مقدمة ابن خلدون ١٢١٥ .

(٢) السكاكي : أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر ، من أهل خوارزم ، علامة في العربية
والمعاني والبيان والأدب والعروض والشعر ، متكلم فقيه . ولد سنة ٥٥٤ هـ وتوفي سنة
٦٢٦ هـ وصنف مفتاح العلوم في اثني عشر علما (معجم الأدباء ٥٨/٢٠) .

وعلى الرغم من أن السبكي من أصحاب المذهب الأدبي في دراسة البلاغة فقد أشار بفضل المشاركة ، ومنهج مهجهم ، وهذا واضح في قوله : « وأما أهل المشرق الذين لهم اليد الطولى في العلوم ولا سيما العقلية والمنطق ، فاستوفوا همهم الشاحنة في تحصيله ، واستولوا بحجهم على جملة وتفصيله ، ووردوا مناهل هذا العلم فصدروا عنها عمل ، سجلهم . وكيف لا ؟ وقد جلبوا عليه بخیلهم ورجلهم ، فلذلك عمروا منه كل دارس ، وعمروا من حصونه المشيدة ما رقد عنه الخارس ، وبلغوا عنان السماء في طلبه ^(١) » .

وهكذا كانت خوارزم ثرية بعلمائها وأديانها قبل الزخمشري وبعده ، فلما اجتاحتها التتار سنة ٦١٨ هـ (١٢٢٠ م) دمروها ، وبددوا كثيرا من نفائسها وذخائرها ، لكن الحياة العلمية والأدبية لم تنقطع . ثم تناوبتها الأحداث ، حتى امتلكتها دول أخرى فأسدلت الأستار على ماض مشرق وتراث عظيم .

المعتزلة

كانت العراق وفارس وخراسان وما جاورها من البلاد الفارسية ، ملأى بالشيعة ^(٢) ، وكان المعتزلة كثرة في هذه الأقاليم ، وكانوا الأكثرين في كل إقليم يحكمه الشيعة ، ولهذا انتشر مذهبهم بالعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر ، وعلا صوتهم منذ قامت الدولة البويهية سنة ٣٣٢ (٩٤٣ م) ذلك أن الناس في تلك البلاد كانوا على مذهب السنة والجماعة ، فلما آل الحكم إلى بني بويه — وهم من غلاة الشيعة — ناصروا التشيع وأزروا الشيعة ، وفي سنة ٣٥٢ هـ أمر معز الدولة الناس أن يحتفلوا في العاشر من المحرم بذكرى قتل الحسين .

(١) «روس الأفراح في شرح تلخيص الفتاح ٥/١ .

(٢) راجع أدب السياسة في العصر الأموي للدواف ٣٤ .

فأغلقت الحوائط ، وخرجت النساء مسودات الوجوه منشورات الشعور ، يلطمن وجوههن على شهيد كربلاء .

وفي الثامن عشر من ذي الحجة أمر بإظهار الزينة في البلاد ليلاً ونهاراً احتفالاً بعيد الغدير^(١) . وكان من أنصارهم الكبار صاحب بن عباد الذي تولى الوزارة لفخر الدين البويهى من ٣٦٧ إلى ٣٨٥ هـ ، فقرب المعتزلة وآثرهم بالمناصب العالية^(٢) .

ثم ذاع الاعتزال واستقر بالمشرق ، حتى لقد كان أكثر الشيعة ، في بلاد العجم معتزلة ، وأكثر فقهاءهم على الاعتزال ، وكثيراً ما وقعت المشاحنات بين العامة بسبب ذلك^(٣) .

وهم كثير ، منهم بالقرب من خوارزم أبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخى ، المعروف بالسكعنى (٢٧٣ - ٣١٩ هـ) كان من كبار المعتزلة ودعاتهم ، وانتهت رياستهم إليه ، وإلى أبي على الجبائى وأبي بكر بن الإخشيد ، كما ذكر ابن حزم في كتابه الفصل . دخل (نكف) فأكرمه أهلها إلا الحافظ عبد المؤمن ابن خلف .

(١) الغدير : غدير خم ، وهو موضع بين مكة والمدينة على ثلاثة أميال من الحجة ، به ماء كثير وحوله شجر كبير ، يروى الشيعة عن البراء بن عازب أنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فزلنا بغدير خم ، فأمر بتنظيف مكان بين الأشجار المندفة بالغدير استعداداً لإقامة الصلاة ، ثم نادوا الصلاة جامعة ، فصلينا الظهر . ثم أخذ النبي بيده على ابن أبي طالب فقال : ألسنتم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قلنا : بلى ، فقال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخلف من خلفه ، وأدر الحق معه حيث دار . ألا هل بلغت ؟ قلنا ثلاثاً .

والشيعة يتخذون من هذا اليوم عيداً . وأول من اتخذ مع الدولة البويهى ، ثم جعله الفاطميون عيداً في مصر منذ سنة ٣٦٢ هـ حينما قدم المعز إليها (المال والنحل ١ / ١٤٤) .

(٢) معجم الأدباء ٦ / ٢٢٥ .

(٣) أحسن التقاسيم ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤٣٩ .

وهو صاحب فرقة من من المعتزلة سماها ابن النديم^(١) الباخية ، وسماها ،
الشهرستانى الكعمية^(٢) .

وقد وصفه أبو حيان التوحيدى بقوله : ناهيك به علما وراويا وثقة^(٣) .
والمؤرخون متفقون على أن نجم المعتزلة بدأ بأفل منذ تولى الخليفة المتوكل سنة
٢٣٢ هـ (٨٤٦ م) لأنه اضطهدهم ، وعزل قضائهم ، وصادر أملاكهم ، وسجن
كثيراً من رجالهم ، فضعف شأنهم ، وسخر الناس بهم ، كقول أبي العتاهية
فى الشئمة بأحمد بن أبي ذؤاد لما عزله المتوكل وصادر ضياعه :

لو كنت فى رأى منسوباً إلى رشيد وكان عزمك عزماً فيه توفيق
لكان فى الفقه شغل لو قدمت به عن أن تقول كلام الله مخلوق
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم ما كان فى الفرع لولا الجهل والموق^(٤)

ويقول ابن خلكان إنهم اتجمعوا منذ تولى المتوكل ، فلما ظهر أبو الحسن
الأشعرى سنة ٣٢٣ هـ ازدادوا انقاعاً ، لأنه كان معتزلياً فاشتق على المعتزلة ،
وفند كثيراً من آرائهم ، والتزم حداً وسطاً بين السنية والمعتزلة ، فلم يكن
يعول على المنقول وحده كأهل السنة ، ولا على العقل وحده كالمعتزلة ، حتى
ليعتبر أبو بكر الصيرفى عن هذا بأنهم كانوا قد رفعوا رءوسهم ، فلما أظهر الله
الأشعرى حجرهم فى أقماع السمسم^(٥) .

ولكن خوازم مع هذا كله كانت تموج بالاعتزال ، حتى ليندر أن نجد
خوازمياً ليس معتزلياً ، فإن كان غير معتزلي وأراد أن ينفى الاعتزال عن

(١) إسان الميزان ٣/٢٥٥ .

(٢) الملل والنحل ١/٧٣ .

(٣) الصائر والدخائر ١/١٤٣ .

(٤) تاريخ الطبرى ١١/١٦٦ ، الموق : الحق .

(٥) وفيات الأعيان ٢/٤٤٧ .

نفسه أكد نفية ، كما نجد في وصف ياقوت للقاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمي :
« سألته عن مولده فقال : مولدى سنة خمس وخمسين وخمس مئة . وحضرت
في منزله بخوارزم فرأيت منه صدرا يملأ الصدر ^(١) ، ذا بهجة سنية وأخلاق
هنية ، وبشر طليق ، ولسان ذليق ، فملاً قلبي وصدري ورأيت شيخاً
بهى المنظر ، حسن الشَّيْبة كبيرها وقلت له : ما مذهبك ؟ فقال حنفي ،
ولكن لست خوارزمياً ، لست خوارزمياً يكررها ، إنما اشتغلت ببخارى ،
فأرى رأى أهلها ، نفى عن نفسه أن يكون معتزلياً » ^(٢) .

وقد جعل الزمخشري اعتزال الخوارزميين أعظم فضائلهم ^(٣) ، وهو صادق
في هذا الحكم ، لأن الاعتزال شاع بينهم ، حتى إن عوامهم يدينون بأن
القرآن مخلوق ^(٤) .

القضاء

كانت الغلبة في خوارزم لمذهب أبي حنيفة ، وكان لکن مدينة قاض يفصل
بين الناس وفق الشريعة الإسلامية ، فإن كانت المدينة كبيرة وبها مذاهب
متعددة عين الخوارزميون قضاء بعدد المذاهب ، وهؤلاء القضاة كانوا يقومون
أيضاً بتدريس العلوم الدينية في المساجد والمدارس ^(٥) .

وذكر ابن بطوطة في وصفه لأمير خوارزم (قطلو دمور) ^(٦) أن من

(١) برید ریاسة وتقدماً يملأ القلب .

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٢٣٨ .

(٣) ربيع الأبرار للزمخشري الباب التاسع مخطوط .

(٤) أحسن التقاسيم ٣٩٥ ، ٤١٥ .

(٥) سيرة جلال الدين منكبرتي ٧٧ .

(٦) ضبطها بضم الفاف وسكون الطاء وضم اللام ، وضم الدال واليم ، وقال : إن معنى
الكلمة الأولى المبارك ومعنى الثانية الحديد ، فاسمه إذا الحديد المبارك ، وقال : إنه ابن خالة
السلطان المعظم أوزبك وأكبر أمراءه وواليه على خراسان .

عادته أن يأتي القاضي كل يوم إلى مجلسه ومعه الفقهاء وكتابه ، ويجلس في مقابلة أحد الأفراد الكبراء ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم ، ويتعالم الناس إليهم ، فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي ، وما كان من سواها حكم فيه أولئك الأمراء . وأحكامهم مضبوطة عادلة لأنهم لا يهتمون بميل ولا يقبلون رشوة^(١) .

ب — في الإقليم كله

لكن خوارزم لم تسكن في عزلة عن الحياة العلمية والأدبية في المنطقة كلها ، ولا سيما الأقاليم المصاحبة لها ، إذ كانت هذه المنطقة موحدة الحكم في عهد العرب البويهيين والسامانيين والسلاجقة ، وكانت تياراتها الثقافية تجري هنا وهناك بين مجتمع من الفرس والعرب والترك^(٢) .

وإنه ليسترعى الانتباه أن الإقليم الذي كان فارسيا واستعرب خراج مثات من الشعراء والكتاب واللغويين والنحاة والفقهاء والمفسرين والمحدثين .

وإذا كان البويهيون قد ذاع صيتهم بتقدير العلماء والأدباء فإن السامانيين كانوا مثلهم ، فكان نوح بن منصور الساماني يقدر العلماء ، ويؤثر استخدامهم في شئون الدولة ، ولما سمع بشهرة الصاحب بن عباد وزير آل بويه كتب إليه يستدعيه إلى بخارى ليفوض إليه وزارته وتدير مملكته ، فاعتذر الصاحب بأنه يحتاج إلى أربع مئة جمل لنقل كتبه .

واشتهر وزيران من وزرائهم بشغفهما بالأدب والعلم ، أحدهما أبو الفضل

(١) مذهب رحلة ابن بطوطة ١/ ٣٠٠ .

(٢) كثير العرب هناك منذ الفتح ، وكثير الترك وعظم نفوذهم منذ عهد المعتصم ، ثم توالى هجراتهم وكان السلاجقة من تمار بعضها .

ابن عبيد الله التميمي الذي كان وزيراً لمنصور بن نوح الساماني، وهو الذي ترجم تاريخ الطبري إلى اللغة الفارسية، والآخر أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني، الذي كان وزيراً للملك السابق، وكان يكرم قصاده ويعين مؤمليه^(١)، فشجع هذان الوزيران العلم والأدب في بخارى كما شجعهما أبو الفضل بن العبيد والصاحب بن عباد في الري، فكان في قصر الصاحب بأصبهان والري وجرجان عشرات من ذوى العلم والأدب، مثل أبي الحسين السلمي وأبي بكر الخوارزمي وأبي طالب المأمون وأبي الحسن البديهي وأبي سعيد الرستمي وأبي القاسم الزعفراني وأبي العباس الضبي وأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني وبنو المنجم وأبي الفضل الحمداني وغيرهم^(٢)، وقصده كثير من الأدباء من جهات شتى.

ثم كان السلاجقة أعظم رعاية للعلوم والآداب، بفضل الوزير نظام الملك الذي وزر لألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ) ولابنه أبي الفتح ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ)، وهو عالم درّس الحديث وعلوم السنة في طوس، وكان ينقب عن الممتازين منهم، ويبني لهم مدارس ليتعلموا بها، ويقف عليها الأوقاف، وينشئ في كل منها مكتبة، ويرتب للعلماء ما يكفيهم حتى يفرغوا للتعليم ونشر الثقافة بين الناس، ولما كثرت الأموال في خزانة الدولة خصص فيها لأرباب العلوم حقوقاً لا تؤخر، وصير هذه الحقوق ثابتة لهم وميراثاً لأبنائهم^(٣)، وإليه تنسب المدارس النظامية التي أنشأها في أمصار شتى لتعليم الحديث.

وبذكر العمد الأصفهاني أن الآباء كانوا يترددون بأبنائهم النجباء على

(١) معجم الأدباء ١٧/١٥٧.

(٢) بقيمة الدهر ٣/٣٢.

(٣) السكّال لابن الأثير ١٠/٣٠، ٧١، وتاريخ آل سلجوق ٥٤.

مجلسه ، لأنه كان يتفرس في وجوههم ، فيرشح كلا منهم للمنصب الذي يلائم
رشته وكفايته واستعداده (١) .

المكتبات

ولا شك أن رعاية الثقافة تقتضى عناية بالكتب والمكتبات على النحو
الذى نجده في وصف ياقوت لمدينة مرو وتقديره لكتبها التى انتفع بها في
مؤلفاته « فيها عشر خزائن للوقف ، لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة ، منها
خزانتان في الجامع ، أحدهما يقال لها العزيزية ، فيها اثنا عشر ألف مجلد ، والأخرى
يقال لها السكالية .

وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مثنا مجلد أكثرها بدون
رهن

وقد أنانى حبها كل بلد ، وألغانى عن الصحب والولد ، وأكثر فوائد
هذا الكتاب - معجم البلدان - وغيره فهى من تلك الخرائن (٢) .

ووصفها في رسالة إلى القاضى أبى الحسن الشيبانى وزير حلب ، وجاء في
وصفه قوله : « كان المقامُ بمرور الشاهجان المفسر عندهم بنفس السلطان ،
فوجدت بها من كتب العلوم والآداب ما شغلنى عن الأهل والوطن ، فظفرت
منها بضالتي المنشودة ، فأقبلت عليها إقبال المهم الحريص » .

ووصف في هذه الرسالة إقليم خراسان بأنه موزق الأرجاء ، رائق الأتواء ،
ذو رياض أريضة ، وجملة أمره أنه نموذج الجنة بلا مئين ، فيه ما تشتهى الأنفس
وتلذ الأعين (٣) .

(١) الكامل لابن الأثير ٢٦/١٠ ، ٧١ ، وتاريخ آل ساجوق ٥٤ العهد الأصفهاني .

(٢) معجم البلدان مدينة مرو .

(٣) وفيات الأعيان ٢/٢١٣ .

وكان نوح بن منصور الساماني كلفاً بالسكتب حريصاً على اقتنائها ، فجمع مكتبة كبيرة حوت أهم المؤلفات في كل علم من الأدب والشعر والتاريخ والطب والفلسفة ، ذكرها ابن سينا في حديثه عن نشأته ، وقال إنه استفاد منها ، وإن بعض كتبها نادر الوجود .

ولو حاولت أن أرسم صورة كاملة للحياة الثقافية هناك لطال المقال واتسع المجال ، فلتكن لحات سريرات .

علماء الحديث والفقه

من المحدثين البخارى — نسبة إلى بخارى — المتوفى سنة ٢٥٦ هـ (٨٦٩ م) وهو إمام مدونى الحديث ، ومسلم بن الحجاج النيسابورى — نسبة إلى نيسابور — المتوفى سنة ٢٦١ هـ صاحب صحيح مسلم ، وكل منهما قد وصل إلى العراق والحجاز والشام ومصر ليجمع الأحاديث بسندها ، ويميز صحيحها من زائفها .

ومن الفقهاء المجتهدين أبو بكر محمد بن المنذر النيسابورى المتوفى سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) الذى وصفه الذهبي بأنه كان مجتهداً لا يقلد أحداً ، وأبو حاتم محمد بن حبان التميمي السمرقندى المتوفى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥) الذى حكى عن نفسه أنه أخذ عن ألف شيخ بين الشاش — طشقند — والإسكندرية ، وهو مرجع كثير من المحدثين فى حكمه على رجال الحديث بالجرح والتعديل .

كما كان بالإقليم من كبار الشافعية محمد بن على القفال الشاشى المتوفى سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) وهو الذى أشر مذهب الشافعى هناك ، وكان معتزلياً ، وله كتب فى الفقه والأصول ، وأبو بكر بن فورك الأصفهاني الأصولى المتكلم المتوفى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) وهو ناصر مذهب الأشعرى ، وقد اضطهده أهل الرى لكثرة المعتزلة بها ، فطلبه أهل نيسابور ، وبنوا له مدرسة يعلم فيها ، وله مؤلفات

تبلغ نحو المئة، وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي الحافظ المتوفى سنة ٤٥٨ (١٠٦٥ م) -
نسبة إلى بيهق بالقرب من نيسابور - ومؤلفاته كثيرة حتى قالوا إنها نحو ألف
جزء ، ومنها السنن الكبير والسنن الصغير ودلائل النبوة ومناقب الشافعي
ومناقب ابن حنبل .

وكان بالإقليم من عطاء الحنفية أبو منصور الماتريدي - نسبة إلى ماتريد
وهي محلة بسمرقند - المتوفى سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) وهو في علم الكلام عند الحنفية
مثل الأشعري عند الشافعية ، وله كتاب التوحيد وأوهام المعزلة ، وما أخذ
الشرائع في الفقه ، والجدل في أصول الفقه وغيرها ، وأبو الليث نصر بن محمد
السمرقندي الملقب بإمام الهدى المتوفى سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) ^(١) .

وهكذا نجد في كتب الحديث والفقه كثيراً من العلماء منسوبين إلى مدنتهم،
مثل النيسابوري والفرغانى والهروى - نسبة إلى هراة - والنخشبرى، والبيهقي
والخوارزمي والترمزي والبلخي والسمرقندي والشاشي والفارابي والمروزي
- نسبة إلى مرو وزيادة الراى، ويقال أيضاً للمروزي نسبة إلى مرو الروز -
والرازي - نسبة إلى الرى - والصاغاني .

علماء اللغة والأدب

كذلك ازدهر الإقليم بكثير من العلماء الكبار الذين ألقوا في اللغة والأدب،
منهم على بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) وهو فقيه ومفسر
ومؤرخ وشاعر مُتَقِن وكاتب مُتَرَسِّل ، وناقد بصير ، ومن مؤلفاته (الوساطة
بين المتقني وخصومه) .

ومنهم أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى - من هراة - المتوفى سنة ٣٧٠ هـ

(٩٨٠ م) مؤلف كتاب التهذيب الذى يعد أصلاً من أصول المعاجم اللغوية ، وقد اعتمد عليه وعلى المحكم لابن سيده ابن منظور فى معجمه لسان العرب .
ومنهم أبو عمرو أحمد بن محمد الزوزنى المتوفى سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) —
نسبة إلى زوزن بضم الزاى وفتحها ، وهى بلدة بين نيسابور وهراة ، وله شرح
القصائد السبع .

ومنهم أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابورى المتوفى سنة ٣٨١ هـ
(٩٩١ م) أصله من أصبهان وسكن نيسابور ، وسمع من كبار علمائها ، وله
من المؤلفات كتاب الشامل ، وكتاب الغاية ، وكتاب قراءة أبي عمرو ،
وكتاب غرائب القرآن ، وكتاب وقوف القرآن وغيرها ^(١) .

ومنهم إسماعيل بن حماد الجوهري — من فاراب — المتوفى سنة ٣٩٨ هـ
(١٠٠٧ م) مؤلف كتاب الصحاح وهو من أمهات المعاجم العربية .

ومنهم بدیع الزمان الحمدانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ وهو كاتب وشاعر ، وقد
اشتهر بسرعة الحفظ وسرعة التحيير ، وله المقامات المعروفة باسمه التى حاكها
الحريرى فيما بعد ^(٢) .

ومنهم أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م)
كان كاتباً وكان عالماً باللغة والأدب ، وهو مؤلف كتاب فقه اللغة على الطريقة
الموضوعية ، إذ جمع فى كل موضوع الكلمات المتصلة به ، ومؤلف بتيمة الدهر
فى محاسن أهل العصر ، ترجم فيه لأدباء القرن الرابع ، وذكر نماذج من أدبهم ،
ومما قيل فيهم ، وقسمه حسب الأقاليم والأمصار ، وله كتاب ثمار القلوب فى
المضاف والنسوب وغيرها .

(١) معجم الأدباء ١٢/٣ .

(٢) معجم الأدباء ١٦١/٢ ، وبتيمة الدهر ١٦٧/٤ .

وأبو الحسن علي بن الحسن الباخري السنجي — باخرز من نواحي نيسابور — المتوفى سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) وهو مؤلف دمية القصر في شعراء العصر، جعله تذييلاً على بنية الدهر للثعالبي^(١).

ومنهم عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) وهو مؤلف كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

ومنهم أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري — الميدان محلة من محال نيسابور كان يسكنها فنسب إليها — المتوفى سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) وهو مؤلف مجمع الأمثال، والسامى في الأسماء، والنموزج في النحو، وشرح المفصلية^(٢).
ومنهم آدم بن أحمد بن أسد الهروي أبو سعد النحوي اللغوي المتوفى سنة ٥٣٦ هـ — ١١٤١ م، من أهل هراة وسكن بلخ، كان أديباً فاضلاً عالماً بأصول اللغة صائباً، ورد بغداد سنة ٥٢٠ هـ فاجتمع إليه أهل العلم وقرأوا عليه الحديث والأدب، ومن تلاميذه رشيد الدين محمد بن عبد الجليل الملقب بالوطواط كاتب الإنشاء لخوارزم شاه، وكان يكتبه ويخضع له ويقر بفضل^(٣).

الفلاسفة

نشطت الفلسفة بالإقليم نشاطاً كبيراً يرجع إلى ثلاثة من حاملي لوأمها، أولهم — حسب الترتيب الزمني — أبو القاسم عبد الله بن أحمد الكعبي المتوفى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م)، وهو من بلخ، وكان واسع المعرفة بعلم الكلام، وإماماً من أئمة المعتزلة، وله مذهب خاص وأتباع يقال لهم الكعبية^(٤).

(١) مجمع الأدباء ١٣/٣٣.

(٢) مجمع الأدباء ٥/٤٥.

(٣) مجمع الأدباء ١/١٠١.

(٤) الملل والنحل ١/٧٣.

وثانيهم أبو زيد أحمد بن سهل البلخي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٣ م) وكان صديقا للسكعي^(١)، وقد جمع بين العلوم الشرعية والأدب والفلسفة، وله مؤلفات كثيرة تبلغ نحو السبعين، منها كتاب أقسام العلوم، وكتاب شرائع الأديان، وكتاب السياسة، وكتاب أسماء الله وصفاته، وكتاب صناعة الشعر، ورسالة حدود الفلسفة، وكتاب أخلاق الأمم، وكتاب نظم القرآن.

وقد قال أبو حامد القاضى فى وصف كتابه نظم القرآن: لم أركتابا فى القرآن مثل كتاب أبى زيد البلخي.

وقال أبو حيان التوحيدى: «أبو زيد البلخي يقال له بالعراق جاحظ خراسان» وقال أيضا فى كتاب تقريب الجاحظ: «الذى أقول وأعتقد وأخذ به أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتاخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريبهم ومدحهم ونشر فضائلهم . . . لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم، أحدهم (وذكر الجاحظ) والثانى (وذكر أبا حنيفة الدينورى) والثالث أبو زيد أحمد ابن سهل البلخي، فإنه لم يتقدم له شبيه فى الأعصر الأول، ولا يظن أنه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر، ومن تصفح كلامه فى كتاب أقسام العلوم، وفى كتاب أخلاق الأمم، وفى كتاب نظم القرآن . . . علم أنه بحر البحور، وأنه عالم العلماء، وما رأتى فى الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواء^(٢)».

أما الثالث فهو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٦ م) وقد درس الفلسفة اليونانية منذ الصغر، ثم درس الطب، وقرأ من الكتب ما لم يقع للكثير من الناس قط، وما زال كتابه القانون فى الطب يدرس

(١) هو أبو القاسم البلخي الذى سبق الحديث عنه فى الاعترال بخوارزم.

(٢) معجم الأدباء ٦٤/٣ - ٨٦

في جامعات أوروبا إلى القرن التاسع عشر^(١)، وما تزال كتبه الشفاء، والنجاة، والإشارات مصدراً لدراسة الفلسفة الإسلامية.

كذلك قد درس الفلسفة وتصدى للرد على الفلاسفة دفاعاً عن الإسلام أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٨ م) وهو من مدينة طُوس، ودرس بالمدرسة النظامية ببغداد، وله مؤلفات كثيرة منها: تهافت الفلاسفة، وكتاب فضاخ الباطنة، وكتاب المنقذ من الضلال، وكتاب إحياء علوم الدين.

المتصوفة

وكان بالإقليم تصوف ومتصوفة، منهم أبو عبد الله محمد بن منازل النيسابوري المتوفى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤٠ م) وأبو العباس بن القاسم بن مهدي المتوفى سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) وهو من أهل مَرُوف، وأول من تكلم عندهم في حقائق الأحوال^(٢).

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٦ بارنولد.

(٢) ظهير الإسلام ١ / ٢٦٥.

الفصل الأول

حياته

اسمه محمود بن عمر بن أحمد، ولم أجد في نسبه ذكراً وثيقاً لأحد بعد هذا الجلد، وكنيته أبو القاسم، غلبت عليه النسبة إلى بلده الذي ولد به ونشأ فيه، فقيل الزمخشري، وكان قد جاور بمكة زماناً وأقرب نفسه بحار الله، فصار هذا اللقب علماً عليه^(١).

ولد بزمخشري السابع والعشرين من رجب سنة ٤٦٧ هـ^(٢) (١٠٧٤ م)، وليس بين الذين أرخوا له خلاف في سنة وفاته، كما أنه متفقون أيضاً على سنة ميلاده، إلا أن ابن كثير ذكر أنه توفي سنة ٥٣٨ هـ عن ست وسبعين سنة^(٣)، ومعنى هذا أن ميلاده كان في سنة ٤٦٢ هـ، لكن إجماعهم على أن المولد كان سنة ٤٦٧ هـ، وقول ابن العماد الحنبلي إنه توفي سنة ٥٣٨ هـ بعد أن عاش ٧١ سنة^(٤) يجعلنا نسقيع ما ذكره ابن كثير.

وكان مولده في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي ووزيره نظام الملك، وهو من أزهى الفترات التي نهضت فيها الآداب والعلوم.

نشأ بزمخشري ودرس بها، ثم رحل إلى بخارى ليطلب العلم في مطاع حياته^(٥).

(١) مرآة الجنان ٢٦٩/٣، ومعجم الأدياب ١٢٦/١٩.

(٢) وفيات الأعيان ٢٥٩/٤، وشفرات الذهب ١٢١/٤ [وبه أن الولد كان في ١٢ رجب].

ولأنه الرواة ٢٦٨/٣، وتاريخ أبي الفدا ١٦/٣.

(٣) البداية والنهاية ٢١٩/١٢.

(٤) شفرات الذهب ١٢١/٤.

(٥) وفيات الأعيان ٢٥٥/٤.

لأنها كانت منذ عهد السامانيين « مثابة الجدد ، وكعبة الملك ، ومجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم أدباء الأرض ، وموسم فضلاء الدهر » (١) .

كان الزمخشري في مطالع حياته طموحاً ، يأمل أن يقبوا المسكنة التي تسكني علمه وأدبه وذكاه ، وأن يقال من المال ما يكفل له رغد الحياة ، كإتال غيره ممن هم دونه مقدرة وكفاية ، وكانت الدولة الخوارزمية مازال في نشأتها ولاية تابعة للسلاجقة ، فصوّب الزمخشري نظره إلى الدولة الكبيرة التي يتولى شئونها نظام الملك ، ومدحه بقصيدة (٢) صور فيها ضيق نفسه ، وجرمه بعلمه وكفايته وفضله ، ما لم تبوءه السكان الرفيع الذي يستحقه ، وجهر بأنه من الظلم أن يظفر المتخلفون بما يجب أن يناله الأكفاء المتقدمون وحدهم ، وسخط على الزمن الذي جاد على الأراذل بحقوق الأمثال ، ثم عزى نفسه عن هذه المفارقات بأن كثيراً من القبيحات أجيادهن حالية ، على حين أن كثيراً من الحسن عواطل الأجياد .

ونلاحظ أنه في مدحه المزوج بالشكوى نوه بعلمه وأدبه ، وجعلهما صلة قربي بينه وبين نظام الملك ، وعرض بتقصيره في رعايته على ما بينهما من هذه القرابة ، مع أن غيره ممن لا قرابة بينهم وبينه كانوا يرعون حقوقه ، وختم القصيدة باعتداد مقرون بتحدى نظام الملك أن يجد له نظيراً في جميع من يرى ، وبتهديده بالرحيل عن خوارزم كلها إذا لم يسعفه بما يأمل ، وبلوم خفي على أن آماله في الوزير كانت عظيمة فذهبت سدى ، لأن الأراذل ظفروا بما لم يظفر به ، ثم طالبه صراحة بأن يأمر له بما يحقق آماله . من هذه القصيدة قوله (٣) :

خليلى هل تجردى على فضائلى إذا أنا لم أرفع على كل جاهل ؟
ومن لى يحق بعدما وفرت على أراذلها الدنيا حقوق الأمثال ؟

(١) بقيمة الدهر ٣٢/٤

(٢) ديوان الزمخشري ٩٥

(٣) الديوان ٩٤

كذا الدهر كم شَوْهَاءٍ فِي الْحَلِيِّ جِيدِهَا
وَمَا شَجَانِي أَنْ غَرَّ مَنَاقِبِي
وَوَطَّارَتْ إِلَى أَقْصَى الْبِلَادِ قِصَائِي
وَكَمْ مِنْ أَمَالٍ لِي وَكَمْ مِنْ مُصَنَّفٍ
وَلِي فِي دَقِيقِ النَّحْوِ وَالنَّقْدِ مَنْطِقٍ
غَنَى مِنْ الْآدَابِ لَكِنِّي إِذَا
فِيَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ مُسْتَغْنِيًّا وَلَمْ
يُؤَا لَيْتَنِي مُرَضٌّ صَدِيقٌ وَمُسَخِطٌ
وَمَا حَقٌّ مِثْلِي أَنْ يَكُونَ مُضْطَعًّا
وَأَعْظَمُهَا أَنِّي نَسِيبُ نَصَابِهِ
وَقَدْ كَانَ يَرْغَى النَّاسُ حَقِّي قَبْلَهُ
أَحْطَى مَنَقُوصٌ وَلَسْتُ بِمُنَاقِصٍ
فَلَا تَرَضَّ يَاصِدْرُ الْكُفَّاءِ بَأَن تَرَى
وَلَا تَجْعَلُونِي مِثْلَ هَمْزَةٍ وَاصِلٍ
فَكُلْ أَمْرِي أَمَالُهُ عِدْدُ الْخِصَا
لَئِنْ كَانَ أَمْرِي فِي خَوَارِزْمٍ مَا أَرَى
وَكَمْ قَلْتُ أَلْتِي فِي وَزَارَتِكَ الْمُتَى
وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْأَرْذَلِينَ يَرَوْنَ مَا
فُوقَعَ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ فَإِنَّهُ

وَكَمْ جِيدٍ حَسَنَاءٍ الْقَلْبُ عَاطِلٍ
تَغْنَى بِهَا الرِّكْبَانُ بَيْنَ الْقَوَافِلِ
وَسَارَتْ مَسِيرَ النِّيَّاتِ رِسَائِلِي
أَصَابَ بِهَا ذَهْنِي تَحَزُّ الْمَفَاصِلِ
إِذَا قَلْتَهُ لَمْ أَبْقِ قَوْلًا لِقَائِلِ
نَظَرْتُ فَمَا فِي الْكَفِّ غَيْرُ الْأَنَامِلِ
أَكُنْ نَحْرُ خُورَزْمٍ وَرَأْسُ الْأَفْضَلِ
عَدُوِّي وَأَنِّي فِي فَهَامَةٍ بِاقِلِ
وَقَدْ عَظُمْتُ عِنْدَ الْوَزِيرِ وَسَائِلِي
إِذَا عُرِضَتْ أَنْسَابُ هَذِي الْقَبَائِلِ
عَلَى عَدَمِ الْقُرْبَى وَبُقْدِ الْوَصَائِلِ
وَكَمْ كَامِلٍ حَظًّا وَلَيْسَ بِكَامِلِ
أَعَالَى قَوْمِ الْحَقُوقِ بِأَسَافِلِ
فَيُسْقِطُنِي حَذْفٌ وَلَا رَاءَ وَاصِلِ^(١)
وَهَاتِ نَظِيرِي فِي جَمِيعِ الْحَافِلِ
فَإِنَّ رَحَالِي فِي ظُهُورِ الرِّوَالِ
وَأَدْرِكُ وَحْدِي مَا ارْتَجَى كُلُّ أَمَلِ
تَمَنُّوا وَأَنِّي لَسْتُ أَحْطَى بِطَائِلِ
غِلَامِكَ يَجْمَعُنِي كِبَعُضُ الْأَرَادِلِ

(١) أَي لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ يَهْمِلُ الْمُنْكَامُ هَمْزَةَ الْوَصْلِ وَكَأَنَّ أَسْقَطَ وَاصِلَ بْنِ عَطَاءٍ الرَّاءَ مِنْ كَلَامِهِ

لكن الزمخشري لم يظفر من نظام الملك بما أراد ، فمذا عسى أن يكون
السبب أو الأسباب في هذا الإخفاق ؟

قد يرجع إخفاقه إلى أن نظام للملك سُمِّيَ تعلم الحديث وعلمه وأملاه ،
وافتح المدارس لتعليم الشريعة على مذهب أهل السنة ، ولكن الزمخشري
معتزلي مكاشف باعتزاله مشهور به .

وقد يرجع أيضاً إلى أنه في مدائحه ومطالبه كان يمزج طلبه بألوان من
التنويه بنفسه ، والمباهاة بعلمه وأدبه ، والتعريض بغيره ، ولوم نظام الملك على
تقصيره وتغاضيه عنه ، وكان كالآمر الذي يتوقع أنه لا بد من أن يطاع .

وحينئذ اجتمع اليأس من المقام محوارزم ، حيث لا منصب ولا مال ، والعزم على
الرحيل عن الوطن الذي ولد به وربى فيه ، وكان صراع نفسى صورته في قوله ^(١) :

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا إِلَى الَّتِي فِيهَا غُذِّيتُ وَلِيَدَا
وَلَكِنْ تُوَاسِي بِالْكَرَامَةِ غَيْرُهَا وَهَذِي أَرَى فِيهَا الْهُوَانَ عَتِيدَا
وَمَا مَنْزِلَ الْإِذْلَالِ لِلْحَرِّ مَنْزِلًا وَإِنْ كَانَ عَيْشُ الْحَرِّ فِيهِ رَغِيدَا
سَأَرْحَلُ عَنْهَا ثُمَّ لَسْتُ بِرَاجِعٍ وَأُضْرِبُ مَرْمًى فِي الْبِلَادِ بَعِيدَا
فَلَا كُنْتُ إِنْ خَيَّمْتُُ فِيهَا ابْنَ حَرَّةٍ وَلَا عَشْتُُ بَيْنَ الصَّالِحِينَ حَمِيدَا
فإلى أين يتجه ؟

لقد اتجه إلى إقليم آخر من أقاليم الدولة السلجوقية هو خراسان ، فاتصل
ببعض رجال الدولة هناك ، ومدحهم ، منهم مجير الدولة أبو الفتح علي بن الحسين
الأردستاني نائب تاج الدولة على ديوان الإنشاء في عهد السلطان أبي الفتح
ملكشاه ، وكتب الرسائل المشهور في ذلك العصر ، وقد مدحه ، وتطلع إلى أنه
يقرأ كتابيه (شرح أبيات سيبويه) و (الأنموذج) فقال ^(٢) :

(١) الديوان ٣٧ .

(٢) الديوان ٢٣ .

فعمد مجير الدولة المستجار الى
نظائري آمال مراض وجابر
فليت رحالي أقيت بفنائيه
وبقدح زندا واريا من مناقبي
وفي شرح أبيات (الكتاب) لبعض ما
و(أتمودجا) أنفذت منه بضمه
أراقب من عيت الوزير أطلاعة
جميع ثياب الدهر تبلى جديدها
مداواة أدواء وأنسو جراح
لكسر مهبضات الخطوب الفواح
فارتع في نعمائه غير نازح
إذا صلدت كل الزناد لقادح
برى في صفاتي مجملا أي شارح
رجائي أرى فيه وجوه المشاجح
عليه وحسي منه لحة لامح
ويبقى على الأيام ثوب المسداح

ونلاحظ أنه صور نفسه سقيا جريحا مهيمض الجناح، ويبد مجير الدولة برؤيه
ورد القوة إليه، وأنه يتمنى أن يلحقه بعمل عنده ليبلو كفايته التي لا مثيل لها،
وهو إذ يقدم كتابيه في النحو وهما شرح أبيات كتاب سيبويه والأتمودج^(١)
شاهدين على علمه يشترئ إلى نظرة من الممدوح راعية، أو إلى لحة حانية.
وله في مدحه قصيدة أخرى^(٢).

ومدح في خراسان مؤيد الملك عبّيد الله بن نظام الملك، وكان رئيس
ديوان الإنشاء أيام السلطان أبي الفتح ملكشاه، وكان بليغا في الشعر والنثر،
ومتفوقا على إخوته، ورد في مدحه أمله في منصب كبير بلائم كفاءته كقوله^(٣):

إليك عبيد الله أنهي شكايتي
بحقك فازجره ومُرّه لينتهي
نكايه دهر يندجى بصياله
فأمرك أمضى من مواضي نباله

(١) سأعرض لها في مؤلفاته.

(٢) إنباه الرواة ٢٦٧/٣.

(٣) ديوان الرمضري ٩٧.

فَأَنْتَ الَّذِي الدِّیَوَانُ طَوَّعَ لِحُكْمِهِ وَذَلِكَ طَوَّعَ فِي رِقَابِ رِجَالِهِ
وَأَنْتَ الَّذِي إِنْ قَالَ شَيْئًا يَرِيدُهُ فَمَا فِيهِمْ مَنْ يَنْتَقِي عَنْ مَقَالِهِ
وَكُرِّرْ مَدَامَحَهُ لَهُ ^(١).

ولكنه لم يجد في خراسان مبعثه ، ولم تكن حاله بها خيراً من حاله في
خوارزم ، فسُمِّ البقاء ، وارتحل إلى أصفهان عاصمة السلاجقة ، وكان ملكها
محمد بن أبي الفتح ملكشاه مشهوراً بالعدل وحسن السيرة والشجاعة ، وهو الذي
قضى على الباطنية ، وملك حصونهم ، وخرّب ديارهم ، وبخأ ثأرهم ^(٢) ، وهنالك
مدحه الزمخشري بالعدل والسؤدد ونصرة الحق وحماية الإسلام في قوله ^(٣) :

مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْفَتْحِ الَّذِي تَرَكْتُ أَوْصَافُهُ أَكْنَةٌ فِي كُلِّ مِنْطِقٍ
ابْنُ السَّلَاطِينِ مِنْ أَبْنَاءِ سَلْجُوقٍ وَابْنُ الْغَطَّارِ مِنْهُمْ وَالْفَرَانِيقُ ^(٤)
لَهُ مِنْ عَادِلٍ مِنْ حَقِّ سِيرَتِهِ وَنَصْرِهِ الْحَقُّ أَنْ يُدْعَى بِفَارُوقٍ
مُسْتَوْجِبٌ مِنْ جَمْعِ الشُّرْكِ مَبْغُضَةٌ مُحَبَّبٌ فِي بَنِي الْإِسْلَامِ مَرْمُوقٍ

ومرت سنوات بعد حكم أبي الفتح ملكشاه (٢٦٥ - ٥٤٨٥ هـ) وإذا
بالزمخشري يمدح السابع من ملوك السلاجقة ، وهو معز الدين سنجر (٥١١ - ٥٥٢٢ هـ)
بقصيدة ^(٥) تبدو ضحولة عواطفها ، واعتمادها على محاكاة القدماء في معانيهم ،
والجنوح فيها إلى المبالغة :

سَمَاهُ كُلُّ النَّاسِ كَعْبَةً سَوْدُورٍ أَهْلُ الْخَوَاصِ مِنْهُمْ حُجَّاجُهَا

(١) الديوان ٢٣ ، ٣٥ ، ٨٩ ، ١٠٦

(٢) السكامل لابن الأثير ١٨٥/١٠

(٣) ديوان الزمخشري ٨٦

(٤) الغطارف : جم غطريف وهو السيد . الفرانيق : جمع غرنيق أو غرنوق وهو
الشاب الأبيض الجبل .

(٥) الديوان : ٢٠ .

وَكُنَّا السَّالْطَانَ سَجَرَ كَعْبَةٍ لَمَّا نَمَجَّبُ^(١) الْمُلُوكَ رِجَالَهُمَا
رَكِبَ السِّيَاسَةَ وَهِيَ أَصْعَبُ مَرْكَبٍ فَتَطَامَنَتْ لِرُكُوبِهِ أَرْجَاحُهَا
أَلْفَتَهُ دُونَهُمْ فَمَا إِنْجَامُهَا إِلَّا عَلَى يَدِهِ وَلَا إِسْرَاحُهَا
لَوْ أَنَّهُ رَكِبَ النُّجُومَ لَمَا نَبَتَ أَفْرَادُهَا عَنْهُ وَلَا أَرْوَاحُهَا
جَنَّهُمُ الْخَيَا لَلْإِدَا طَلَقَ إِذَا ضَيْفَانُهُ تَزَلَّتْ بِهِ أَفْوَاجُهَا
يَجْرِي إِلَيْهِمْ سَيْدُهُ بِأَنَامِلِ مِثْلَ الْبَحَارِ تَلَاطَمَتْ أَمْوَاجُهَا
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

تَبَقِيَ الْحَقِيقَةُ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِنَّ الْحَقِيقَةَ وَاضِحٌ مِنْهَا جُهَا
لَوْ أَنَّ عَدْلَكَ شُبَّتْ بِمِيزَانِهَا لَا رَيْدٌ كَالْعَذْبِ الْفَرَاتِ أَجْجَاهَا

على أنه اتصل بخوارزم شاه محمد بن نوشتكين (٤٩٠ — ٥٢١ هـ) ومدحه ، وأشار في كتابه (مقدمة الأدب) برعاية ابنه أنسر (٥٢١ — ٥٥١ هـ) للعلماء والأدباء ، لأنه أمر بنسخ هذا الكتاب لخزائنه .

ثم رجع إلى نفسه في مرضته التي مرضها سنة ٥١٢ هـ ووصفها بأنها ناهكة^(٢) ومندرة ، فعاهد الله إن من عليه بالصحة ألا يطأ عتبة سلطان ، ولا متصل بخدمة سلطان ، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن مديحهم ، وأن يعف عن التطلع إلى عطياتهم والأمل في مناصبهم ، وأن يعكف على التأليف والتدريس^(٣) .

فلما شفاه الله شخص إلى بغداد ، وناظر بها وسمع من علمائها^(٤) الذين سيحى ذكرهم .

(١) لقب للوزير .

(٢) الناهكة : الشديدة .

(٣) مقامات الزمخشري ٥ .

(٤) تاريخ أبي الفدا ١٦/٣ .

وما لبث أن أحسَّ بسمو نفسه ، وبتخلصها من أوهاق المطامع ، فأنجته
إلى مكة مشوقاً راجياً الصفح من ربه عما فرط منه ، معتزماً أن يقيم بها متردداً
على بيت الله ، إلى أن يحم القضاء ، فأنجى نفسه في الطريق بقوله ^(١) :

يا من يسافر في البلاد متقبلاً إلى إلى البلاد الحرام مسافراً
إن هاجر الإنسان عن أوطانه فالله أولى من إليه بهاجر
وتجارة الأبرار تلك ومن بيع بالدين ديناه فتم التاجر
خربتُ هذا العمر غير بقية فلعلني لك يا بقية عامر
في طاعة الجبار أبذل طاقتي فلعلني فيها لكسرى جابر
سأروح بين وفود مكة وأفداً حتى إذا صدروا فما أنا صادر
بفناء بيت الله أضرب قبتي حتى يحلّ في الضريح القابر
ألقى العصا بين الخطين وزمزم لا يطبيني إخوة وعشائر
ضيقاً لولي لا يحلّ بضيفه وببذل أقصى ماتني الزائر
حسبي جوار الله حسبي وحده عن كل مفخرة بعد القاهر
سأقيم ثمّ وثمّ تدفن أعظمي ولوف يعنني هنالك الخامر

وهناك في مكة كان الأمير أبو الحسن علي بن حمزة بن وهّاس الشريف
الحسني ، وكان ذا فضل عزيز ، وله تصانيف مفيدة ، وقريحة في النظم والنثر
مجيّدة ^(٢) . فرحب بالزحشري ، وعرف قدره ، ورفع شأنه ، وأقبل على الاستفادة
منه ، كما استفاد منه الزحشري ^(٣) .

(١) ديوان الزحشري ٤٢ .

(٢) معجم الأدباء ٨٥/١٤ .

(٣) إنباء الرواة ٢٨٦/٣ ، ومعجم الأدباء ٨٥/١٤ .

ولقد اطمانت نفس الزمخشري إلى الإقامة في مكة ، وإلى التردد المستمر على بيت الله الحرام ، وإلى تكريم الأمير ابن وهّاس ، فمدح بالأمير^(١) مدحا ينبيء عن صدق العاطفة والحبّة والشكران ، كقوله :

فتى هو حال بالعمالي بأمرها وقد حليت منه المعالي بأوحدا
نجيب نمته من ذؤابة هاشم نقيبات أعراق أطابته مولدا
ولو شاء لم يعتدّ تحتد هاشم نصابا كفاه بالنبوة محتدا
وتقرأ من سياه في قمتاه شهادة حق أنه سيبط أحدا
هو الحر ما أصدى إلى بيض معشري إلا نقت به الصدى
ولى منه نصيح الجيب والعقدة التي أبت أن يرى الرءون أوثق معقدا
ولولا ابن وهّاس وسابق فضله رعت هشيا واستقيت مصرّدا
وكان ابن وهّاس يمدح الزمخشري ، فمن مدحه قوله^(٢) :

وكم للإمام الفرد عندي من يد وهاتيك مما قد أطاب وأكثرا
أخى العزمة البيضاء والهمة التي أنافت بها ، علامة العصر والورى
جميع قرى الدنيا سوى القرية التي تبوأها داراً فداء زمخشرا
وأحرى بأن تزهى زمخشرا بامرى إذا عُدّ في أسد الشرى زمخ الشرا^(٣)
فلولاه ما طنّ البلاد بذكرها ولا طار فيها منجدا ومغورا
فليس ثنّاها بالعراق وأهله بأعرف منه بالحجاز وأشهرها
وفي أيام مقامه بالحجاز زار همدان ، ومدح آل زريّر ، فقال في إحدى قصائده^(٤) :

(١) ديوان الزمخشري ٢٧ ، ٧٤ ، والنجوم الزاهرة ٢٧٤/٥ .

(٢) معجم البلدان ٤٠٠/٤ ، وإنباء الرواة ١٦٨/٣ ، والقاموس المحيط مادة زمخشري .

(٣) القسرا : مأسدة . زمخ : تكبير . (٤) ديوان الزمخشري ١١٥ .

كَمْ قُلْتُ فِي خُورَزْمٍ عِنْدَ تَرْحَلِي لِرَكَائِي سِيرِي إِلَى هَمْدَانَا
لَوْ لَمْ أَقُلْ سِيرِي إِلَى هَمْدَانِ مَا هَمَدْتُ بِنَا فِي سِيرِهَا هَمْدَانَا^(١)
وَبِتَوَزَّرِي مَا تَزَرُّ ثِيَابَهُمْ إِلَّا عَلَى الْمُخَضَّبَاتِ مِنْ ثَمَلَانَا
وَطُوفَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، لِأَنَّهُ يَقُولُ : وَطِئْتُ كُلَّ تُرْبَةٍ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ ،
فَوَجَدْتُ (تُرْبَةٍ) أَطْيَبَ التُّرْبِ ، وَهِيَ وَادٍ عَلَى مَسِيرَةِ أَرْبَعِ لَيَالٍ مِنَ الطَّائِفِ ،
وَرَأَيْتُ نَاسًا مِنْ أَهْلِهَا^(٢) .

وَلَسَكُنْهُ بَعْدَ أَنْ أَقَامَ بِمَكَّةَ نَحْوَ سَنَتَيْنِ شَاقَهُ وَطَنُهُ ، فَرَحَلَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ لَامَ
نَفْسَهُ أَشَدَّ اللَّوْمِ ، وَبَكَى أَحْرَ بَكَاءَ ، وَصَوَّرَ هَذَا فِي عِدَّةِ قِصَائِدٍ مِنْهَا قَوْلَهُ^(٣) :
بَكَاءَ عَلَى أَيَّامِ مَكَّةَ إِنْ بِي إِلَيْهَا حَنِينَ النَّيْبِ فَاقْدِمِ الْبَسْكَرِ
تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي بِهَا فَكَأَنِّي قَدْ اخْتَلَفْتُ زُرْقُ الْأَسْنَةِ فِي صَدْرِي
أَيَّتْ عَلَى الصَّخْرِ الْمُبَارَكِ بِأَكْمِيَا كَمَا أَنَّتِ الْخَنَسَاءُ تَبْكِي عَلَى صَخْرٍ
وَقَوْلُهُ^(٤) :

أَبْتَسَاعَ بِالْفُوزِ الشَّقَاوَةَ خَاسِرًا وَأَسْتَبْدِلُ الدُّنْيَا الدُّنْيَةَ بِالْآخِرَى ؟
إِذَا خَطَرْتُ بِالْبَالِ ذِكْرِي إِنَّاخَتِي عَلَى حَرَمِ اللَّهِ اسْتَفْزَنْتَنِي الذِّكْرِي
وَأَدْعُو إِلَى السُّلُوفِ قَلْبًا جَوَابُهُ لِدَاعِيهِ مُهْرَاقٌ مِنَ الْمَقْلَةِ الْغُبَرِي
وَمَا عُذْرُ مَطْرُوحٍ بِمَكَّةَ رَحْلُهُ عَلَى غَيْرِ بَوْسٍ لَا يَجُوعُ وَلَا يُعْزَى
فَمَا فَرَّ عَنْهَا يَتَغْنَى بِدَلَالِهَا وَرَبُّكَ لَا عُذْرًا وَرَبُّكَ لَا عُذْرًا

(١) لَيْسَ فِي أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ وَلَا فِي الْقَامُوسِ مَعْنَى يَلِثَمُ وَضَعَ هَمْدٌ فِي الْبَيْتِ ، لِأَنَّ أَهْمْدَ
بِمَعْنَى أَقَامَ وَبِمَعْنَى أَسْرَعَ ، وَالرَّادُ هَذَا الْإِسْرَاعُ ، فَيَكُونُ الصَّوَابُ أَهْمْدُ إِعْمَادًا لَا أَهْمْدُ هَمْدَانًا .
(٢) أَسَاسُ الْبَلَاغَةِ مَادَّةُ تَرْبِ .

(٣) الدِّيْوَانُ ٤١

(٤) الدِّيْوَانُ ٤١

فلم يكن بد من العزم على العودة إلى مكة ، فقبل له : قد رَجَّيْتَ أَكْثَرَ
عَمَلِكَ هُنَا ، فما الموجب ؟ قال : القلب الذي لا أجده هنا ثم أجده هناك ^(١) . ومعنى
هذا أنه لم يكن يجد طمأنينة القلب ، وصفاء النفس ، وادّة العبادة إلا في مكة .

ها هو ذا ينطلق إلى مكة ، وفي طريقه إليها يعرج على الشام ، فيمدح تاج
الملوك بوري طفتكين صاحب دمشق ، ولم يكن هذا المدح للزلفى أو لاستدرار
عطاء ، بل كان خالصاً لوجه الله ، لأن بوري كان معروفاً بكرهيته للباطنية ،
حتى إنه قتل منهم ستة آلاف ، وكان قد حوى المسلمين من الصليبيين ، إذ جمع
العرب والترك كان لصددهم عن دمشق وهزمهم سنة ٥٢٣ هـ ^(٢) (١١٢٨ م) .

والراجح أنه أقام بالشام مدة ، لأنه مدح شمس الملك الذي خلف أباه سنة
٥٢٦ هـ ^(٣) .

وفي السنة نفسها سلك الطريق إلى مكة فبلغها ، وقضى بها ثلاث سنوات ،
لحق فيها من ابن وهّاس ما كان يلقاه من قبل من حفاوة وتعظيم ، وكان ابن
وهّاس يوافقه في مذهبه ، فشجعه على تأليف تفسيره الكشف ^(٤) ، فحق له أن
يمدح ابن وهّاس بقوله ^(٥) :

بِمَكَّةَ آخِيتُ الشَّرِيفَ وَفَتِيَّةَ تُوَالِيهِ مِنْ آلِ النَّبِيِّ غَطَارِفًا ^(٦)
يَتَابِعُ إِنْ تُوْظِرْتُ رَدْمًا لَشَاغِبٍ وَبِهَضٍّ إِنْ دَوَّرْتُ رَدْمًا مَكَاثِفًا
مَنْ أَقْبَلَ الْعَالَمَةَ اتَّفَضُوا لَهُ وَحَيَّوْهُ ، حَيَّا اللَّهُ تِلْكَ الْمَعَارِفَا

(١) إنباء الرواه ٣/٢٦٦ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٣٤ ، ٢٤٣ .

(٣) ديوان الرخمصري ٧٩ .

(٤) مقدمة الكشف وديوان الرخمصري ٧٤٠٢٧ .

(٥) ديوان الرخمصري ٧٩ .

(٦) غطارف : جمع غطاريف وهو السيد الشريف .

وكان ابن وهّاس لجنبى فارساً
وتمّ لى الكشف تمّ ببلدة
على باب أجياد بنى لى منزلاً
وأنفق فى إقامته من تلاده
كما تفعل الأم الحفية لاحفا
بها هبط التنزيل للحق كاشفا
كركن شام بالصفا مُنواصفا^(١)
ثقيات وزر فى البلاد خفافا
ولم يكن غريباً أن يقول فى قصيدة أخرى^(٢) :

زأرت وراء دين الحق زأراً
ومن بغضب لدين الله يجمع
وليس الجبر والتشبيه إلا
فقم بالعدل والتوحيد فيه
وقد نبّحت كلاب المفري
مراضيه إلى الأجر السني
بقية إرث دين جاهلى
نقيم يابن النبي هدى النبي
وحينئذ يبدو أنه اطمأن وهدأ ، وصور فرحته فى قوله^(٣) :

أنا الجارُ جار الله ، مكة مركزى
وما كان إلا زورة نهضتى إلى
فلما قضت نفسى — ولله درها —
كررتُ إلى بطحاء مكة راجعاً
فمنّ يأتى فى بعض القرىأت رحله
ومن كان فى بعض المحارب راکعاً
ومضرب أوتادى ومعه قد أطنابى
بلاد بها أوطان رهطى وأحبابى
لبانة دار زندها غير خياب
كأنى أبو شيملىن كرت إلى النساب
فأم القرى ملقى رحالى ومنتابى
فللكعبة البيت المحرم محرابى

ولكن هذا الرحالة الثقلة اشتاق إلى وطنه ثانية ، فسافر إلى خوارزم ،
وعرج على بغداد سنة ٥٣٣ هـ .

(١) شام : جبل .

(٢) ديوان الزمخشري ١١٦

(٣) الديوان ٥

ثم أقام بخوارزم إلى أن حم القضاء ليلة عرفة سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م)
 بجرجانية - قصبة خوارزم على شاطئ نهر جيحون - بعد رجوعه من مكة^(١) .
 وقد زار ابن بطوطة خوارزم في أوائل القرن الثامن الهجري ، وقال :
 « بخارج خوارزم قبر الإمام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، وعليه
 قبة^(٢) » .

(١) وفیات الأعيان ٤/٢٥٩ ، وشذرات الذهب ٤/١٣١ ، وإنباء الرواة ٣/٢٩٨
 وهو يسمى جرجانية ، كركانج . وتاريخ أبي الفدا ٣/١٦ .
 (٢) مذهب رحلة ابن بطوطة ١/٢٩٨ .

الفصل الثاني

أساتذته

استقى الزمخشري من منابع كثير من العلماء الذين عاصروهم ، كما نهل من مؤلفات سابقيه .

ولعل أعظم أساتذته آثاراً في نفسه أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٧ هـ ، كان يلقب بفرید العصر ، ووحيد الدهر في علم اللغة والنحو ، ويضرب به المثل في أنواع الفضائل . وقد درس عليه الزمخشري النحو والأدب .

أقام في خوارزم مدة ، فانتفع الناس بعلومه ومكارم أخلاقه ، وأخذوا عنه علماً كثيراً ، وتخرج عليه جماعة من الأكابر في النحو واللغة ، وهو الذي أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة ، ونشره بها ، فاجتمع عليه الخلق لجلالته ، وتذهبوا بمذهبه ، ومنهم أبو القاسم الزمخشري ^(١) . وقد توسم أبو مضر في تلميذه الذكاء والجد والجدارة بأن يخلفه ، فتمعه به علمه ، ورعاه بماله ، يدل على هذا قول الزمخشري لنظام الملك ^(٢) :

إليك نظام الملك شكواي فاستمع إلى بث تجذوذ المعاش ضنكها
ولو لم يَلِ الضبي عنى عراكها لئلا تيد البلوى أدبى بمرّكها
وكان الزمخشري محباً لأستاذه أبي مضر ، وفيّاً له ، فلما مات سنة ٥٠٧ هـ رثاه بقوله ^(٣) :

(١) معجم الأدباء ٢٢/١٩ وشذرات الذهب ١١٩/٤ ، ووفيات الأعيان ٣٥٤/٤

وفية الوفاة ٣٨٨ . (٢) الديوان ٩١ . (٣) الديوان ٦٤ .

فقلت لطبعي هات كل ذخيرة فمن أجله ما زلت أدخِرُ الذخرا
وأبرز كرمات القسوفى وعزها فمنه استفدنا العلم والنظم والنثرا
ورثاه بقوله^(١) :

وقائلة ما هذه الدررُ التي تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت لها : الدر الذي كان قد حشا أبو مضر أدنى تساقط من عيني
وعلق عليهما الياقوتى بقوله : هذا مثل قول القاضي أبى بكر الأرجانى :
ولم يبكى إلا حديث فراقهم لما أسرته إلى أدمعى
هو ذلك الدر الذى أودعته فى مسمى أجريته من مدمعى
ولا يدري أيهما أخذ من الآخر ، لأنهما كانا متعاصرين^(٢) .

ثم رحل إلى بخارى ليستزيد من مناهل علمائها^(٣) ، وكانت ماتزال
تابعة للدولة السامانية ، ولها صيت ذائع فى العلم ، حتى إن الثعالبى يقول : إنها
كعبة طلاب العلم ، ومطلع نجوم أدباء الأرض^(٤) .
كذلك سمع الحديث من شيخ الإسلام أبى منصور نصر الحارثى ، ومن أبى
سعد الشافعى^(٥) ، ومن أبى الخطاب بن أبى البطر^(٦) .

(١) الديوان ٥٧ ، ووفيات الأعيان ٢٥٨/٤ ، ومعجم الأدباء ١٣٤/١٩ مع بعض
تصحيح ، وشذرات الذهب ١٢٠/٤ ، ومرآة الجنان ٢٧٠/٣ ، وإنباء الرواة ٢٦٧/٣ .

(٢) مرآة الجنان ٢٧٠/٣

(٣) وفيات الأعيان ١٠٧/٢ ، ومعجم الأدباء ١٢٧/١٩

(٤) بليغة الدهر ١٠١/٤

(٥) معجم الأدباء ١٩ / ١٢٧ وبليغة الرواة ٣٨٨

لم أعثر على ترجمة للحارثى فى كتب الطبقات والتراجم ، وأما الشافعى فتبع الشيخ على
للمشهور وبكسرهما على الصحيح فلم أجد فى من يعرف بهذه النسبة من يبكى أباسعد أو أباسعيد ،
بل وجدت من المشهورين بالحديث أبى الفضل العباس بن الشيخ أبى العباس أحمد بن محمد بن
الشافعى الحنسوى من أهل نيسابور ، كان قصها محدثاً ألفى عمره فى الكفاية ، وسمع الحديث
وصحبه الأكابر ، ولزوم المجالس ، والمناظرات على المشايخ ، وإفادة الصبيان والشبان ، وكان أبوه
من أقداد أئمة الأصول . توفى أبو الفضل سنة ٥٠٦ هـ (الأنساب لسبعالى ورقة ٣٣٦)

(٦) طبقات المفسرين ٤١ . لم أعثر له على ترجمة فى كتب التراجم والطبقات .

(م ٤ — الترجمة)

وقد أخذ الأدب عن أبي علي الحسن بن المظفر النيسابوري^(١)

ونجد في تاريخه أنه اجتمع في بغداد بالفقيه الحنفي الدامغانى^(٢) وبالشريف ابن الشجرى^(٣). وقال القفطى^(٤) إن الرنخسرى قدم علينا ببغداد سنة ٥٣٣هـ، ورأيت مرتين عند شيخنا أبي منصور بن الجوالقى^(٥) قارئاً عليه بعض كتب اللغة من فوائدها ومستعجزاً لها.

كذلك نجد في تاريخه أنه قرأ في مكة كتاب سيبويه على عبد الله بن طلحة اليبارى^(٦). فإذا صححت رواية القفطى أن الرنخسرى قرأ على الجوالقى بعض

(١) معجم الأدباء ١٩/١٢٧. وكان الأصل (عن أبي الحسن على بن المظفر) وليسكنى سوبته من المعجم نفسه ٩/١٩١. والحسن هذا كاتب شاعر مؤلف. كان في عصره مؤدب أهل خوارزم ومخرجهم وشاعرهم ومقدمهم، وهو شيخ الرنخسرى قبل أن يضر، وله مؤلفات منها: تهذيب ديوان الأدب، وتهذيب إصلاح النطق، وحاشي من اسمه الحسن (وهذا يؤكد أن اسمه الحسن) وزيادات أخبار خوارزم، وديوان شعر، وديوان رسائل (معجم الأدباء ٩/١٩٠).
(٢) وفیات الأعيان ٢/٣٥٥. الدامغانى ينتسب الميم بلد من بلاد قومس، من علمائها في الحديث فاضى القضاء أبو عبد الله محمد بن علي الدامغانى، ولى قضاء بغداد مدة، وكان إياه القضاء والرياسة والتقدم، وكان فقيهاً فاضلاً، توفى ببغداد سنة ٩٨هـ؛ (الأنساب ورقة ٢١٩) وكان حنفي المذهب، وقد فاضل الشيرازى [طبقات الشافعية ٣/١٠٠].

(٣) نزعة الألبا ٤٧٠. ابن الشجرى هو هبة الله بن علي أبو السماعات ينتسب لدهلى على ابن أبي طالب، كان فرد زمانه في العلوم العربية، وعلم النحو سبعين سنة، توفى سنة ٤٢٢هـ، وله من المؤلفات: الأمالي، والانتصار على ابن الحشاش، والحجاسة ضاحي به حاسة في تمام، وشرح اللمع لابن جني، وكتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه، وشرح التصريف للوكلى، وغيرها [معجم الأدباء ١٩/٣٨٢].

(٤) إنباء الرواة ٣/٢٧.

(٥) هو موهوب بن أبي طاهر أحمد الجوالقى، كان إماماً في فنون الأدب، وهو من مفاخر بغداد، درس الأدب في المدرسة النظامية بعد الخطيب التبريزى، وكان في اللغة أمثل منه في النحو، وكان متواضعاً من أهل السنة، وله حسن التصانيف المفيدة التي انتشرت عنه، مثل شرح أدب الكاتب، والغرب من الكلام الأنجمي، والتكملة فيها يلحق فيه العامة، أكل به حرة القواص للحرزى، وله سنة ٤٤٦هـ وتوفى ببغداد سنة ٥٣٩هـ (وفيات الأعيان ٤/٢٤٤ ومعجم الأدباء ١٩/٣٠٥ وبقية الوعاة ٤٠١).

(٦) بقية الوعاة ٢٨٤ وطبقات المفسرين ٣١. هو نحوى أصولي فقيه توفى سنة ٥١٨هـ [بقية الوعاة ٢٨٤].

كتب اللغة سنة ٥٣٣ هـ ليستجيزه كانت دليلاً على أنه وهو في السادسة والستين
من عمره ، وقبل أن يودع الحياة بخمس سنوات ، لم يأنف أن يجلس جلسة الطالب
المستزيد ، مع أمه بعد مرضه سنة ٥١٢ هـ زار بغداد وناظر بها ^(١) ، وألف
كثيراً من كتبه .

الفصل الثالث

تلاميذه

كان الزمخشري صادقا إلى الثقافة يتردد على مناهلها ، ويرتوي من رجاها ، ثم كان له تلاميذ عطاش إلى منهل ، يسرعون إليه في كل بلد حله ، فيستقون منه ، ويخرجون ما استقوه جداول تنقع غلة الناس .

يذكر القفطي^(١) أنه دخل خراسان ، وورد العراق ، وما دخل بلدا إلا اجتمع الناس عليه ، وتلمذوا له ، واستفادوا منه . ويقول إنه أقام بخوارزم تضرب إليه أكباد الإبل ، وتخط بفتاه رجال الرجال ، وتحدي باسمه مطايا الآمال . ويذكر كزباقوت أنه قدم بغداد ، في طريقه إلى الحج فاجتمع الناس حوله ليسمعوا منه^(٢) .

وهؤلاء التلاميذ كثير ، منهم زمخشري أبو عمرو عامر بن الحسن السمار ، وبطبرستان أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويلي ، وبأبيورد أبو المحاسن عبد الرحيم بن عبد الله البزاز ، وبسمرقند أبو سعد أحمد بن محمود الشافعي ، وغيرهم^(٣) . ومنهم بخوارزم أبو طاهر سامان بن عبد الملك الفقيه ، والوفيق بن أحمد بن أبي سعيد المعروف بأخطب خوارزم ، كان متمكنا في العربية غزير العلم فقيها أدبيا شاعرا^(٤) ، ومنهم علي بن محمد القمزي الخوارزمي .

(١) إنباء الرواة ٣/٢٦٦

(٢) معجم الأدباء ١٩/١٣٨

(٣) الأنساب لإسماعيلي ٢٧٨

(٤) بغية الوعاة ٤٠١ والأنساب ٢٧٨

أبو الحسن الأديب ، الملقب بحجة الأفاضل ونخلة المشايخ ، المتوفى حوالى سنة ٥٦٦ هـ ، قرأ الأدب على الزمخشري فصار أكبر أصحابه وأوفرهم حظا من غرائب آدابه ، وجعل أيامه فى آخر عمره مقصورة على نشر العلم ، وفزع الناس إليه فى حل المشكلات وشرح العضلات ، وكان مولعا بالسماع كتبوا ، وهو مع علمه الغزير وفضله الكثير علم فى الدين والصلاح ، وكان يذهب مذهب المعتزلة ، وله تصانيف حسان منها : كتاب المواضع والبلدان ، وكتاب تفسير القرآن ، وكتاب اشتقاق الأسماء ^(١) .

وتَلَمَّذَ له محمد بن أبى القاسم بايجوك ، أبو الفضل اليعاقبى الخوارزمى الأدمى الملقب زين المشايخ (٥٦٢ هـ) النحوى الأديب ، كان إماما فى الأدب ، وحجة فى لسان العرب ، أخذ اللغة وعلم الإعراب عن أبى القاسم الزمخشري ، وجلس بعده مكانه ، وسمع الحديث منه ومن غيره ، وله من التصانيف : مفتاح التبريل ، وتقويم اللسان فى النحو ، والإعجاب فى الإعراب ، والبداية فى المعانى والبيان ، وكتاب منازل العرب ، وشرح أسماء الله الحسنى ، وغير ذلك ^(٢) .

وتَلَمَّذَ له أبو يوسف يعقوب بن على بن محمد بن جعفر البلخى ، أحد الأئمة فى النحو والأدب ، أخذ عنه ولزمه ^(٣) .

ومن تلاميذه على بن عيسى بن حمزة بن وهَّاس ، من ولد سليمان بن حسن ابن على بن أبى طالب ، كان شريفا جليلا محامدا من أهل مسكه وشرفائها وأمرائها ، وكان ذا فضل غزير ، وله تصانيف مفيدة ، وقريحة فى النظم والنثر مجيدة ، قرأ على الزمخشري بمسكة ، وبرَّرَ عليه ، وصُرِّفَت أَعْنَةُ طلب العلم إليه ،

(١) معجم الأدباء ٦١/١٥ وبغية الوعاة ٣٥٠

(٢) معجم الأدباء ٥/١٩

(٣) معجم الأدباء ٥٥/٢٠

(توفي سنة نيف وخمسين وخمسة) ^(١) وهو الذى مدحه بأبيات منها :

وكم للإمام الفرد عندى من يد وهاتيك مما قد أطاب وأكثرا ^(٢)

ومنهم زينب بنت الشعرى التى أجازت ابن خلكان ^(٣) .

ومن استجازوه محمد بن عبد الملك البلى الذى ينهى نسبه إلى عمر بن الخطاب المعروف برشيد الدين الوطواط، كان أبرع معاصريه فى النظم والنثر، وكان ينشئ فى وقت واحد بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر، ويمليهما معا، وكان شاعر البلاط وكاتب الإنشاء فى عهد السلطان الخوارزمى أئمز وفى عهد إيل أرسلان وابنه علاء الدين تكش، وله مصنفات منها حدائق السحر فى دقائق الشعر ^(٤) .
وحينما كان بمكة مجاورا كتب إليه الخافض أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفى من الإسكندرية يستجيزه فى مسموعاته ومصنفاته ، فرد عليه بما لا يشفى الغليل ، فلما كان العام الثانى كتب إليه رسالة أخرى مع الحاجة يستجيزه ، قال فى آخرها : « ولا يحوج — أدام الله توفيقه — إلى المراجعة ، فالسافة بعيدة ، وقد كاتبته فى السنة الماضية ، فلم يجب بما يشفى الغليل ، وله فى ذلك الأجر الجزيل » . فرد عليه الزمخشري فى تواضع وتهرب من الإجازة ، وقد ذكر ابن خلكان أكثر رسالة الزمخشري ، وعقب عليها بقوله : ما أعلم هل أجازته ، بعد ذلك أو لا ^(٥) ؟ .

وليس من شك فى أن تلاميذ كتبه كانوا كثرة ، وأن قراء مؤلفاته كانوا يقدرون علمه ، لأنه كان فى عصره كما قال القفطى علامة الأدب ، ونسابة

(١) معجم الأدباء ١٤/ ٨٥ ، ولنباه الرواة ٣/ ٢٦٨

(٢) معجم الأدباء ٤/ ٤٠٠

(٣) وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٧

(٤) معجم الأدباء ١/ ١٠٣ ، ١٩/ ٢٩

(٥) وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٦ ، وشذرات الذهب ٤/ ١٢٠ ، وبقية الوعاة ٣٨٨ ،

ومعجم الأدباء ١٩/ ١٣٢

العرب ، وكان أعلم فضلاء المعجم بالعربية في زمانه ، وأكثرهم أنسا وإطلاعا على كتبها ، وبه ختم فضلاؤهم^(١) . من هؤلاء الأمير شبل الدولة أبو الهيجاء مقبل بن عطية البكري ، ختن نظام الملك ، فقد أرسل إليه هذه الأبيات :

هذا أدب فاضل مثل الدراري دُرَرُه
زخمشريُّ فاضل أنجبُه زخمشره
كالبحر إن لم أره فقد أتاني خبره

فرد عليه الزخمشري بقوله :

شعره أمطر شعبي طرفاً فاعتلى منه نبات الجسدِ
كيف لا يستأسد النبات إذا بات مسقياً بنوء الأسد^(٢)

ومنهج منتجب الملك أبو جعفر محمد أحد كبراء دولة السلطان السلجوقي سنجر ، فقد بعث إليه رسالة وقصيدة وهو في مكة ، من قصيدته قوله^(٣) :

إليك يهزني الحب المطاعُ ويسكرني لرؤيتك النزاعُ
فهل لك يا شقيق النفس علم بما أنباتُ عنه وإطلاع
وأنت لسكل منقبةٍ معانٍ ومن درِّ العلوم لك ارتضاع
ولما كمت جار الله ضارت تسير بك الأماكن والبقاع
أضى بعلمك الدنيا فيضحي له في كل ناحية شعاع

(١) إنباء الرواة ٢٦٦/٣ ، ٢٧٠ .

(٢) إنباء الرواة ٢٧١/٣ .

(٣) إنباء الرواة ٢٧٢/٣ .

الفصل الرابع

مؤلفاته

نشأ في خوارزم ، وهي إقليم إسلامي كان جيرانه يتطلعون إلى امتلاكه ،
و يريدون أن يبدل أهله دينهم ، فهو يقول : « إن خوارزم تفر من ثغور
الإسلام ، قد اكتنفه أهل الشرك ، وأطافت به قبائل الترك ، فغزو أهله
معهم دائم ، والقتال بينهم قائم ، قد أخلصوا في ذلك نياتهم ، وأحصوا
عن طويبتهم ، وقد تسكف الله نصرهم في عامة الأوقات ، ومنعهم الغلبة في
كافة الوقعات ، ثم حصنه الله بحيجون ، بواد عسير المعبر ، بعيد المسالك ، غزير
الماء ، كبير الممالك ، فلا يتوغل متوغل إلا خاطر يمحطه ، ولا سلك منافذه
سالك إلا كان على يأس من سلامته » (١) .

وقد كان لهذا أثر عميق في حماسة السكان وحماسة الزمخشري للإسلام ،
فهم يغارون على دينهم أن يمسه أذى أو عدوان ، وهم أيقاظ للدفاع عنه ،
ولهذا جرد الزمخشري قلمه للتأليف في ميدان اللغة العربية والشرعية الإسلامية .

وكانت النهضة العلمية والأدبية التي بلغت أوجها في القرن الرابع ما تزال
قوية الدفع ، بعيدة الآثار ، وكانت الدول التي انفصلت من الحكم العربي
كالدولة السامانية والدولة السلجوقية والدولة الخوارزمية تجد في الأزدहार

العلمي والأدبي حياة لها وقوة وشهرة بحسن الأحدثية بين الناس ، فقربت إليها العلماء ، وشجعت على التأليف والتعليم كما سبق في تصوير الحياة الثقافية .

وكان الزمخشري منذ صباه مشغولاً بالدرس والبحث ، وقد امتزج بالعلوم العربية والإسلامية امتزاجاً شغل قلبه ، وامتلك نفسه وكان أعزب لانتصرفه عن التأليف شواغل الآباء بالأسرة والأبناء .

لهذا كله فرغ للعلم ، فأنهمرت عليه سحائب العلم ، ومنح الثقافة جهده ، فجادت عليه الثقافة بأوفر نصيب ، وحبس على التأليف نشاطه فكثرت مؤلفاته وتنوعت ، وحلّد كثير منها إلى اليوم .

ويتضح من كلامه أنه كان يختص مؤلفاته بإعازره وحبه ، حتى لقد اتخذ منها أبناء البررة ، واستعاض بها عن النسل ، وفضلها على البنين والبنات ، لأنها مبرأة من العقوق والمشاكبة ، فقال ^(١) :

بني فاعلم بنات فكري	حصانهم أمة الدراسة ^(٢)
أبناء صدق لهم نفوس	وصفن بالفضل والثقافة
حماة عرضي محصنوه	في كنف الصون والحراسة
بر صريح بلا عقوق	خلق صحيح بلا شكاسة
ما نسل قلبي كنسل صلي	من فاس رد له قياسه
كم بين ذي مسلك ظهور	وسالك مسلك الخساسة
من ساس أبناءه فإننا	لهؤلاء البنين ساسه

(١) ديوان الزمخشري ٢٦٠ .

(٢) يريد أن أهم العقيدة هي الدراسة .

وقد ذكر مؤلفاته أكثر الذين ترجموا له^(١)، وسأذكرها مسلوكة في مجموعات، متناسقة ثم أعرض لها بالتحليل فيما بعد :

(١) في العلوم الدينية ورجالها

١ — الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل .
طبع أول مرة بالمطبعة البهية المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ في مجلدين ،
وبهامشه كتاب (الانتصاف من الكشف) لفنصر الدين أحمد
ابن محمد بن منصور الإسكندري المالكي المشهور بابن المتير ، ثم طبع بعد ذلك .

٢ — رموس المسائل (في الفقه) غير معروف .

٣ — معجم الحدود (في الفقه) غير معروف .

٤ — المنهاج (في الأصول) غير معروف .

٥ — ضالة الناشد والرائض في علم الفرائض . غير معروف .

٦ — مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة . (الأصل لأبي سعيد
الرازي إسماعيل . غير معروف) .

٧ — شقائق النعمان في حقائق النعمان (في مناقب أبي حنيفة) . غير
معروف .

٨ — شافي العي (أو العي) من كلام الشافعي . غير معروف .

(١) وفیات الأعيان ٢٥٤/٤ ، ومعجم الأدباء ١٣٤/١٩ ، وعتبرات الذهب ١١٩/٤
وبنية الوعاة ٣٨٨ ، وإنباء الرواة ٢٦٦/٣ ، وإنباء الزيان ٤١٦ . وتاريخ آداب اللغة العربية
لجرجي زيدان ٤٨١/٣ .

٩ — رسالة في حكمة الشهادة ، وأخرى في نص العشرة ، ذكرهما جرجى زيدان ، وقال إنهما مخطوطان في برلين .

(٢) في اللغة

١٠ — أساس البلاغة .

طبع في مجلدين بمطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٣٤١ هـ - ١٩٢٢ م .

١١ — الفائق في غريب الحديث .

طبع في حيدر آباد في مجلدين سنة ١٣١٤ ، وطبع في ثلاثة مجلدات بمطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ، بتحقيق الأستاذين علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم من سنة ١٣٦٤ هـ - ١٣٦٧ هـ (١٩٤٥ - ١٩٤٨ م) .

١٢ — الجبال والأمكنة والمياه .

طبع في لندن سنة ١٨٨٥ م في مجلد واحد عدد صفحاته ١٦٩ . مضافاً إليها فهرس في ٣٢ صفحة وترجمة إلى اللاتينية في ٣١ صفحة .

١٣ — أعجب العجب في شرح لامية العرب .

طبع الطبعة الأولى بمطبعة الجوائب بالقسطنطينية وطبع الطبعة الثانية بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ في ٦٦ صفحة من القطع المتوسط .

١٤ — شرح مقامات الزمخشري .

طبع الطبعة الأولى بالقاهرة سنة ١٣١٢ هـ ، والطبعة الثانية بمطبعة التوفيق بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ في ٢٣٨ صفحة من القطع المتوسط .

١٥ — المستقصى في أمثال العرب .

يحتوى على ٣٤٦١ مثلاً ، طبع الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند سنة ١٣٨١ هـ ١٩٦٢ م في مجلدين كبيرين .

١٦ — حواهر اللغة . غير معروف .

وجاء في أسماء مؤلفاته كتاب الأسماء ، وأرجح أنه جزء من مقدمة الأدب ، لأن القسم الأول في الأسماء ، والقسم الرابع في نصريف الأسماء

١٧ — مشابه أسامي الرواة . غير معروف . ولعله المقصود بقول ابن حجر العسقلاني رأيت له مصنفاً في المشتبه في مجلد واحد ، وفيه فوائد جلية .

١٨ — صميم العربية . غير معروف .

١٩ — معجم عربي فارسي . نشره فخر شتاين . لينزج سنة ١٨٤٣^(١) .

(٣) في النحو

٢٠ — المفصل .

ترجم إلى الألمانية وطبع سنة ١٨٧٣ ، وطبع في كريستيانا سنة ١٨٧٩ م ، وطبع مع شرح موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش في ليبسيك سنة ١٨٨٢ م ، وبإدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة في عشرة أجزاء .

٢١ — الأتموزج .

وهو مقتضب من المفصل ، طبع أول مرة بمطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ في ٢٣ صفحة ملحقاً بسكتاب (نزهة الطرف في علم الصرف) لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني ، وبعده كتاب (قواعد الإعراب) لجمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف بن هشام ، وطبع بمصر سنة ١٢٩٨ هـ .

٢٢ — شرح أبيات كتاب سيمويه .

غير معروف . وليس شرحاً لكتاب سيمويه كما في بعض المراجع ، لأن الزمخشري نفسه ذكر اسم كتابه كذلك^(٢) .

٢٣ — المحاجاة بالمسائل النحوية أو الأحاجي النحوية .

(١) تاريخ الأدب في إيران ٤٥٩ .

(٢) ديوان الزمخشري ٢٣ .

مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٨ ش نحو ١١٦ مجاميع . وهو في ٢٧ ورقة في مخطوطة الشنقيطي و ٢٥ في المجاميع .

وهذا الكتاب أغاز ومائل نحوية يقصد بها المعاينة والأفاحيه .

٢٤ — مقدمة الأدب .

أكثره في النحو ، طبع القسم الأول والثاني منه في مجلد واحد في مدينة ليبسيك سنة ١٨٤٣ م وطبع الباقي سنة ١٨٥٠ م ، ودار الكتب القسم الثاني والثالث والرابع والخامس في مخطوط ٢٧٢ لغة في ٢٢٠ ورقة (٤٤٠ صفحة) وبين سطور القسمين الأول والثاني ترجمة فارسية للكتاب .

٢٥ — نكت الأعراب في غريب الإعراب (في غريب إعراب القرآن) غير معروف .

٢٦ — الأمل في النحو . غير معروف .

٢٧ — المفرد والمركب أو المؤلف . غير معروف .

٢٨ — شرح بعض مشكلات المفصل . غير معروف .

(٤) في العروض

٢٩ — القسطاس . ذكر جرجي زيدان أنه مخطوط في برلين وليدن .

(٥) في الأدب

٣٠ — نوايع الكلم .

حكم قصار متواليه ، طبعت الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) في ٥٠ صفحة من القطع الصغير ، وطبعت طبعة أخرى بمصر سنة ١٩٢٧ م وطبعت في باريس مع ترجمة إلى الفرنسية سنة ١٨٧٦ م بتحقيق من . كاريير مينارد ، وطبعت في إستانبول وبغروت .

٣١ — مقامات الزمخشري .

خمسون مقامة في النصح والإرشاد ، موجهة كلها إلى نفسه ، ولكل منها عنوان . وقد شرحها بقلمه ، وطبعت مع شرحه لها [رقم ١٤ في مؤلفاته]

٣٢ — أطواق الذهب .

مئة مقالة في المواعظ والنصائح والحكم ومكارم الأخلاق ، كل منها في بضعة أسطر ، وايسر معنونة . ترجم إلى الألمانية ، وطبع مع الأصل في فيينا سنة ١٨٣٥ م وفي ستنجارت سنة ١٨٦٣ م ، وترجم إلى الفرنسية وطبع في باريس سنة ١٨٧٦ م ، وطبع بشرح الشيخ يوسف أفندي الأسير ، الطبعة الثالثة ببغروت سنة ١٣١٤ هـ في ١١٢ صفحة من القطع المتوسط ، وطبع بشرح الميرزا يوسف خان بن اعتصام الملك بعنوان (قلائد الأدب في شرح أطواق الذهب) بمطبعة التمدن بمصر في ١٥٤ صفحة من القطع المتوسط سنة ١٣٢١ هـ

٣٣ — ديوان الزمخشري .

مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٩ أدب في ١١٩ ورقة (٢٣٨ صفحة) من القطع الكبير .

٣٤ — القصيدة البعوضية وأخرى في مسائل الغزالي . مخطوط في برلين .

٣٥ — ربيع الأبرار ونصوص الأخيار .

مختارات شتى من الأدب والتاريخ والعلوم ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٥ أدب في ٤٠٢ ورقة (٨٠٤ صفحة) ، وله مختصرات كثيرة ، وطبع بالقاهرة .

٣٦ — النصائح الصغار والبوالغ الكبير

ذكر بعض مؤرخى الزمخشري أن له كتابين أحدهما النصائح الكبير، وقال جرجى زبدان إنه مطبوع بالقاهرة، والآخر النصائح الصغار، وقال جرجى زبدان إنه مخطوط فى برلين وفى المتحف البريطانى .

ولكنى وجدت الكتاب بهذا الاسم (النصائح الصغار والبوالغ الكبير) مخطوطاً بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٣٤٧٨ از مع نوايع الكلم ، فى ١٦ ورقة ، وفى نهاية الكتاب فصل به مئة حكمة للإمام على بن أبى طالب .

٣٧ — نزهة المستأنس . مخطوط فى أيا صوفيا

٣٨ — ديوان الرسائل ، غير معروف

٣٩ — ديوان خطب . غير معروف

٤٠ — ديوان التمثيل . غير معروف

٤١ — تسلية الضريح . غير معروف

٤٢ — رسالة الأسرار . غير معروف

٤٣ — الرسالة الناصحة . غير معروف

٤٤ — سوائر الأمثال . غير معروف

٤٥ — رسالة المسامة . غير معروف

(٦)

٤٦ — عقل السكل . غير معروف

٤٧ — كتاب الأجناس . غير معروف

وربما كان الكتابان الأخيران فى المنطق .

الفصل الخامس

معالم شخصية

تطلق الشخصية على مجموعة الصفات الجسمية والعقلية والخلقية التي يتصف بها الإنسان ، سواء أكانت حسنة أم قبيحة .

وكثيرا ما يتميز إنسان من غيره بالطابع العام لهذه الصفات .

وهذه الشخصية لها مصدران : الفطرة ، والتربية ، فهي إذن موهوبة ومكتسبة ، ولكن الفطرية أقوى .

وليس معنى هذا أن نغض من أثر التربية ، لأننا لو اعتمدنا على الهبات الفطرية وحدها لصرنا ضحايا الظروف ، ولفقدت التربية آثارها في بناء العظاماء من رجال العلم والأدب والدين والفن .

ولهذه الشخصية عناصر أساسية تقوم عليها : منها الذكاء ، والجاذبية ، والمشاركةوجدانية ، والشجاعة ، والحكمة ، والتفاؤل ، والتواضع ، وقوة البيان ، والثقة بالنفس والاعتماد عليها ، واعتدال المزاج ، والمظهر العام للجسم وحسن الھتدَام^(١) .

فهل نستطيع تصوير الرجل على حقيقته ، ونكشف عن معالم شخصيته ، فيتبين منها الحمود وغير الحمود ؟ لأنه إنسان تغلب قوته ضعفه آنا ، ويغلب ضعفه قوته آنا آخر ، ولأنه من الخطأ أن يتكلف مؤرخ لشخص أن يضي

عليه حالة من الجلال والكمال ، فإذا اعترضه عيب تغاضى عنه ، أو تلمس له دفاعاً قائماً على العمل ومجاورة الحق ، فإن هذا منهج متحيز ينسكه البحث العلمى المنصف .

فلنتقل الآن إلى إبراز المعالم العامة التى نعرفها من شخصية الزمخشري .

(١) صفاته الجسدية

لم أجد فيما كتب عنه شيئاً يمت إلى صفاته الجسدية من قرب ولا من بعد ، لأن كتّاب التراجم القدماء كانوا كثيراً ما يتجاوزون هذه الأوصاف ، إذ كانت فى نظرهم غير وثيقة الصلة بالشخصية التى يترجمون لها .

والشيء الوحيد الذى عرض له كثير من مؤرخيه أنه كان أعرج يمشى فى رجل من خشب ، لأن رجله قطعت فى سفرة من أسفاره كما سيجى .

ولعله قصد نفسه بقوله « كم رأيت من أعرج ، فى درج المالى أعرج ، ومن صحيح القدم ، ليس له فى الخير قدم » (١) .

(٢) شغفه بالثقافة

كان الزمخشري ذكياً ومشغولاً بالثقافة ، تبشر بخائيله بمستقبل واعد ، حتى لقد أعجب أستاذه أبو مضر بدكانه وجدده ، فتعهده برعايته وتوجيهه ، وساعده بماله مؤملاً أن يخلقه .

وكانت بيئته الخاصة والعامة مذكية لهذا الشغف ، فدرس فى زمخشر أول مدارس ، ثم شخّص إلى بخارى لينهل من مناهلها ، ثم زار بغداد والشام ومكة ،

(١) نواحي الكلام ١٤ أخرج الثابتة : أرفى وأعمد .

وسمع من بعض العلماء ، وقرأ كثيراً من الكتب ، وبلغ من كلفه بالثقافة أنه وهو في السادسة والستين - كما ذكر القفطي ^(١) - قرأ بعض كتب اللغة على أنى منصور الجوالمق مستجيزاً لها .

ومن السهل أن نعرف من أسماء أساتذته ومن مؤلفاته أنه درس اللغة ، والنحو ، والعروض ، والأدب ، والبلاغة ، والتفسير ، والقراءات ، والحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والمنطق ، دراسة المتذوق المتعمق ، ولهذا اعتز بدراساته ومؤلفاته ، واقتصر بها في قوله ^(٢) :

تراني في علم المنزل عالماً	وما أنا في علم الأحاديث راسقاً
فلسنة البيضاء في مناجيح	ويبقى كتاب الله مني المعارف
وما أنا من علم الديانات عاطلاً	فأحسن حلي لم ير لي شافاً
وما للغات العرب مثلي مقوم	أني كل ندب متقن أن يخالف
وني إستفيد النحو من أن يسوسه	نهي لم يحدها الذائقون حصافاً
وعلم المعاني والبيان كلاهما	أزف إلى الخطاب منه وصايفاً
وعلم القوافي والأعاريض شاهد	بفسحة خطوى فيه إذ كنت زاحفاً
أقرت بي الآداب أصلاً لها ومن	رأى مشرقيات جحدن المشارفاً
وديان منظومي يربك بدائعاً	وديان منشوري يربك طرائفاً

ويظهر من مؤلفاته أنه لم يستوعب أكثر ثقافة عصره فحسب ، بل ساهم في حقولها بشجرات شبيهات الثمرات ، وقد سبقت هذه المؤلفات التي نستطيع منها تقسيم ثقافته إلى عدة مناح : فناحية دينية تتمثل في تفسيره (الكشاف) بما

(١) إنباء الرواة ٣ / ٢٧ .

(٢) ديوان الزمخشري ٧٨ .

تضمن من مسائل شتى، منها علم الكلام، والفقه، وتشتمل في مؤلفاته التسعة، وجانب لغوى تمثله مؤلفاته العشرة، واتجاه أدبى يتضح في كتيبه الستة عشر، وإحاطة بالنحو تدني عنها تسعة كتب، ومساهمة في العروض بكتاب واحد، وكتابان لم يصلنا إلينا، ولم أستطع معرفة موضوعهما، لعلمهما أو لعل أحدهما في المنطق.

على أنه كان يتقن اللغة الفارسية، فقد ألف معجما بالفارسية والعربية طبع في لينزج سنة ١٨٤٣ م كما أن القسم الأول والثاني من كتابه (مقدمة الأدب) وهما في الأسماء والأفعال باللغة العربية واللغة الفارسية

وهذه الكتب السبعة والأربعون التي منها الكبير ومنها الصغير خير شاهد بالصدق على أن الزمخشري كان متنوع الثقافة، وأنه وهب الدين والعلم واللغة والأدب جهوده وحياته، هبة الباذل السكف الراغب في مضاعفة البذل والسخاء.

على أنه لم يكن مثل بعض المؤامرين جماعا للمعارف، لاجهد له إلا التنسيق أو الاختيار، بل كان حر الفكر، وكان صاحب كثير من الآراء المبتكرة، كما سيتجلى من تحليل كتيبه.

وكان إلى ذكائه وسعة اطلاعه قوى الحجة، قديرا على استنباط المعانى، بارعا في الجدل، حتى لقد طبق تفسيره ونأويله للقرآن الكريم على مذهب المعتزلة تطبيقا لم يسبق إليه على هذه الصورة الكاملة، ولم يحى بعده من صنع صنعه.

(٣) اعتزاله

كانت خوارزم — كما سبق — تموج بالاعتزال، وتعج بالمعتزلة، وقد ولد الزمخشري بها، ونشأ في ربوعها، ودرس دراسته الأولى على علمائها، وكان

« أبو مضر » أحبَّ أساتذته إلى قلبه . وأعظمهم تأثيراً في عقله ، وهو معتزلي كما تقدم .

وكان الرّمحشري بطبعه كلفاً بحرية الرأي ، ميالاً إلى عمق الفكر وتقليب وجهات النظر ، وإلى المناقشة والجدل ، فهو يقول ^(١) :

« لاتقنع بالرواية عن فلان وفلان ، وامش في دينك تحت راية السلطان ^(٢) ، فما الأسد المحتجب في عرينه أعز من الرجل المحتج على قرينه ، وما العنز الجرباء تحت الشّمال البليل أذل من للقلد بين يدي صاحب الدليل ، وجامع الروايات المحوية ، ولا حجة عنده مقوية ، أوقر ظهره بالحطب ، واعتقل زنده بلا سبب .

لم أر فرساً رهان مثل الحق والبرهان ، لله درهما متخاصمين ، ولا علمتهما متناصرين . . من شدّ يدي بهر زهما فقد اعتر بعزهما ، ومن زل عنهما فهو من الذلة أذل ، ومن القلة أقل » ^(٣) .

لهذا دان الرّمحشري بالاعتزال ، ونافع عنه ، وطبق على مذهب المعتزلة تأويله للقرآن الكريم — كاسيحي — وكان يجد راحة نفس في إعلان مذهبه ، حتى نقل عنه أنه إذا قصد صاحبه واستأذن عليه في الدخول قال لمن يأخذه الإذن : قل له : أبو القاسم المعتزلي بالباب ^(٤) .

وذكر ابن خلسكان أن الرّمحشري لما كتب التفسير قال في استفتاح الخطبة « الحمد لله الذي خلق القرآن » فقيل له : إن تركته على هذه الهيئة هجره الناس ، ولم يرغب فيه أحد ، فغيره بقوله : « الحمد لله الذي جعل القرآن » لأن جعل

(١) أطوار الذهب ٧١ .

(٢) السلطان : المراد الحق .

(٣) فلائذ الأدب في شرح أطوار الذهب ٧١ .

(٤) وفيات الأعيان ٢٥٥/٢ ، وشذرات الذهب ١٢٠/٤ .

عند المعزلة بمعنى خلق . ورأيت كثيراً من النسخ فيها « الحمد لله الذى أنزل القرآن » وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف^(١) .

والنسخ المطبوعة تبدأ بهذا التعبير الذى ذكر ابن حـلـكـان أنه من إصلاح الناس « الحمد لله الذى أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً ، وتزاه بحسب المصالح منجهاً ، وجعله بالتحميد مفتوحاً ، وبالأستعانة محتماً »^(٢) .

وأرجح أن هذه دعوى لاصحة لها ، لأن الزمخشري لم يكن ليفر من التعبير بأنزل وهو يعلم أن القرآن الكريم يردد هذا التعبير في كثير من سورته ، مثل قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات »^(٣) . وقوله : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم »^(٤) . وقوله : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس »^(٥) .

وقد نقي الفيروزابادى صاحب القاموس المحيط هذه الدعوى فقال فيما كتبه على خطبة الكشف : قال بعض الطلبة ، وأثبتته بعض المعتنين بالكشف في تعليق له عليه : إنه كان في الأصل كتب (خلق) مكان (أنزل) ، وأخيراً غيره المصنف أو غيره حذراً عن الشناعة الواضحة .

وهذا قول ساقط جداً ، وقد هرصته على أستاذى فأنكره غاية الإنكار ، وأشار إلى أن هذا القول بمعزل عن الصواب لوجهين :

(١) وفيات الأعيان ٢٥٥/٤ .

(٢) الكشف ٢/١ .

(٣) سورة العمران : ٧ .

(٤) سورة النساء : ١١٣ .

(٥) سورة الأنعام : ٩١ .

أحدهما : أن الزمخشري لم يكن أهلاً لأن تفوته اللطائف المذكورة في أنزل وفي نزك في مفتتح كلامه ، ووضع كلمة خالية من ذلك .

والثاني : أنه لم يكن يأنف من انتمائه إلى الاعتزال ، وإنما كان يفتخر بذلك ، وأيضاً أتى عقيبه بما هو صريح في المعنى - إذ قال : أنشأه كتاباً ساطعاً بيبانه^(١) - ولم يبال بأنه قبيح .

وقد رأيت النسخة التي بخط يده بمدينة السلام محتبئة في تربة الإمام أبي حنيفة ، خالية من أثر كشط وإصلاح^(٢) .

(٤) عزة نفسه

لقد كان إلى تقواه وتواضعه أبى النفس ، يأنف من الضيم ، ويؤثر الغربة على الإقامة في وطنه إن لم يقبوا المكان اللائق به ، فيرحل إلى حيث يستمتع بالتسكريم ، ويشعر بالاعتزاز .

وقد سبق في حياته أنه مدح نظام الملك وشكا إليه ، ونوه بعلمه وأدبه ، وجعلهما قرابة وشيجة بينه وبين الوزير الكبير ، ولم يكتف بهذا ، بل عرّض بتقصير الوزير في رعايته ، وحتم القصيدة بالاعتداد المقرون بتحدى نظام الملك أن يجد له نظيراً في جميع من يرى ، ثم هدد بالرحيل عن خوارزم كلها إذا لم يسعفه بما يريد ، ولامه على أنه ضيع آماله ، على حين أن من هم دونه ظفروا بما لم يظفر به :

وما حق مثلى أن يكون مُضِيعاً وقد عظمت عند الوزير وسائلي

(١) في المقدمة : أنشأه كتاباً ساطعاً بيبانه ، فاطماً برهانه .

(٢) كشف الظنون ٣١٥/٢ .

وأعظمها أنى تسبب نصابه إذا عرّضت أنساب هذى القبائل
فكل أمرىء آماله عدد الحصا وهات نظيرى فى جميع المحافل
لئن كان أمرى فى خوارزم ما أرى فإن رحالى فى ظهور الرّواحل^(١)

فلما صوح أمله اعتزم الرحيل من خوارزم على كره منه ؛ لأن البلد الذى
يكفل له السكرامة والتقدير خير له من وطنه الجاحد :

أحب بلاد الله شرقاً ومغرباً إلى التى فيها غديت وليداً
ولكن نواصي بالسكرامة غيرها وهذى أرى فيها الهوان عتيداً^(٢)

ولم يلبث بعد تطوافه بخراسان وأصفهان أن مرض مرضاً سماه ناهكاً ومنذراً ،
فعاهد الله أنه إن برى فلن يتصل بسلطان ولا بتابع من أتباع سلطان ، وأن
يهب العلم والتأليف جهده ووقته .

وهنا قد يخطر هذا السؤال : كيف سولت للرمحشوى نفسه أن يمدح
السلطين والوزراء ويشكو حاله ، ويجهر بمطالبه ؟

وجواب ذلك أنه — كما صور حاله — فقير ، وهو إلى فقره عالم أديب ذكى ،
غلب عليه فى شبابه الطموح إلى الشهرة ، والنزوع إلى الثراء ، والتطلع إلى الجاه ،
وكان يرى أنه أجدر بالرعاية ممن تستعين بهم الدولة ، وتكل إليهم شئونها ، أو
تثيهم وترعاهم بوسائل شتى ، وبخاصة قبل أن تتقدم به السن ، ويقاب عليه
الزهد فى مباحج الحياة .

ولقد رأى المال فى عصره بأيدى المتسلطين والمنتمزين ، وفى حوزة الذين

(١) ديوان الرمخشوى ٩٥ .

(٢) الديوان ٣٧ .

واتاهم الحظ بالمناصب والسلطان ، ورأى الجاه حكرّة للمقربين إلى الحكام ،
والتزلفين إلى ذوى الجاه .

وما من شك في أنه كان يوازن بين شقائه وسعادتهم ، وبين علمه وجهل
كثير منهم ، وبين كفايته وعجز الآخرين .

وهذه الموازنات شوقته إلى المال وإلى الجاه ، فطمع في هبات السلاطين
والوزراء على عادة كثير من العلماء والأدباء في ذلك العصر وفيما قبله وبعده .
وستأتى في دراسة شعره موازنة بينه وبين بعض الشعراء في الطلب الصراح .
على أن عزّة نفسه كانت تتجلى في مدائحهم وشكاواه ، فلا يفتأ ينوء بعلمه ،
ويبدل بكفايته ، ويعتد نفسه صاحب جهد يستحق التقدير ، وصاحب حق على
الدولة ينبغي أن تقوم به وترعاه .

وإنه ليعزز هذا ما سبق في التعريف بنظام الملك وزير السلاجقة من حذب
على العلماء ، وتشجيع للأكفاء .

ويبدو لي أن الزمخشري يشبه سلفه أباحيان التوحيدى (المتوفى سنة ٤١٤هـ)
في أن كليهما سبق عصره بما نسميه اليوم (منحة التفرغ) ، وهى فكرة كانت
بعيدة عن الأذهان في عصرهما ، ولم تعرف إلا منذ سنوات .

ذلك أن الدولة تكفل اليوم لكثير من أصحاب المواهب أرزاقهم زمناً
معيناً ، ليفرغوا لعل أدنى أو فنى أو علمى ، لأنه ليس أقتل للشغف بالإنتاج
من زحمة الوقت بالعمل لكسب الرزق .

والدولة إذ تختص اليوم أناساً بمنحة التفرغ لا تتوخى إلا ما يعود على الوطن
كله بالخيرات ، لأن هؤلاء المتفرغين لا يختصون فرداً أو جماعة بما تجود به
قرائعهم من ثمرات .

(٥) بين الطموح والقناعة

١ - مازال الرنخشري إلى الخامسة والأربعين من عمره تواقاً إلى المنصب، مشتاقاً إلى المال، متعلقاً بالشهرة، يعتقد أن علمه وأدبه وكفايته هي الوسائل إلى خلفه بما يأمل.

وأغلب الظن أن مرد هذا إلى المنافسات التي علا دورها بين علماء العصر وأدبائه، فكل منهم يُرْهِى بما نال من جاه وأحرز من منصب، وإلى أن الرنخشري كان في هذه السن يستجيب لآماله ولا يكبحها، وكان يبتغي من الوظيفة والمال والجاه الطمأنينة التي تكفل له التفرغ إلى العلم والأدب، إذ كان فقيراً راعاه بما له أستاذه أبو مضر، كما تحدث هو بذلك^(١)، وطالما شكوا الفقر في قصائده، وكاشف به نظام الملك مكاشفة المعتد بنفسه وبعلمه الذي لا يجد في الفقر عاباً، لأنه ليس من صنعه، كقولاه لنظام الملك^(٢) :

غنى من الآداب لكنني إذا نظرت فما في الكف غير الأنامل
وقوله^(٣) :

أشكو الزمان ولا أرى لي مُشْكياً	من يرى شَعْيَ ورقة حالي
يا حسرتاً من لي بصفقة رايح	في مَجَرِّ والفضل رأس المال
يا ويح أهل العلم كيف تأخروا	والسبق كل سبق للجهال
في ذمة الأيام لي دَيْنٌ متى	استَقْضِيهِ لا قيت طول مطال
فإلى الهى المشكى وبصنعه	دوت الأنام منوطة آمالي

(١) الديوان ٩١

(٢) الديوان ٩٤

(٣) الديوان ٩٥

وكثيراً ما نوه بعلمه وفضله في مدائحه وشكواه قبل أن يتخطى الخامسة والأربعين من عمره ، كقوله في قصيدة مدح بها نظام الملك^(١) :

ومما شجاني أن غرّ منافي تغنى بها الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي وسارت مسير النيرات رسائلي
ولي في دقيق النحو والنقد منطق إذا قلته لم أبقي قولاً لقائل
وقوله لحير الدولة^(٢) :

فمن مبلغ عني الوزير بأني كفيل بغادر من تناه ورائح
فليت رحالي ألقيت بفنائيه فأرتع في نعمائه غير نازح
ويقدح زندياً واريّاً من منافي إذا صلّدت كل الزناد لقادح
وفي شرح أبيات الكتاب^(٣) لبعض ما يرى في صفاتي مجللاً أي شارح
وأنموذجاً^(٤) أنفذت منه بضمه رجائي أرى فيه وجوه المناجح
ولعله اقتدى في غره بالمتنبى حيث يقول^(٥) :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مفرداً
وحيث يقول^(٦) :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراً لها ويختصم

(١) الديوان ٩٤

(٢) الديوان ٢٣

(٣) بقصد شرحه لكتاب سيدي به

(٤) بقصد كتابه الأنموذج في النحو

(٥) ديوان المتنبي ١/١٩٢

(٦) ديوان المتنبي ٢/٢٦١

والزحشري بقرن فخاره هذا بسخريته من الحياة ، التي لم تنوله ما نولت
سواه ، وبسخطه على الزمن الذي قتر عليه ، وسخا على الذين هم دونه فضلا
وعلمًا وكفاية ، كقوله ^(١) :

خليلى هل تحدى على فضائلى إذا أنا لم أرفع على كل جاهل ؟
من العين ذو نقص يصيب فضائلا أخو الفضل محقوق بتلك الفضائل
كذا الدهر كم شوهاء فى الخلى جيدها وكم جيد حسناء المقلد عاطل
فياليتنى أصبحت مستغنيا ولم أكن نخر خورزم ورأس الأفاضل
ويا ليتنى مرض صديق ومسخط عدوى وأنى فى فهاهة باقل
فلست بفضلى بالغا ولو اننى كقس إباد أو كحبان وائل

وفى هذه المرحلة من حياته كان يُقرع معاصريه ، ويقسو على مواطنيه ،
ويصفهم باللؤم والغباء والجهل ، كقوله فى مدح أحمد بن محمد بن علي ^(٢) :

لولاك يا بن الفضل لم أك قاطنا فى بلدة جارت على أمشالى
فى أرض خورزم كريم واحد ودع اللثام فهم عديد رمال
وإذا وجدت الربع أصبح أهلا بسوى الكرام فذاك ربع نخالى
وقوله فى مدح نظام الملك ^(٣) :

لئن كان أمرى فى خوارزم ما أرى فإن رحالى فى ظهور الرواحل
وقوله فى قصيدة لصدر الملك الوزير ^(٤) يدافع عن نفسه ويبرر رحيله من خوارزم :
وترحالها ليس اغترابا وإنما إقامتها فى الناقصين اغترابها

(١) الديوان ٩٤

(٢) الديوان ٩٥

(٣) الديوان ٩٤

(٤) الديوان ١٣

ونستطيع أن نستشف من لومه نفسه بعد ذلك أنه كان يهش إلى الثناء ،
وذيوع الصيت ، ووصفه بالتفوق في اللغة والنحو والبلاغة والعروض والشعر
والنثر والعلوم الشرعية ، مثل قوله في مقامة العمل ^(١) :

« يا أبا القاسم لا تسمع لقولهم : فضل مبین ، وأدب متین ، واسم في
لمهارة بهماشهير ، وصيت في إنقائهما جدير ، وفتي طيآن ^(٢) من المناقص
والردائل ، ريان من المناقب والفضائل ، إن ذكر مثنى اللغة فجلس من
أحلاسها ^(٣) ، أو قياسها ^(٤) فسانس أفراسه ، أو النحو فهو سيلوبه وكتابه ،
ينطق عنه تراجه وأبوابه ، فمن مساجله ومُسانيه ^(٥) ، ومزاوله ومُعانيه ، ومن
يعوص على معان كمعانيه ؟ أو نقد الكلام فالتمقة إليه كأنهم النقد ^(٦) ، وقد
عاث فيه الذئب الأعقد ^(٧) ، أو العروض فابن يحدسها ^(٨) ، وطلاع أنجدها ،
أو القوافي فإبداعه فيها ينقطع ثمرات الغراب ^(٩) ، وإغرابه فيها يحثو التراب
في وجوه أهل الإغراب ، أو الشعر فزياده ^(١٠) وحسانه ، وإحسانه كما دبح
الروض نيسانه ^(١١) ، أو النثر . . . أو معرفة الكتابة والخط فقد لجج ^(١٢)

(١) المقامات ٩٨ .

(٢) طيآن من المناقص : يحاز عن خلوه منها ونزاهته .

(٣) فارس من فرسانه من قولهم لاعارف بركوب الخيل العاود له هو من أحلاس الخيل
شبه في ثباته على متن الفرس بالجلس الذي يجلس به .

(٤) أراد بقياس اللغة علم الاشتقاق ، ويسمى علم المقاييس والأبنية علم التصريف الذي
هو أدق شصري الجو وأعوصهما ، وإلا فكان حقه أن يقدم ، لأن علم ذوات الكلم مقدم على
علم أصولها .

(٥) المساجل : المبارى في السقي من السجل وهو الدلو . الساق : مثله من السانية .

(٦) النقد : جلس فبيح من الغم .

(٧) الأعقد : المتلوى الذائب .

(٨) يقال للدليل الماهر هو ابن يحدسها وهو من يجد بالمسكان إذا أقام به .

(٩) ثمر الغراب مثل في الطبيب المنتقى لأنه لا يأكل من الثمر إلا أعلاه وأبينه .

(١٠) زياد : النافعة الذياني .

(١١) نيسانه : المراد الربيع .

(١٢) لجج : حاض اللج .

وترك الناس على الشط ، أو حفظ ما يحاضر به فصَّيبٌ بفيض وحر لا يفيض ،
وليس بعريان كعود النبع من ثمر علوم الشرع .

٢ — لكن الزنجشري يثس ، أو قاربه اليأس ، في الوقت الذي مرض
فيه مرضاً ظنه قاضياً سنة ٥١٢ هـ ، فبصر بما لم يكن يبصر به من قبل ، وعلم
أن المنصب حلية الخامل ، وأن المال ظل زائل ، فندم على ما أنفق من عمره
في طلبهما ، وقصر على الإنتاج العلمي والأدبي جهوده ، وجعله وسيلته وغايته .

وحينئذ بدأت مرحلة القناعة والرضا ، وجعل الزنجشري يردد نصائح هي
أقرب ما تكون إلى الزهد والتصوف ، حتى لقد سمي بعض مقاماته مقامة
القناعة ، وسمى أخرى مقامة الزهد ، وسمى ثالثة مقامة العزلة ، وسمى رابعة
مقامة الخمول ، وفي هذه المقامة يقول ^(١) : « يا أبا القاسم ، يا أسفى على
ما أمضيت من عمرك ، في طلب أن يشاد بذكرك ، ويشار إليك بأصابع بني
عصرك . قنيت على ذلك طويلاً ، فما أغنيت عنك فتيلاً ^(٢) . وما أدراك
يا غافل ما الكامل ؟ الكامل هو العامل الخامل ، الذي هو عند الناس
منكور ، وهو عند الله مذكور » .

وقال في مقدمته : « اللهم إني أحمدك ... فكسكت من رق التبعات عنقى »
ومنت بحل إسارى وعتقى ، ورقيتنى إلى رتبة القناعة وهى الرتبة العليا ، وزهدتنى
في الحرص على زخارف الدنيا »

وقال : ^(٣) « آثر الخمول على النباهة ، واسحب الستر على الوجاهة ، تعش
أنجي من أخفار الحن ، وأتأنى من إضمار الإحن ، وإن ذا الشرف محسود

(١) مقامات الزنجشري ١٧١ .

(٢) القليل : ما في شق الدوافع من الشجرة .

(٣) ثلاثه الأدب في شرح أشواق الذهب ٢١ ، وأطواق الذهب ١٤ .

أو حاسد ، محقود عليه أو حاقد . وتلك بلية تتقلقل نحبها الأحباء ، ويفعل الله فيها ما يشاء »

وقال في مقامة القناعة^(١) :

« يا أبا القاسم اقنع^(٢) من القناعة^(٣) لا من القنوع ، تستغن عن كل معطاء ومتنوع ، لا تُخْلِقْ أدِيم وجهك إلا عند من خلقه وخلقك ، ولا تسترزق إلا من رزقه وإن شاء رزقك . القناعة مملكة تحنها كل مملكة ، لا سبيل عليها للمملكة ، لا يتوقع صاحبها أن يفقر بعد غنيتها ، ولا يقع النفاق في كثره ومُنِيَّتِهِ » .

(٦) تدينه —

هذا العلامة البصير بفضيلة الإسلام ، الخبير بخصائصه ، الغيور على حماه ، المسارع إلى إحباط ما قد يوجه إليه من أباطيل السكيدو والشبهات ، لم يكن يصدر في هذا كله عن علمه وحده ، ولا عن عقله وحده ، بل كان يتخذ عدته من علمه وفكره ووجدانه العميق وتدينه الراسخ ، حتى إن بعض مؤرخيه لم يجدوا في تدينه مغمرا إلا الاعتزال ، فقال ابن حجر العسقلاني إنه صالح لكنه داعية إلى الاعتزال^(٤) .

ولاشك أن بيئته العامة وبيئته الخاصة كان لهما أثر عظيم في هذا التدين . فأما البيئة العامة فتمثلها مدارس الحديث الكثيرة التي أنشأها نظام الملك ،

(١) المقامات ٥٨ .

(٢) انقم يكون أمراً من قنع يقنع بمعنى رضى رضى وزناً ومعنى ، ويكون من قنم يقنم بمعنى سأل سأل وزناً ومعنى .

(٣) القناعة : الرضى باليسير .

(٤) لسان الميزان ٤/٦ .

وتمثلها بحالته التي كان يعمرها القراء والفقهاء وأهل الخير والصالح ، وكان نظام الملك إذا دخل عليه الإمام أبو القاسم القشيري والإمام أبو المعالي الجويني يقوم لهما ، ويجلس في مكانه كما هو ، وإذا دخل عليه أبو علي الفارنزي يقوم إليه ويجلس في مكانه ، ويجلس بين يديه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا عليّ يقولون لي : أنت كذا وكذا يتشون على بما ليس في ، فيزيدني كلامهم عجباً وتعباً ، وهذا الشيخ يذكرني عيوب نفسي وما أنا فيه من الظلم ، فتتكسر نفسي لذلك ، وأرجع عن كثير مما أنا فيه ^(١) .

وأما البيئة الخاصة فإن الزمخشري ثمرة طيبة من شجرة طيبة ، فقد ساهم والداه في تربية عاطفته الدينية ، إذ كان أبوه عالماً ورعاً صواماً قواماً حريصاً على مكارم الأخلاق ، وقد أشاد الزمخشري بهذا ، ويتذوق أبيه للأدب في قوله يرثيه ^(٢) :

فقدته فاضلاً فاظت مآثره	العلم والأدب الماثور والورع
أخا طيباً مصفاً مناسباً	ماء السحابة ما في بعضها طبع
لم يأل ما عاش جداً في تقاه يرى	أن المريض على دنياه منخدع
صام النهار وقام الليل وهو شج	من خشية الله كاني اللون ممتنع
قريب عهد بوخط الشيب عارضه	إثر الشباب وخف الليل متبع
من المروءة في علياء متسع	صدرا وإن لم يكن في المال متسع

لم يذق الخمر ، ولم يذقها أبوه ، ولا أحد من أسرته ، والناس شهود على ذلك ، قال في وصف الخمر ^(٣) :

(١) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٦ ، ٧١ ، وتاريخ آل سلجوق ٥٤

(٢) ديوان الزمخشري ٧٢

(٣) ديوان الزمخشري ٨٥

هات التي ظُلِمَا شَبَّهَتْ بِشَمْسٍ ضَحَا لَوْ عَارَضَتْهَا لَغَطَّتْهَا بِإِشْرَاقِ
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ أَنِّي قَدْ نَسَبْتُ بِهَا وَلَمْ أَكُنْ لِحَيَّاهَا بِذَوَّاقِ
وَلَمْ يَذُقْهَا أَبِي كَلَّا وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَسْرَتِي ، وَاتَّفَاقِ الْمَاسِ مُصَدِّقِ

كذلك كانت أمه متدينة رحيمة القلب ، بلغ من تأتمنها وعطفها على العصفور
أن غضبت من ابنها ، واحتاجت فدعت عليه دعوة خطيرة نفست بها عن موجودتها ،
فهو يقص حدثا من أحداثه في صباه فيقول ^(١) : كنت في صباي أمسكت
عصفورا ، وربطته بخيط في رجله ، فأقلت من يدي ، فأدركته وقد دخل في خرقي ،
فجذبت به ، فاقطعت رجله في الخيط ، فتألمت والدتي لذلك ، وقالت : قطع الله رجلك
كما قطعت رجله . فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم ،
فسقطت من الدابة ، فانسكرت رجلي ، وأصابني ألم أوجب قطعها .

ويظهر أن البرد الشديد أثر في السكسر فاضطره إلى قطع رجله ، لأن الناج
والبرد — كما يقول ابن خلكان — كثيرا ما يؤثر في الأطراف في تلك البلاد ،
فتسقط ، خصوصا في خوارزم ، فإنها في غاية البرد ، ولقد شاهدت خلقا كثيرا ممن
سقطت أطرافهم بهذا السبب ، فلا يستبعده من لا يعرفه ^(٢) .

ومن مظاهر تدينه المتصلة بقطع رجله أنه عزا قطعها إلى دعاء والدته ، فقد
سأله الدامغانى الفقيه الحنفى المتكلم عن السبب فقال : دعاء الوالدة ^(٣) .

ويذكر ابن خلكان أنه لما سقطت رجله أشهد في محضر خلقا كثيرا
ممن اطلعوا على حقيقة ذلك ، خوفا من أن يظن من لم يعلم الحقيقة أنها قطعت
لريبة ، ثم أخذ رجلا من خشب .

(١) وفات الأعيان ٤/٢٥٥ ، ومعجم الأدياء ١٩/١٢٧ .

(٢) وفات الأعيان ٤/٢٥٥ .

(٣) وفات الأعيان ٤/٢٧٥ ، ومعجم الأدياء ١٩/١٢٧ ، وشذرات الذهب ٤/١١٩ .

بدفع من هذا التدين حج مرات ، واعتزم أن يقيم بمكة لا يبغي عنها حولا ،
فلما غالبه الشوق إلى وطنه غادرها تلتفت إليها عينه ، حتى نوارث معالمها
قتلعت قلبه ، ثم لم يلبث أن اشتاق إليها أشد الشوق ، وحن إليها أعظم الحنين ،
وقرعه نفسه على فراقها ، فسارع إليها مرة ثانية ، وأقام بها سنوات ، وسعى نفسه في
هذه المرة جارا لله :

أنا الجار جار الله مكة مركزى ومضرب أوتادى ومه قد أطنابى
فمن يأتى فى بعض القرىأت رحله فأم القرى ملقى رحالى ومتابى
ومن كان فى بعض المحارب راكعا فلا كعبة البيت المحرم محرابى

ولا يخلو كتاب من كتبه من دلائل تقواه ، وحضه على الطاعة والعبادة
نفسه وسواه ، وكافه بالحكمة والموعظة التى تهذب الأخلاق وتسمو بالنفوس .

لهذا قال فى مقدمة المقامات ^(١) : « وأنا أقدم قبل الخوض فى ذلك تنبيهك
على ألا تطالع هذه النصائح إلا ملقيا فسكرك إلى معانيها ، مخضرا ذهنك لأوامرها
وتواهبها . حتى يكون اقتباسك منها فى أخلاقك وأفعالك أوفر من استفادتك
لبلاغتها وبراعتها ، فقد علمت ببعض ما فيها مما يهذب النفس ، ويظهر القلب » .
ثم قال إنه عاهد نفسه ألا يُدْرَس من العلوم إلا ما هو مهيب بدارسه إلى
الهدى ، رادع له عن مشايعة الهوى ، وتجد عليه فى علوم القراءات والحديث
وأبواب الشرع ، من ^(٢) عرف منه أنه يقصد بارتياذه وجه الله تعالى ، ويرمى
به الغرض الراجع إلى الدين ، ضاريا صفحا عن يطلبه ليتخذة أهبة للمباهاة ، وآلة
للمنافسة ، ووسيلة إلى الخطوة عند الخائضين فى غمرات الدنيا ، والتسمى بين
ظهورانيهم بالفاضل والتلقب بالبارع » .

(١) مقامات الزمخشري ٨

(٢) من عرف : مقوله يدرس ، ودرس متعد إلى مقولتين .

وخاطب نفسه بقوله ^(١) : « يا أبا القاسم ، العمر قصير ، وإلى الله المصير ، فما هذا التقصير ؟ إن زُرَّج الدنيا قد أضلك ، وشيطان الهوى قد استراك ^(٢) ، ألا إن الأحصي بك أن تلوذ بالركن الأقوى ، ولا ركن أقوى من ركن التقوى » .

وهي نفسه في مقامة العمل عن الاغترار بالثناء عليه ، ووصفه بالبراعة في العلوم والأدب ، وعقب على هذا بأن الأديب هو الداعية إلى الفضائل ، المبرأ من العيوب ، والعاقل هو الذي يتغنى من أعماله أن يكون عند الله وحيها ، لأن العلم بلا عمل كالقوس بلا وتر : « لعمر الله ليس بأديب ولا أريب ، كل مُعَرَّبٍ وحافظ غريب . الأديب من أخذ نفسه بأداب الله فهذبها ، ونقح أخلاقه من العقد الشائنة فشدبها . والأديب الفاضل من لم يكن له أرب ولا وطر ، إلا أن يكون له عند الله فضل وخطر ، ماغناء من قوى علمه وعمله قد فتر ؟ إن علما بلا عمل كقوس بلا وتر ، حاملها خير إن مرتبك في العماية ، لا يهتدى وإن كان ابن يقين ^(٣) إلى وجه الرماية واعلم أن العلم إنما يُتَعَلَّمُ ، لأنه إلى العمل سلماً ، كما أن العمل إلى ما عند الله ذريعة ، ولولاها ما علم علم ولا شرعت شريعة » ^(٤) .

وقال في مقدمة (أطواق الذهب) وهي مواعظ أُنشأها في مكة :

« أسألك أن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ، وأن تحفظ فيها ما وجب للجار ، من حق الدمام والذمار ، لأنها وُجدت في حرمك المطهر ، وولدت في حجر بيتك المسنن » .

وذكر يوسف الإشتيائي شارحها أنه كان يطوف بيت الله ، فإذا فرغ من

(١) اللقائات ١٥

(٢) استراك : جرك إلى الزلل .

(٣) ابن يقين : اسمه عمرو بن يقين من عاد ضربت به العرب للثل في جودة الرمي .

(٤) اللقائات ١٠١

«الطواف ألف مقالة» ثم يقوم ويطوف ويثني مقالة، وما زال على ذلك إلى أن بلغت مئة كاملة^(١).

وذكر ابن خلكان^(٢) أنه سمع من بعض فضلاء حلب أن الرمحشري أنشده هذه الأبيات، وأوصى أن تكتب على لوح قبره، وهي الأبيات التي استشهد بها عند تفسير قوله تعالى: «إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها»^(٣):

يا من يرى مدّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأتيل
ويرى عروق رينا طمها في نحرها والمخ في تلك العظام المَحَل
اغفر لعبد تاب من قَرَطاته ما كان منه في الزمان الأول

وعلى هدى من تدينه وتقواه اتخذ لنفسه دستوراً لا يتعداه، وتبرم بمعاصره، وآثر الوحدة على مخالطتهم، لأنهم أهل غيبة وانحراف عن الدين وتعاون على الآثام.

قال في مقامة العزلة^(٤): «قاتل الله بني هذه الأيام، فإنهم طلائع الشرور والآثام، حوارهم غوار، ونقائلهم نقار»^(٥)، ووافقهم نفاق، تسلى بالسنتهم الأعراض، كما ترشق بسهامهم الأعراض. تجمع الندوة كبارهم فلا يتواصون بالصبر، بل يتناصون على الصدر^(٦).

إن آسوك حمت الوحشة، وإن جالسوك وددت الوحدة، بينما أنت في

(١) فلان الادب في شرح أطوار الذهب ٩.

(٢) وفیات الأعيان ٢٥٩/١.

(٣) سورة البقرة ٢٦.

(٤) المقامات ٧٢.

(٥) نقائلهم: مناقبتهم الكلام. نقار: منافرة ينقر بعضهم بعضاً بالذهب. وفي نوايع الكلام (لن يسود النقار ما اسود الفار).

(٦) يتناصون: يأخذ بعضهم بناصية بعض على صدر الجلباس.

خلواتك وانفرادك ، مكبا على أحزابتك^(١) وأورادك إذ فوجئت بمشافة^(٢) بعضهم ، من الذين أخذك الله ببعضهم ، فضرب بينك وبين ما كنت فيه بأسداد ، ورماك بأمور من تلك الأول بأسداد ، ملقيا أسباب الفتن بين يدي افتنانه ، محلفا للآداب والسنن وراء استنانه ، لا يدفع في صدره من حياء دافع ، ولا يزرعه من دين حق وازع .

فإذا أنشأ بأكل لحم أخيه بالنقيصة والشب ، وبلغ في دمه الحرام ولوع الكلب ، ووصوب^(٣) ويصعد في تمزيق فروته ، ويقوم ويقعد في قرع مروته^(٤) ، ويخلط ذلك باستهزاء متتابع ، واستغراب متدافع ، لم يملك حينئذ عنانه ، ولم يثبت عن استهزائه جفانه^(٥) .

فإن لم تقبل عليه بوجهك وصفك بالكبرياء ، وإن لم ترعه سمعك نسيك إلى الرياء ، وإن أعطيته من نفسك ما يريد ، فكلما كما والشيطان المرید :

الإنسُ مشتقٌ من الأُنسِ والأُنسُ أن تَفْأى عن الإنسِ
يُلبِهمُ مُلْسٌ ولكنها على ذئاب منهم طُلْسٌ^(٥)

(٧) تواضعه

وهو مع إباته وعزة نفسه متواضع ، لطيف المعاملة ، ظريف المجاملة .

-
- (١) الحزب : الورد يقال : قرأت حزبي من القرآن .
(٢) المشافة : المجادلة وقال اللحياني ثافته : لازمه ولم يبارحه .
(٣) المروة : الحجرة الصلبة ، والمراد هنا الأصل .
(٤) الحنان : جمع حان .
(٥) طلس : جمع أطلس وهو الذئب في لونه غيرة إلى سواد .

قدم إلى بغداد في طريقه إلى مكة ثانی مرة ، فزاره كثير من الناس لشكره وللسماع منه ، وكان فيهم الشريف أبو السعادات هبة الله بن الشجري ، فلما جلس إليه بهره الزمخشري علما وأخلاقا ، فأنشد ابن الشجري متمثلا :

كانت مساءلة الركبان تخبرني عن أحمد بن ذؤاد أطيّب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذنّي بأحسن مما قد رأى بصرى
وأنشده أيضا :

وأستكبر الأخبارَ قبل لقائه فلما التقينا صغّرَ الخبرَ الخبرُ
ثم أخذ يثنى عليه . فلما فرغ من كلامه شكر الزمخشري له ، وعظمه ، وتضاعف ، وقال إن زيد الخيل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما بصر بالنبى رفع صوته بالشهادتين ، فقال له النبى : يا زيد الخيل ، كل رجل وصف لى وجدته دون الصفة إلا أنت ، فإنك فوق ما وصفت ، وكذلك سيدنا الشريف . ثم دعا له وأثنى عليه ^(١) .

وكتب إليه الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفى من الإسكندرية - وهو مجاور بمكة - يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته ، فرد جوابه بما لا يشفى الغليل . فلما كان العام الثانى كتب إليه أيضا مع الحجاج استجازه أخرى اقترح فيها مقصوده ، وقال فى آخرها : ولا يحوج - أدام الله توفيقه - إلى المراجعة ، فالمسافة بعيدة ، وقد كاتبته فى السنة الماضية فلم يجب بما يشفى الغليل ، وله فى ذلك الأجر الجزيل . فرد عليه الزمخشري ردا حافلا بالتواضع والسلامة من الغرور ومن التعالى والتعالم ، صور فيه نفسه بين العلماء صغير القدر ، ضحل المعرفة ، وذكر أن حظه من الدراية نزر ، ونصيبه من الرواية قليل ، وتوصل من ثناء الناس عليه ، وعلل

له بأنه اغترار منهم بالظاهر للملء وده، ثم التمس لهم العذر، لأنهم ربما أعجبوا بنصحه
المسلمين، ويرفعه عن حطام الدنيا وسفاسفها، وحتم الرسالة بتوكيده أنه صادق
فيما يقول :

من رسالته قواف : مامتلى مع أعلام العلماء ، إلا كمثل الشها^(١) مع مصايح
السماء، والجها^(٢) الصف^(٣) مع الزها^(٤)، ومع النوادي الغامرة للقيعان والآكام،
والشكيت^(٥) اُخلد^(٦) مع خيل السباق، والبغات^(٧) مع الطير العتاق .

وما التلقيب بالعلامة ، إلا شبه الرقم بالعلامة ، والعلم مدينة أحد بابيها
الدراية ، والثاني الرواية ، وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مزجاة^(٨) ، ظلى فيها
أقلص من ظل حصاة .

أما الرواية فمدينة الميلاد ، قريبة الإسناد ، لم تستند إلى علماء نحارير^(٩) ،
ولا إلى أعلام مشاهير .

وأما الدراية فتمد^(١٠) لا يبلغ أفواها ، وبرض^(١١) مايل شفاها .

ثم قال : لا يغرنكم قول فلان في ولاقول فلان . وعدد جماعة من الشعراء
والفضلاء مدحوه بمقاطيع من الشعر ، وأوردها كلها .

(١) الشها : كوكب خفي في بنات نعش الصغرى .

(٢) الجها : السحاب لا ماء فيه .

(٣) الصف : الخالي .

(٤) الزها : جمع رهمة وهي العار الضعيف الدائم .

(٥) الشكيت : آخر خيل الخلبة .

(٦) اُخلد : أضعف الطير .

(٧) مزجاة : قلبة .

(٨) نحارير : جمع نحير وهو الخادق القطن الحبر .

(٩) المد : الماء القليل .

(١٠) برض : قليل .

ثم قال : فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر المموه ، وجهل بالباطن المشوه . ولعل الذي غرهم متى ما رأوا من حسن النصح للمسلمين ، وتبليغ الشفقة على المستفيدين ، وقطع المطامع عنهم ، وإفادة المبرأ والصنائع عليهم ، وعزة النفس ، والرب بها عن السفاست الدنيات ، والإقبال على خو بصتى ، والإعراض عما لا يعنينى ، فخلت في عيونهم ، وغلطوا في ، ونسبوا إلى ما لست منه في قبيل ولا دبير^(١) .

وما أنا فيما أقول مهاضم لنفسى ، كما قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى في قول ابن بكر الصديق رضوان الله عليه : « وَلَيْتُكُمْ وَلَيْتُكُمْ » إن المؤمن ليهضم نفسه ، وإما صدقت الفاحص عني ، وعن كنه روايتي ودرايتي ، ومن أقيت وأخذت عنه ، وما بلغ علمي وقصارى فضلي ، وأطلعت على طلع أمرى ، وأفضيت إليه بحبيته سرى ، وأقيت إليه عجرى ونجوى^(٢) ، وأعلمته نجوى وشجوى^(٣) وقال ابن خلكان : ما أعلم هل أجازته بعد ذلك أولا^(٤) .

وقال في مقامة العمل يخاطب نفسه : « نعم يا أبا القاسم إن سمعته يقولون : ما أكثر فضلك فقل إن فضولى أكثر ، وما أغزر أدبك فقل إن قلة أدبى أغزر^(٥) . »

ولم ينس أن يشيد بخلق التواضع في استقباطه بعض الأخلاق من تفسيره

(١) فلان ما يعرف قبيلاً من دبير أى ما يعرف الشاة المقابلة من المدابرة ، أو ما يعرف من يقبل عليه بمن يدبر عنه ، أو ما يعرف نسب أمه من نسب أبيه (القاموس المحيط مادة قبل) وأصله من قتل الحبل إذا مسح التمين على اليسار علواً فهو قبيل وإذا مسحها عليها سفلاً فهو دبير (أساس البلاغة مادة قبل) .

(٢) المراد أطاعته على عبوى ، وأصل العجر العروق المتعقدة الناشئة ، والبحر ما تعقد منها على البطن خاصة (أساس البلاغة مادة بحر) .

(٣) النجم ما نجم من النبات على غير ساق .

(٤) وفيات الأعيان ٢٥٦/٤ ومعجم الأديباء ١٩/١٣٢

(٥) مقامات الزمخشري ١٠١

قوله تعالى : ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ^(١) .

قال: في الآية دليل على شرف العلم، وإنافة محله، وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم ، وأجزل القسَم ، وأن من أوتيَه فقد أوتي فضلا على كثير من عباد الله ، كما قال تعالى : « يرفعُ الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلمَ درجات » ^(٢) .

وماسمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة ، لأنهم القوام بما بعثوا من أجله .

وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة لوازم ، منها أن يحمّدوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم ، وفيها التذكير بالتواضع ، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم ، وما أحسن قول عمر : كل الناس أقره من عمر ^(٣) .

(٨) حبه للعرب والعربية

كانت العصبية الجنسية قد بلغت أشدها في ذلك العصر الذي عاش فيه الزنحشري ، وكان كثير من الأعاجم قد انهزوا ضعف الخلافة العباسية ، وتفرق العرب ، وقيام دويلات غير عربية ، فجعلوا يتعالمون على العرب ، وينقصون من قدرهم ، ويتهجمون على تاريخهم ، وأخلاقهم ، ويحاولون أن يحيموا لغاتهم القومية ، ويستعصوا بها عن العربية .

(١) سورة النمل ١٥

(٢) سورة المجادلة ١١

(٣) السكشاف ٢/١٣٩

ولكن الرخشي العالم اللغوي الأديب وقف في تيار الشعوبية بصدده ما استطاع ، لأنه كان يصل ما بين العروبة والإسلام ، ويصل ما بين اللغة العربية والثقافة الإسلامية . قال في مقدمة كتابه (المفضل) :

« الله أحمد على أن جعلني من علماء العربية ، وجبلي على الغضب للعرب والعصية ، وأبلى أن أفرد عن صميم أنصارهم وأمتار ، وأنصوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز ، وعصمني من مذهبهم الذي لم يُجِدْ عليهم إلا الرشق^(١) بأسنة اللاعنين ، والمشق^(٢) بأسنة الطاعنين .

ولعل الذين يفضون من العربية ويضعون من قدرها ، ويريدون أن يخفصوا مارفع الله من منارها . حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه في عجم خلقه ، ولكن في عربهم لا يبعدون عن الشعوبية مُنَابَذَةً للحق الأبلج ، وزيفاً عن سواء المنهج ، ثم سفهم وعجب من دعاوهم وهم لا يدرسون إلا بالعربية » والذي يقضي منه العجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم ، وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلى تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بَيِّن لا يدفع ، ومكشوف لا يتفنع^(٣) . . .

وقد جهر بتفضيل العرب في قوله :^(٤)

العرب نبع صلب المعاجم ، والعَرَبُ مُثَلِّلٌ للأعاجم^(٥) .

وفي قوله :^(٦)

فرقت بين الرُّطْبِ والعَجَم^(٧) ، هو الفرق بين العرب والعجم .

(١) الرشق : الإصابة بالسكروه . اللشق : سرعة الطعن .

(٢) شرح المفضل ١/٣١-١٦ .

(٣) نوابيع الكلم ٧ .

(٤) النبع : شجر صلب تتخذ منه القسي . العرب : شجر ضعيف رخو .

(٥) نوابيع الكلم ٣٨ . (٦) العجم : نواة النمر .

ولهج بالعرب وبأخلاقهم ، وسخر بالشعوبية في قوله^(١) :

وقل هل فشا في الأرض غير لسانهم لسان فُشِيَ الضوء واليوم شامس ؟
به عَجَّ في أمصارها كل منبر وطنَّتْ به في الخافقين المدارس
على ظهرها لم يخلق الله أمة تناسبهم في خصلة أو تلابس
تقاييسُ بين الناس حتى إذا انتهى إلى العرب المقياس طاح المقاييسُ
أَجَلُ رسول منهم وبُلسنهم أجل كتاب فاعتبر يا منافس
وقل للشعوبيين إن حديثكم أضاليل من شيطانكم ووساوس
لكم مذهب فسلُّ بُعْرَ بمثله أشايب حمقى لا الرجال الأكاييس

وردد في كثير من كتبه إعجابه باللغة العربية وإيثاره إياها ، وثناؤه على بلغاتها ، فقال في مقدمة كتابه (الفائق في غريب الحديث) إنها أفصح اللغات ، وبلاغتها أتم البلاغات ، وأثنى على عدنان وأبنائه ، وقحطان وأحيائه ، وعلى شعرائهم وخطباءهم الذين سحروا الناس ببلاغتهم .

وقال في كتابه (مقدمة الأدب) : « الحمد لله الذي فضل على جميع الألسنة لسان العرب ، كما فضل الكتاب المنزل به على جميع المكاتب » .

لهذا كان براون محققا في قوله^(٢) : إن الزنجشري من أقوى المعارضين لمذهب الشعوبية ، وهو المذهب الذي يفضل المعجم على العرب في كل شيء .

(١) ديوان الزنجشري ٦١

(٢) تاريخ الأدب في إيران ٤٥٩

(٩) قسوته على مخالفيه

كان للزحشرى مخالفون في مذهبه أهمهم ثلاث طوائف، وله مع كل منها موقف. أما الأولون فهم الشافعية والمالكية والحنابلة، لأنه كان حنفى المذهب^(١)، وقد باهى بحنفيته في قواه^(٢) :

وَأُسْنَدُ دِينِي وَاعْتِقَادِي وَمَذْهَبِي إِلَى حُنُفَاءِ اخْتَارَهُمْ وَحُنَائِقِ حَنِيفَةِ أَدْيَانِهِمْ حَنِيفِيَّةٌ مَذَاهِبُهُمْ لَا يَبْتَغُونَ الرِّعَايَةَ وَقَالَ^(٣) : رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْعُلَمَاءِ الْخَاشِعِينَ مِنْ اللَّهِ وَحَسَابِهِ ، جَمَعُوا إِلَى الدِّينِ الْحَنِيفِيِّ الْعِلْمَ الْحَنِفِي .

ولكنه على الرغم مما كان بين أتباع هذه المذاهب من خصومة في كثير من الأوقات والجهات لم يتعصب للحنفية، ولم يجرّح مخالفيهم، بل كان يورد الآراء المختلفة بغير تعليق تارة، وبترجيح مذهب على آخر تارة، وقد يختار مذهب الشافعية، كما نجد في تفسيره للآية الكريمة: «وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْخَيْضِ قُلْ هُوَ أَدْنَى فَاغْتَزَلُوا النِّسَاءَ فِي الْخَيْضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ^(٤)» وكما في تفسيره للآية الكريمة: «وَأَنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنُصَفُ مَا فَرَضْتُمْ^(٥)» .

وأما الفريق الثاني فهم السنية، وقد قسا عليهم مراراً، وسفه آراءهم، وضعف دينهم، ومن الإنصاف أن نذكر أن أهل السنة طالما خاصموا المعتزلة،

(١) تاريخ أبي القدا ١٦/٣

(٢) ديوان الأدب ٧٨

(٣) أطواق الذهب ٥٢

(٤) سورة البقرة ٢٢٢ والكشاف ١٠٣/١

(٥) سورة البقرة ٢٣٧ والكشاف ١١٤/١

وحرصوا عليهم ، وكفروهم ، ولا شك أن الزمخشري كان يعلم هذا ، وكان يحد من السنية المعاصرين له تنكرا ومخاصمة ، فلقبهم بمثل ما يلقونه به .

من قبوته على السنية ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »^(١) فقال : « العزيز الحكيم » صفتان مقررتان لما وصف الله به ذاته من الوحدانية والعدل . فإن قلت : ما المراد بأولى العلم الذين عظمهم هذا التعظيم ، حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله ؟ قلت : هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة ، والبراهين القاطعة ، وهم علماء العدل والتوحيد — يقصد المعتزلة — .

وقوله (إن الدين عند الله الإسلام) جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى ، لأن قوله (لا إله هو) توحيد ، وقوله (قائما بالقسط) تعديل ، فإذا أردفه قوله (إن الدين عند الله الإسلام) فقد أذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد ، وهو الدين عند الله ، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين . وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدي إليه كإجازة الرؤية ، أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور ، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام .

وقد عقب ابن المنير على هذا بما يماثله في تقسوة والتجريح^(٢) .

وأما الفريق الثالث فهم المتصوفة ، ولا عجب في مخاصمتهم لهم ، لأن بين المعتزلة والمتصوفة اختلافا جسيما .

ذلك بأن المتصوفة ذابوا بالجبر صراحة ، فقد روى عن أبي عبد الله أحمد ابن يحيى الجلاء قوله : « من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد ، ومن حافظ

(١) سورة آل عمران ١٨ — ١٩

(٢) السكشاف وهاشية ١/١٣٧

على الفرائض في أول موافقتها فهو عابد ، ومن رأى الأموال كلها من الله عز وجل فهو موحد لا يرى إلا واحدا^(١) » ، على حين أن المعتزلة يدينون بالحرية والاختيار .

والتصوفة غالوا في تقدير النبي عليه الصلاة والسلام مغالاة لم يعرفها المسلمون الأولون ، ولم يقرها المعتزلة .

والتصوفة يعتقدون في الولاية والأولياء اعتقادا خاصا ، فالأولياء في نظرهم أنواع وطبقات^(٢) ، ولهم كرامات^(٣) ، أما المعتزلة فلا يعترفون بالولاية على هذا النحو ، لأن المسلمين الطائعين في نظرهم أولياء الله وأحيائه .

وقد اشتهر بعض التصوفة في القرنين الرابع والخامس بمعامشة المخالفين ، وورقة النساء ، وصحبة الأحداث ، وإثارة العزوبة ، على الرغم من أن أكثر الصوفية القدماء كانوا متزوجين^(٤) ، وفي هذا يقول الحارثي في القرن الخامس : إن شيوخ التصوفة متفقون على أن العزوبة هي اللاتقة بالتصوف ، لتكون قلوبهم خالية من المشاغل ، وطباعهم مبرأة من الشهوات والمعصية ، وأساس التصوف هو العزوبة ، أما الزواج فغيرهم^(٥) .

والتصوفة يتخذون وجدانهم وإلهامهم وسيلة لمعرفة ، على حين أن المعتزلة يجعلون وسيلتهم ما يفهمونه من القرآن والسنة وما يستنبطون منها بعقولهم . والتصوفة يولون نفوسهم وأرواحهم عنايتهم ، والفقهاء والمعتزلة يهتمون بالعناية أعمالهم وظواهرهم .

(١) الرسالة القشيرية ٢٠ .

(٢) طبقات الشافعية للسيدي ٢٣٧/٢ وكشف المحجوب .

(٣) الرسالة القشيرية . باب الكرامات .

(٤) الرسالة القشيرية ٢٢ .

والتصوفة يهيمون بالحب الإلهي غير متعلقين برغبة في ثواب أو رهبة من عقاب ، ولكن المتكلمين والفقهاء يعتمدون على العبادات ، أملا في الثواب وخوفا من العقاب .

وقد سفة الزمخشري التصوفة ، فمن تسفيهه لهم وسخريته بهم ما ذكره في تفسير قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ » ^(١) . فقال : محبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته ، وألا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه ، ومحبة الله لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ، ويعظمهم ، ويثني عليهم ، ويرضى عنهم ، وأما ما يعتقدونه أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله ، وأمقتهم للشرع ، وأسوأهم طريقة . وإن كانت طرقهم عند أمثالهم من الجهالة والسفاهة شيئا . وهم الفرقة المتفصلة المتفصلة من الصوف - يقصد التصوفة - وما يدينون به من المحبة والعشق ، والتغنى على كراسيهم خربها الله ، وفي مراقصهم عطشها الله ، بآيات الغزل المقلوبة في المزدان الذين يسمونهم شهداء ، وضعفائهم التي أين منها صعقة موسى عند ذلك الطور ، فتعالى الله عنه علوا كبيرا . ومن كلماتهم : كما أنه بذاته يحميهم كذلك يحبون ذاته ، فإن الهاء راجعة إلى الذات دون النوع والصفات . ومنها : الحب شرطه أن تلحقه سكرات الحبة ، فإذا لم يكن كذلك ، لم تكن فيه حقيقة ^(٢) .

وعلق ابن القيم بقوله : لاشك أن تفسير محبة العبد لله بطاعته على خلاف الظاهر ، وهو من المجاز الذي يسمى فيه المسبب باسم السبب ، والمجاز الذي لا يعدل إليه عن الحقيقة إلا بعد تعذرها ، فليمتحن حقيقة الحبة لغة لينظر أهى ثابتة

المعبد متعلقة بالله تعالى أم لا ؟ إذ المحبة لغة ميل المتصفي بها إلى أمر لادّ، والذات المحبوبة منقسمة إلى مدرك بالحس كذلة الذوق في المعلوم . ولذة النظر وإلى لذة تدرك بالعقل كذلة الجاه والرياسة والعلوم ، ثم تفاوتت المحبة بحسب تفاوت البواعث عليها وليس معلوم أكمل ولا أجمل من المعبود الحق ، فاللذة الحاصلة في معرفته تعالى ومعرفته جلالة تكون أعظم ، والمحبة المنبعثة عنها تكون أمكن ، وإذا حصلت هذه المحبة بعثت على الطاعات والموافقات .

ومعنى هذا أن محبة العبد لربه ممكنة بل واقعة من كل مؤمن ، فهي من لوازم الإيمان وشروطه . والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم ، وإذا كان كذلك وجب تفسير محبة العبد لله بمعناها الحقيقية لغة ، وكانت الطاعات تكاليف عنها والمغاير لها . ألا ترى إلى الأعرابي الذي سأل عن الساعة فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كبير عمل ، ولسكن حب الله ورسوله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت . فهذا الحدث ناطق بأن المقبول من المحبة غير الأعمال والتزام الطاعات ، لأن الأعرابي نقاهها ، وأثبت الحب ، وأقره النبي على ذلك .

ثم إذا ثبت إجراء محبة العبد لله تعالى على حقيقتها لغة ، فالمحبة في اللغة إذا أكدت سميت عشقا ، فمن تأكدت محبته لله تعالى ظهرت آثارها عليه ، من استيعاب الأوقات في ذكره وطاعته ، فلا يمنع أن نسمي محبته عشقا ، إذا العشق ليس إلا المحبة البالغة . وما أردت بهذا الفصل إلا تخليص الحق والانتصاف لأحباب الله عز وجل من الزمخشري ، فإنه خلط في كلامه الغث بالسمين ، فأطلق القول بالقدح الفاحش في المتصوفة من غير أن يتحرى ، ونسب إليهم ما لا يعبا بمرتكبه ، ولا يعد في البهائم فضلا عن خواص البشر .

ولا يلزم من تسمي طائفة بهذا الاسم غاصيين له من أهله ، ثم ارتكابهم ما نقل عنهم مما ينافي حال السمين به حقيقة ، أن يؤخذ الصالح بالطالح ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

كما أن علماء الدين قد انتسب إليهم قوم سمو أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، ثم خلعوا الرتبة فجحدوا صفات الله تعالى وقضاءه وقدره ، وقالوا : إن الأمر أنف ، وجعلوا أنفسهم شريكة في المخلوقات . فلا يسوغ لنا أن نقدح في علماء أصول الدين مطلقاً ، لأنهم قد انتسب إليهم من لا حيلة لهم في نفيه عن التسمي بنعتهم ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

ولا شك أن في الناس من أنكر تصور محبة العبد لله إلا بمعنى طاعته له لا غير ، وهو الذي انحاز إليه الزمخشري ... قال الغزالي : والمحبون لله يقولون لمن أنكر عليهم ذلك « إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون » ^(١) .

ومن سخريته بهم قوله في تفسير الآية الكريمة : « هو الذي يرسم البرق خوفاً وطمعا ، ويُنشئ السحاب الثقال ، ويسبِّح الرعد بحمده والملائكة من خيافته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » ^(٢) . قال : ويسبِّح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر ، ومن يدع المتصوفة أن الرعد صفقات للملائكة ، والبرق زفرات أفتدتهم ، والمطر بكاؤهم ^(٣) .

(١٠) عزوبته

عاش الزمخشري أعزب كما عاش بعض سابقيه من العلماء والأدباء ، مثل محمد ابن جرير الطبري ^(٤) ، وأبي حيان التوحيدي ^(٥) ، وإذا كان سابقوه لم يبرروا إيثارهم للعزوبة ، ولم يعللوا لها ، فإنه قد بررها ، وعلل لها ، ولكن تعليله غريب .

(١) هامش الكشف ٢٦١/١

(٢) سورة الرعد ١٣

(٣) الكشف ٤٩٠/١

(٤) الطبري المؤلف ٤٩

(٥) أبو حيان التوحيدي للمؤلف ١٨٥

فهو مرة يشفق على الآباء الذين يجهلون في تربية أبنائهم ، مؤملين لهم الخير والعلاء ، ومتشوقين إلى أن يسعدوا بهم ، وتقر أعينهم ، ولكن هؤلاء الأبناء يصيرون أذلة ، لا يحققون شيئا مما أمله آباؤهم ، وهو لهذا أثر العزوبة التي شبهها بالرهبة في المسيحية ، وارتضاها لنفسه ، واستراح إليها ، فقال ^(١) :

تصفحت أولاد الرجال فلم أكد أصادف من لا يفضح الأم والآب
رأيت أباً يشقى لتربية ابنه ويسعى لكي يدعى مكيساً ومُنَجِّباً
أراد به النَّسْءُ الأغر فما درى أيوليه حَجْراً أم يُعَاييه منكباً
أخو شقوة ما زال مركب طفله فأصبح ذاك الطفل للناس مركباً
لذاك تركت النسل واخترت سيرة مسيحية أحسن بذلك مذهبا

ولا شك أن هذه محاولة للتبرير ، ولكنها أبعد ما تكون عن الإقناع ، وأرجح أنه هو نفسه لم يكن مقتنعا بها ، ولعله ساقها مساق المغالطة والمجادلة ، لأن الأبوة والأمومة ميل في الفطرة أصيل ، ولأن أكثر الأبناء لا ينطبق عليهم تشاؤمه . ثم إن الإسلام لا يرتضى هذه الرهبة من قادر على الزواج .

والعجب أنه دافع عن العزوبة مرة أخرى ^(٢) بأن الابن إذا ارتكب جرماً فاضحاً كانت فضيحة الأب أشنع ، وإذا كان الأبناء محجوبة للضرر فإن ترك النسل أصوب ، وأدعى إلى الطمأنينة وسلامة العرض :

كأنكم لم تسمعوا أن من له عيال شقى دهره ليس يفلح
قبيح بثلى والبنون كما أرى جنود فساد ليس في الألف مصلح
إذا ارتكب الابن الخلع فضيحة فذاك لعمر الله للأب أفصح

(١) الديوان ٨

(٢) الديوان ٢٦

وكل صنيع ليس للنفع جالسا وجراً وجوه الضر فترك أروح^(١)

وقد سبق في مؤلفاته أنه تبناها وامتزجت بها نفسه، فأثرها على الأبناء، وهو يسكر هذا، ويشفع إلى مؤلفاته تلاميذه وقراء كتبه، ورواة علمه في قوله^(٢) :

وحسبي تصانيفي وحسبي رواياتها بنين بهم سيقت إلى مطالبي

إذا الأب لم يأمن من ابن عقوقه ولا أن يعق الابن بعض النوائب

فإني منهم آمن وعليهم وألقابهم أرجوهم للعوقب

وهو في مرة ثالثة يتهيب الحياة الزوجية، ويقرنها بالسباحة في البحر الهائج، فيقول^(٣) : ما أدرى أيهما أشقى : أمن يعوم في الأمواج، أم من يقوم على الأزواج ؟

(١) أروح : أكثر راحة .

(٢) الديوان ٨ .

(٣) نواصع الكلام ٣٦ .

الفصل السادس

في رحاب التفسير والتأويل

لمحة إلى التفسير قبل التمهيد

التفسير الإبانة والتوضيح، وهو التأويل بمعنى واحد في رأى، وفي رأى آخر أن التفسير كشف المراد عن المشكل، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يوافق الظاهر

١ - عاش المسلمون ردحا من الزمن متحجرين من تفسير القرآن الكريم بأرائهم، مكتفين بالنقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أو بالأخذ عن الصحابة، أو بفهم ما تلميه اللغة ويقتضيه التعبير وروح الشريعة.

فلما تقدم الزمن، وتقدمت الثقافة، وتطور التفكير، واحتدم الخلاف السياسي والمذهبي خطا المفسرون من طور الاعتماد على النقل إلى طور الاجتهاد والاعتماد على العقل، فلم يتخرجوا من تفسير القرآن حسب آرائهم؛ لأنهم رأوا في التخرج عدولا عن التفكير والنظر واستنباط الأحكام، ولوصح ما ذهب إليه المتخرجون لم يستطع أحد أن يستنبط شيئا، بل لم يفهم كثيرا مما تضمنه كتاب الله.

ورأى هؤلاء أن الحديث الذي ينهى عن التفسير بالرأى - على فرض صحته - مراد به الرأى الذى لا يعتمد على أصل ثابت، ولا يستند إلى روح الشريعة، بل يذهب مع الهوى، ولهذا اجتهد كثير من العلماء في تفسير القرآن الكريم، واعتمدوا على آرائهم، لأنهم مستكملون للعدة التى يجب أن تتوفر

المفسر ، وجعل التفسير منذ القرن الثاني يتأثر باتجاهات المفسرين ، وبصطيف بنقافهم .

فالنحاة — كالزجاج والواحدى وأبي حبان — يهتمون بالمسائل النحوية وتخریجها ، ويعربون القرآن إعرابا يساعد على تفسيره ، ويعنون بالمشكلات النحوية في مثل قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا في ربهم » وقوله تعالى : « إن هذان لساخران » .

واللغويون — كأبي عبيدة وقطرب — يؤلفون كتباً في غريب القرآن ، ويهتمون بالمشكلات اللغوية .

وهؤلاء وأولئك لهم كتب تسمى معاني القرآن .

وآخرون اتجهوا إلى المحازات في نحو قوله تعالى : « فبشرهم بعباد آليم » والفقهاء عنوا بآيات الأحكام ، وألفوا كتباً مثل كتاب أحكام القرآن على مذهب مالك ، وكتاب أحكام القرآن على مذهب أهل العراق لأنى بكر الرازي ، وكتاب أحكام القرآن للشافعي .

والمشتغلون بالعلوم العقلية حشدوا آراء الفلاسفة والحكماء في تفسير بعض الآيات ، مثل الفخر الرازي ، والمتصوفة لونوا تفسيرهم بأرثهم كابن عربي الأندلسي . وعلماء الكلام أولوا بعض الآيات تعزير المذهبهم ، مثل الزمخشري^(١) .

٢ — وكان لابد للمفسر أن يكون موهوباً وعالماً باللغة والنحو والصرف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والقراءات والأصول وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والحديث والفقه .

ويذكر الزمخشري أن المفسر يجب أن يكون على معرفة بالعلوم كلها .

(١) ضحا الإسلام ١٤٦/٢ والطاوى ٩٩ - ١٠٧ المؤلف .

هو أن يكون حسيفاً نقادة لما يقرأ ولما يسمع ، وأن يتمرس بحفظ النصوص البليغة ، وبتملي بالنظر في الأساليب « ثم إن أمتلاء العلوم بما يغمر القرائح ، وأنهبها بما يهر الأبواب القوارح ، من غرائب نكت بلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يندق سلكها ، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذو علم — كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن — فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن برز أهل الدين في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوي وإن ملك اللغات بقوة أحييه ، لا يتصدى منهم أحد لسلك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادها آونة ، وتعب في التنقيب عنها أزمئة ، وبعثته على تتبع مظاهرها همه في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، جامعاً بين أمرين : تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجع زماناً ورجع إليه ، وردَّ وردَّ عليه ، فارساً في علم الإعراب ، مقدماً في جملة الكتاب ، وكان مع ذلك مستمر الطبيعة منقادها ، مشتعل القرينة وقادها ، يقظان النفس ، ذرّاً كاللمعة وإن لطف شأنها ، منتبها على الرمزة وإن خفي مكانها ، لا كزاً جاسياً ، ولا غليظاً جافياً ، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والقر ، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويترصف ، طالما دفع إلى مضايقة ، ووقع في مداخضة ومزأله » ^(١) .

ويكرر التنبيه على التذوق والخبرة بعلى المعاني والبيان ، ويعلل لهذا بأن

القرآن معجز بنظمه لا بالصرفه ، فالنظم هو أم إعجازه ، والقانون الذى وقع عليه التحدى ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر ^(١) .

ويبدو من كلامه هذا أنه تأثر بما رده عبد القاهر الجرجاني فى كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، واطمأن إلى ما دعا إليه الجرجاني من أن الحكم بالجمال لا قيمة له إذا لم يؤيد بالكشف عن سر هذا الجمال « إن من الآفة من زعم أن لاسبيل إلى معرفة العلة فى قایل ما تعرف المزية فى كثيره ، وأن ليس إلا أن تعلم أن هذا التقديم وهذا التنكير أو هذا العطف أو هذا الفصل حسن » وأن له موقعا من النفس وحظاً من القبول . فأمّا أن تعلم : لم كان كذلك ؟ وما السبب ؟ فما لاسبيل إليه ، ولا مطمع فى الاطلاع عليه ، فهو بتوانيه والى الكسل فيه فى حكم من قال ذلك .

واعلم أنه ليس إذا لم يمكن معرفة السكل وجب ترك النظر فى السكل ، وأن تعرف العلة والسبب فيما يمكنك معرفة ذلك فيه وإن قل ، فتجعله شاهداً فيما لم تعرف أخرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك ، وتأخذها عن الفهم والتفهم ، وتعوّدها الكسل والهوى .

قال الجاحظ : وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس ، وله ضرة شديدة وثمرة مرة ، فمن أضر ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئاً . فلو أن علماء كل عصر مذجرت هذه الكلمة فى أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عن قبلهم لرأيت العلم مختلاً .

واعلم أن العلم إنما هو معدن ، فكما أنه لا يمكنك أن ترى ألف وقر — حل — قد أخرجت من معدن تتر أن تطلب فيه ، وأن تأخذ ما تجد ولو كقدر تومة — لؤلؤة — كذلك ينبغى أن يكون ذلك فى طلب العلم ^(٢) .

(١) الكشف ٢٤/٢

(٢) دلائل الإعجاز ٢٢٦

« إنك لن تعلم في شيء من الصناعات علما يُثمر فيه وتُحلى حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب، ويفصل بين الإساءة والإحسان، بل حتى تفاضل بين الإحسان والإحسان، وتعرف طبقات المحسنين.

وإذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياسا، وأن تصفها وصفا مجملا، وتقول فيها قولاً مرسلاً، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تُفصل القول وتُحصّل، وتضع اليد على الخصائص التي تمرض في نظم الكلم، وتعدّها واحدة واحدة، وتسميها شيئاً شيئاً، وتكون معرفتك معرفة الصنّع الخاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الديباج، كل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطّع، وكل آجرة من الآجر الذي في البناء البديع^(١). وقد طبق الجرجاني نظريته في كفايته الدلائل والأسرار على كثير من الآيات القرآنية والنصوص الأدبية.

ثم جاء الزمخشري فعنى بالكشف عن الإعجاز السكام في نظم القرآن الكريم ٣ — عني بعض سابقيه بالتفسير اللغوي البلاغي، مثل أبي عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى سنة ٢١١ هـ) ولكن جهده يتضاءل إذا قيس بجهده الزمخشري. ٤ — وسبقه إلى التأويل على مذهب المعتزلة كثير من علماءهم، وإن لم يصل إلينا من إنتاجهم إلا القليل، فقد أقبلوا على تفسير القرآن الكريم وتأويله إقبالا، فظهر منهم عشرات منذ ألف واصل بن عطاء (المتوفى سنة ١٣١ هـ) كتابه معاني القرآن^(٢) وألف قطرب — محدث المستنير — (٢٠٦ هـ) خمسة كتب في الدراسات القرآنية هي: معاني القرآن، والرد على الملحدين في مشابهة لقرآن، وإعراب القرآن، ومتشابه القرآن، ومجاز القرآن^(٣). وتتابع مفسروهم كآبى

(١) المرجع السابق ٣٠

(٢) معجم الأدباء ١٩ / ٢٤٧

(٣) معجم الأدباء ١٩ / ٥٣

بكر عبد الرحمن الأصم (٢٤٠) ^(١) وأبي على محمد الجبائي (٣٠٣) ^(٢) وأبي القاسم عبد الله البلخي السكعي (٣١٩) ^(٣) وأبي هاشم عبد السلام الجبائي (٣٢١) ^(٤) وأبي مسلم محمد بن بحر الأصفهاني (٣٢٢) ^(٥) وأبي الحسن علي الرماني (٣٨٤) ^(٦) وأبي القاسم عبيد الله الأسدي (٣٨٧) ^(٧).

ثم جاء القاضي عبد الجبار (٤١٥) فألف كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن)، وبعده الشريف المرتضى (٤٣٦) فتناول كثيرا من آراء المعتزلة، وطبق الآيات القرآنية عليها في أماليه (غرر الفوائد ودرر القلائد) وهي مطبوعة، وبعدها أبو يوسف القزويني (٤٨٣) الذي ألف تفسيراً كبيراً بث فيه آراء المعتزلة، ومزجه بمعتقداتهم، وهو ضخيم في ثلاثمائة مجلد، منها سبعة مجلدات في الفاتحة وحدها ^(٨).

وليس أدل على كثرة مفسري المعتزلة من أن الذين بين واصل بن عطاء وأبي يوسف القزويني أكثر من ثلاثين معتزلياً، لهم في التفسير وما يتصل به مؤلفات تبلغ نحو المئة، ولكن أكثرها مفقود ^(٩).

ومن حق القاضي عبد الجبار على من يدرس الزمخشري أن يدرس آراءه،

(١) الفهرست ٥١

(٢) طبقات المفسرين ٢٣ والفهرست ٥٠

(٣) الفهرست ٥١

(٤) طبقات المفسرين ٣٣

(٥) الفهرست ٥٠ وبنية الوعاة ٢٣

(٦) طبقات المفسرين ٢٤

(٧) طبقات المفسرين ١٩

(٨) طبقات المفسرين ١٩

(٩) تجد أسماءهم ومؤلفاتهم في الفهرست لابن النديم وطبقات المفسرين وبنية الوعاة للسيوطي وإياه الرواة للقفطي ومجمع الأدباء لياقوت والمنية والأمل للمرتضى ووفيات الأعيان لابن خلكان وكشف الظنون لحاجي خايفة.

لأن بينها وبين تفسير الزمخشري كثيراً من المشابهة في الفكرة وفي الطريقة ،
ولكن كتابنا هذا لا يتسع للدراسة المفصلة ، فلنم بها إلمامة سريعة .

أما القاضي عبد الجبار فهو قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد
ابن عبد الجبار الهمداني الأسد باذي الشافعي ، كان في عصره شيخ المعتزلة ، وقد
استدعاه صاحب بن عباد إلى الري وولاه قضاءها ، وبقي بها يدرس إلى أن
مات ، وكان صاحب يثني عليه ، ويصفه بأنه أعلم أهل الأرض .

وله مؤلفات كثيرة في علم الكلام والأصول والفقه والتفسير^(١) .

وأما كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن)^(٢) فليس تفسيراً كاملاً يستوعب القرآن
كله ، لأن مؤلفه لم يقصد إلى هذا ، بل قصد إلى الآيات المتشابهة ليبين خطأ بعض
الناس في فهمها وفي تأويلها ، ويكشف عما يراه ، متتبعاً ببناء الكتاب على المسائل
التي تعنيه من كل سورة ، سواء أكانت راجعة إلى الأسلوب أم إلى العقيدة .
فيقول مثلاً في تفسير قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه »^(٣) .

مسألة : متى قيل : لماذا قال تعالى (ذلك الكتاب) ولم يقل هذا الكتاب؟
فجوابنا : أنه عز وجل وعد رسوله أنزال كتاب عليه لا يمحوه الماء ، فلما
أنزل ذلك قال (ذلك الكتاب) والمراد ما وعدتك ، ولو قال هذا الكتاب
لم يفد هذا الغائب^(٤) .

مسألة : قالوا : ما معنى لا ريب فيه ؟ وقد علمتم أن خلقا يشكون في ذلك ،
فكيف يصح ذلك ؟ وإن أراد لا ريب فيه عندي وعند من يعلم فلا فائدة في ذلك .

(١) شذرات الذهب ٣ / ٢٠٢ وطبقات المفسرين ١٦ .

(٢) مطبوع في مجلد واحد

(٣) سورة البقرة ٢

(٤) ذكر الزمخشري رأيين في استعمال (ذلك) هنا ، أحدهما ما ذكره عبد الجبار

(الكشاف ١ / ١٤)

فجوابنا : أن المراد أنه حق يجب ألا يرتاب فيه ، وهذا كما بين المرء الشيء
نخصمه ، فيحسن منه بعد البيان أن يقول : هذا كالشمس واضح ، وهذا لا يشك
فيه أحد ، وهذا كما يقال عند إظهار الشهادتين إن ذلك حق وصدق ، وإن
كان في الناس من يكذب بذلك ^(١) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم
غشاوة » ، ولهم عذاب عظيم ^(٢) .

مسألة : قالوا : فقد قال تعالى (ختم ...) وهذا يدل على أنه منعهم من
الإيمان ، ومذهبكم بخلافه ، وكيف تأويل الآية ؟ :

وجوابنا : أن للعلماء في ذلك جوابين : أحدهما أنه شبه حالهم بحال المنوع
الذي على بصره غشاوة ، من حيث أراح كل عليهم فلم يقبلوا ، كما قد تعين للموحد
الحق ، فتوضحه ، فإذا لم يقبل صبح أن تقول حمار طبع الله على قلبه ، وربما تقول
إنه ميت ، وقد قال تعالى للرسول : « إنك لا تسمع الموتى ^(٣) » وكانوا أحياء ،
فلما لم يقبلوا شبههم بالموتى ، وهو كقول الشاعر .

لقد أسمعتم لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تُنادي

وبين ذلك أنه تعالى ذمهم ، ولو كان هو المانع لهم لاذمهم ، وأنه ذكر
في جملة ذلك الغشاوة على سمعهم وبصرهم ، وذلك لو كان ثابتا لم يؤثر في كونهم
عقلاء مكافين .

والجواب الثاني : أن الختم علامة يفعلها تعالى في قلوبهم ، لتعرف الملائكة
كفرهم ، وأنهم لا يؤمنون ، فجتمع على ذمهم ، ويكون ذلك لطفاهم ، ولطفنا لمن

(١) تنزيه القرآن عن الطاعن ٦ وفي الكشف ما يشبه هذا ١ / ١٥

(٢) سورة البقرة ٧

(٣) سورة النمل ٨٠

يعرف ذلك من الكفار أو بظنه ، فيكون أقرب إلى أن يقلع عن الكفر .
وهذا جواب الحسن رحمه الله ، ولهذا قال تعالى « ولهم عذاب عظيم » ^(١) .

وينفي وقوع رؤية الخلق لله في الآخرة ، فيقول في تفسير قوله تعالى :
« وجود يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » ^(٢) : ربما قيل إنه أقوى دليل على أن
الله تعالى يُرى في الآخرة .

وجوابنا : أن من تعاق بذلك إن كان ممن يقول بأن الله تعالى جسم ، فإننا
لا تنازعه في أن يرى ، بل في أن يصافح ويباعق ويلمس ، تعالى الله عن ذلك ،
وإنما نكلمه في أنه ليس بجسم .

وإن كان ممن ينفي التشبيه عن الله فلا بد من أن يعترف بأن النظر إلى
الله تعالى لا يصح ، لأن النظر هو تقليب العين الصحيحة نحو الشيء طلبا لرؤيته ،
وذلك لا يصح إلا في الأجسام .

فيجب أن يتأول على ما يصح النظر إليه وهو الثواب (يريد : إلى ثواب
ربها ناظرة) كقوله تعالى : « واسأل القرية » ^(٣) فإننا تأولناه على أهل القرية
لصحة المسألة منهم ^(٤) .

وعلى مثل هذا النهج يسير القاضي عبد الجبار في تأييد آراء المعتزلة والدفاع
عنها ، مقتدرا بالفكر ، وبالتحليل البلاغي ، وحمل الكلام في كثير من الآيات
على التشبيه والمجاز .

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن ٩ وفي الكشف خمسة أوجه في هذه الآية (الكشاف
٢١/٢) .

(٢) سورة القيامة ٢٢ ، ٢٣

(٣) سورة يوسف ٨٢

(٤) تنزيه القرآن عن المطاعن ٣٥٨ وفي الكشف (٢ / ٥٠٩) أن المعنى وجوه .

يومئذ إلى نعمة الله وكرامته راجية

الكشاف

الباعث على تأليفه

١ — السبب الأول في تأليفه أن جماعة من المعتزلة كانوا يرجعون إليه في تفسير بعض الآيات، فيبرز لهم حقائقها، فيفيضون في الاستحسان والتعجب، ويستطرون شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك، ثم اجتمعوا إليه مقترحين أن يعلى عليهم الكشف (أو الكشاف) عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، فاستعقاهم، فأبوا إلا المراجعة، والاستشفاع بعضاء الدين وعلماء العدل والتوحيد، فأملى عليهم مسألة في فواتح السور، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، في كلام مبسوط كثير السؤال والجواب.

٢ — فلما توجه إلى مكة وجد في البلاد التي اجتازها شوقا إلى ما أملاه على بعض المعتزلة، وحرصا على اقتباسه، فتمحرك نشاطه إلى إكماله.

٣ — وحينما بلغ مكة وجد أميرها أبا الحسن علي بن حمزة بن وهّاس أشد الناس شوقا إلى هذا التفسير، حتى إنه كان يحدث نفسه في مدة غياب الزمخشري عن الحجاز — مع كثرة مشاغله — بالوفادة عليه بخوارزم.

وحينئذ لم يجد الزمخشري بدا من الهوض بتفسير القرآن كله، وهو يختم حديثه عن هذا بقوله: «فقلت قد ضاقت على المستعفى الخيل، وعيت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقمع الشن، وناهزت العشر التي سميتها العرب دقاقة الرقاب^(١)، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى، مع ضمان التأكيد من الفوائد، والفحص عن السمائر.

ووفق الله وسدد ، ففرغت منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق «
وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة» ^(١) .

وإذ كان الفراغ من تأليفه يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٢٨ هـ تجاه الكعبة في جناح داره السليمانية التي على باب أجياد، الموسومة بمدرسة العلامة ^(٢) ، وقد ألفه في سنتين ، فإن الذي يفهم من هذا أنه بدأ يؤلفه سنة ٥٢٦ هـ ، وهو في التاسعة والخمسين أو في أول الستين من عمره ، قبل أن يؤلف أساس البلاغة ، بدليل ما ذكره في ماله (حفر) بالأساس .

بعض من نقل عنهم

قرأ الزمخشري تفاسير سابقة من معتزلة وغير معتزلة ، ونقل عن هؤلاء وهؤلاء . فمن نقل عنهم القاضي عبد الجبار كما سبق ، ومجاهد (المتوفى سنة ١٠٤ هـ) كما نجد في تفسيره لقوله تعالى : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » ^(٣) .

فقال : إن المعنى اعبدوني ، والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن ، ويدل عليه قوله تعالى : « إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » ^(٤) ، «
والاستجابة الإثابة ، وفي تفسير مجاهد : اعبدوني ، أثبكم » ^(٥) .

وممنهم عمرو بن عبيد المعزلي (١٤٤ هـ) فهو ينقل عنه كثيراً ، وكتابه لم يصل إلينا ، كما نجد في تفسيره للآية الكريمة « فلما رآها تهتزل كأنها جانٌ ولى مدبراً » ^(٦) فإنه قال : قرأ الحسن جأن على لغة من يجحد في الحرب من التقاء

(١) مقدمه ا. شاف ١ / ٢

(٢) حاشية الكشف بخط المؤلف ٢ / ٥٧٠

(٣) سورة غافر ٦٠

(٤) تكملة الآية السابقة

(٥) الكشف ٢ / ٣٢٠ ونقل عنه أيضاً في ٢ / ٤٦٥

(٦) سورة النمل ١٠

ساكنين ، فيقول شأبة ودأبة، ومنها قراءة عمرو بن عبيد « ولا الضالين »^(١)
ومنها أبو بكر الأصم المعتزلى (٥٣٤) وتفسيره لم يصل إلينا .

ومنها الزجاج (٣١١) ، كما فى تفسيره لقوله تعالى : « هيهات هيهات
لما توعدون »^(٢) فإنه عقب بقوله : فإن قلت « ماتوعدون » هو المستبعد ،
ومن حقه أن يرتفع فى هيهات كما ارتفع فى قول الشاعر : فيهيات هيهات العقيق
وأهله ، فما هذه اللام ؟

قلت : قال الزجاج فى تفسيره : البعد لما توعدون ، أو بعد لما توعدون ،
فيمى نون ، فنزل منزلة المصدر ، وفيه وجه آخر وهو أن تكون اللام لبيان
المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد ، كما جاءت اللام فى (هيت لك)^(٣)
ليبان المهيى به^(٤) . كذلك نقل عنه تفرقه بين الشروق والإشراق ، لأن
الزجاج ذكر فى كتابه (معانى القرآن) عند تفسير قوله تعالى « إناسخرا الجبال
معه يسبحون بالعشى والإشراق »^(٥) أن الإشراق طلوع الشمس وإضاءتها ،
يقال شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت ، وقيل إنهما
بمعنى واحد .

وقال الزمخشري : الإشراق هو حين تشرق الشمس أى تضىء ويصفو
شعاعها ، وهو وقت الضحى ، وأما شروقها فطلوعها ، يقال شرقت ولما
تُشرق^(٦) .

(١) الكشاف ٢ / ١٣٨

(٢) سورة المؤمن ٣٦

(٣) سورة يوسف ٢٣

(٤) الكشاف ٢ / ٧٣

(٥) سورة ص ١٨

(٦) الكشاف ٢ / ٢٧٨

وقال مثل هذا في أساس البلاغة^(١)

ومنهم الرماني المعتزلي (٣٨٤ هـ) صاحب التفسير الذي لم يبق منه إلا جزء
 عم ، فقد نقل ما ذكره في تفسير قوله تعالى : « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه »
 أن المرء هنا هو الكافر ، لقوله تعالى « إنا أنذرناكم عذابا قريبا ، يوم ينظر
 المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا » والكافر ظاهر وضع
 موضع الضمير لزيادة الذم ، وقيل للمرء عام وخصص منه الكافر ، وعن قتادة
 هو المؤمن^(٢) .

ومنهم عبد الله بن درستويه ، فقد نقل من كتابه (الكتاب المتمم في
 الخط والهجاء)^(٣) .

وكذلك نقل من غير هؤلاء ، مثل سيبويه^(٤) (صاحب الكتاب) ، وأبي
 علي مؤلف (الخجة)^(٥) ، والجاحظ فقد أحال إلى كتاب (الحيوان) لمعرفة غرائز
 الإنسان^(٦) ، والواقدي فقد نقل عنه تعيين الحديبية بأما طرف الحرم على تسعة
 أميال من مكة^(٧) .

على أننا نجد في تفسيره ترديدا لأسماء مئات من القراء واللغويين والنحاة والفقهاء
 والمفسرين ، مثل الحسن بن علي ، وعبد الله بن عباس ، وقاتدة ، وعلي بن الحسين .
 وعبد الله بن عمرو ، وعروة بن الزبير ، وسعد بن المسيب ، ومقاتل ، ومجاهد ، وعكرمة
 وعائشة ، وأبي ذر ، والثوري ، وسفيان بن عيينة ، والضحاك ، وسعيد بن جبير ، والشعبي

(١) مادة شرق

(٢) سورة النبأ ٤٠ وتفسير جز عم للرماني ورقة ٢٨ والكشاف ٢ / ٥٢٠

(٣) الكشاف ١ / ١٢

(٤) الكشاف ١ / ١٢

(٥) الكشاف ١ / ١٠

(٦) الكشاف ٢ / ١٤٢

(٧) الكشاف ١ / ٩٣

وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبي طالب، وأبي هريرة، وأبي حنيفة،
وسعيد بن جبير، والشافعي، وإبراهيم النخعي، وعبد الله بن مسعود، والأوزاعي،
والزهري، والزجاج، والكسائي، وأبي عبيدة، وابن سيرين .

وقد حفل الكشف بكثير من المسائل والقضايا، جدرة بأن يفرد لكل
منها مبحث خاص، لأنها تناول آراء المعتزلة، ومسائل كثيرة في اللغة والنحو
والبلاغة، وتمحيص بعض الآراء والتعليل لبعضها، وهذه كلفة في كل منها .

أولاً - في خضم الاعتزال

لمحة إلى المعتزلة

المعتزلة فرقة دينية نشأت في العراق، ثم ذاعت آراؤها بالعراق وما حوله .
وهي في نشأتها امتداد لفرقة المرجئة، لأن الفرقتين تتشابهان في التوقف
عن الحكم على كلا الحزبين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين، وفي وصف
مرتكب الكبيرة بأنه ليس كافراً، وفي القول بحرية العبد واختياره، إذ أن
بعض المرجئة مثل معبد الجهنى وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم سبقوا المعتزلة
إلى القول بالحرية والاختيار، ودان بهذا الرأي واصل بن عطاء وعمر بن
عبيد، وهما المؤسسان لفرقة المعتزلة .

ثم إنها في تطورها متأثرة بالثقافات الأجنبية ولا سيما الفلسفة اليونانية،
إذ كانت ذات سلطان على الفكر الراقى في الشرق منذ زمن بعيد قبل أن يستهل
الإسلام، وبخاصة فلسفة أفلاطون (٢٠٥ - ٢٧٠ م وهو الذي يطلق العرب
على فلسفة مذهب الإسكندرانيين، ويسميه الشهرستاني الشيخ اليوناني، وقد

وقد تنوع مذهبه وتفرع بالإسكندرية والشام وأثينا، ثم ازدادت الفلسفة اليونانية انتشاراً ونفوذاً منذ عهد كسرى أنوشروان (٥٢١ - ٥٧٩ م) لأن جوستينيان ناصر المسيحية، وأغلق مدارس الفلسفة في أثينا، واضطهد الفلاسفة، ففر بعضهم إلى فارس، حيث رحب بهم كسرى أنوشروان، وأسس لهم مدرسة فلسفية بجنديسابور، فعلموا بها الفلسفة والرياضة والطب ومنطق أرسطو^(١)، ثم تنصر بعضهم، وصبغ نصرانيته بفلسفته.

وفي هذا الوقت ألف بولس رسالته المسيحية مختصراً لمنطق أرسطو باللغة السريانية، ليقراء كسرى « عرض فيه الآراء المختلفة الخاصة بالله والعالم على هذا النحو : لقد وجد من يعتقدون في إله واحد، ويدعى آخرون أنه ليس بواحد، ويقول آخرون إن له صفات متعددة، وينفى آخرون عنه الصفات، وبعضهم يقول إنه قادر على كل شيء، وبعضهم يقول إن قدرته لا تشمل كل شيء، وبعضهم يقول إنه خلق الدنيا وكل ما فيها، وآخرون يقولون إنه ليس خالق كل شيء، وهناك من يقول إن العالم محدث، وآخرون يقولون إنه عالم قديم ». وقد عقب (كاسارتلي) على هذا بأن المؤلف وصف الآراء الشائعة في صلب الديانة الإيرانية نفسها في الوقت الذي عاشت فيه^(٢).

وكان السريان يساهمون في نشر الأفلاطونية الحديثة بالعراق وما حوله، إذ كانت لهم مراكز علمية بالرها ونصيبين وحران وجنديسابور، وكانوا يترجمون من اليونانية إلى السريانية، ثم ترجموا من السريانية إلى العربية، واستمر جهدهم هذا من القرن الرابع إلى العاشر الميلادي^(٣).

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام ١٨ - ٢١ دي بور

(٢) إيران في عهد الساسانيين ٤١١ م كريستنسن

(٣) تاريخ الفلسفة في الإسلام ١٩ دي بور

ومن أشهر رجالهم (ابن ديسان إبار ديسان المتوفى سنة ٢٢٢ م) الذي كان ينكر بعث الأجسام ، ويعقوب الرهاوى (٢٠ — ٩٠ هـ / ٦٤٠ — ٧٠٨ م) الذي أباح لرجال الدين أن يعلموا أبناء المسلمين . ومعنى هذا أن بعض المسلمين كانوا يشتاقون إلى دراسة الفلسفة على أساتذة من السريان ، وأن هؤلاء كانوا يترددون في تعليمهم ولا يقبلون عليه .

وكانت طوائف النصارى في الأقاليم التي فتحها المسلمون تتجادل في طبيعة المسيح ، وتتجادل في رجوعه ، وتختلف في البعث أي يكون بالأجسام والأرواح معاً أم بالأرواح وحدها ؟ وتتنازع في صفات الله تعالى أهى ذاته أم زائدة على ذاته ؟ وتختلف في أعمال الناس أجبرية أم اختيارية ؟ وفي خضم هذا الجدل كانت الفلسفة اليونانية تموج ، ويتقوى بها المجادلون ، إذ كان كثير من رجال المسيحية فلاسفة أو دارسين للفلسفة مثل الأب أوغسطينوس (٢٥٤ — ٣٤٠ م) وكانت الإسكندرية ملاذ النصارية المفلسفة أو الفلسفة النصرانية .

ثم احتدم الجدل بين المسلمين والنصارى ، فألف يحيى الدمشقي النصراني (توفي سنة ١٣١ هـ ٧٤٨ م) رسالة في الرد على المسلمين تجرى على هذا النهج : إذا قال لك العربي كذا فأجبه بكذا .

وأغلب الظن أن كثيراً من آرائه في هذا الحوار ، وفي مذهبه في القضاء والقدر ، وحرية الإرادة ، قد تسربت إلى المسلمين ، لأن بعض مناقشاته كانت تدور في مجلس الخليفة .

وكان من أثر هذا كله أن تطور الفكر العربي ، فظهرت ألوان جديدة من الثقافة يمازج بعضها بعضاً ، وكانت ينباع هذه الثقافة عربية وإسلامية ودخيلة ، وصار بعض المسلمين الذين حلوا ألوية التفكير على صلة وثيقة وشبه وثيقة بهذه الثقافات ، واستعانوا بها في مجادلاتهم لليهود والنصارى وغيرهم ، وكان المعتملة أقدر المسلمين على هذه المجادلات ، لأنهم في طليعة الدارسين

الفلسفة والعلوم المختلفة ، تشغلاً بالمعرفة ، ورغبة في الإحاطة بما يعلمه خصومهم ، وليستطيعوا محاجتهم ومناظرتهم ، وليؤيدوا أصول الإسلام بأدلة ليست من القرآن والحديث يضطر أعداء الإسلام إلى التسليم بها .

لهذا قال الجاحظ^(١) : « لا يكون المتكلم جامعاً لأفطار الكلام ، متمكناً في الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلاسفة ، والعالم عندنا هو الذي يجمعهما » .

وذكر المقرئ أن المأمون بعث إلى بلاد الروم من عربوا له كتب الفلاسفة ، فقرأها المعتزلة ، وأقبلوا على تصفحها والنظر فيها ، فاشتد ساعداهم بها^(٢) .

وجاء في وصف المرتضى لواصل بن عطاء أنه ليس أحد أعلم بكلام الشيعة ومراقبة الخوارج والذهرية والمرجئة وسائر المخالفين والرد عليهم من واصل^(٣) ، وقوله إن جعفر البرمكي ذكر أرسططاليس ، فقال النظام قد نقضت عليه كتابه ، فقال جعفر : كيف وأنت لا تحسن أن تقرأه ؟ فقال أيما أحب إليك ؟ أن أقرأه من أوله إلى آخره أم من آخره إلى أوله ؟ ثم اندفع يذكر منه شيئاً فشيئاً ، وينقضه عليه ، فعجب منه جعفر^(٤) .

وذكر الشهرستاني عند قول المعتزلة بنفي الصفات القديمة أن هذه المقالة كانت في مبدأ الأمر غير نضيجة ، وكان واصل بن عطاء يذهب إلى أن من أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين ، وإنما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة ، وأنهى نظرهم إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالماً قادراً ، ثم الحكم بأنهما صفتان ذاتيتان ، أو حالان ، ومال أبو الحسن البصري إلى ردهما

(١) الحيوان ٢/١٣٤

(٢) الخطوط ٤/١٨٣

(٣) النية والأمل ١٨

(٤) المرجع السابق ٢١

إلى صفة واحدة وهى العالمية ، وذلك عين مذهب الفلاسفة ^(١) .

ومعنى هذا أن تيارات عدة من النصرانية المُفَلَّسَفة ، ومن الفلسفة المنصَّرة ، ومن اليهودية وغيرها، تسربت إلى المسلمين الباحثين ، وإلى المسلمين الذين يدافعون عن الإسلام ، أو عن رأى من الآراء المذهبية .

وهذا فى رأى كريم هو التعليل الذى يجب أن يفسر به التشابه البين الذى نلاحظه فى مظاهر المسيحية البيزنطية والتعاليم الإسلامية .

إن البحث فى كنه الله وصفاته هو أول شئ له المقام الأول فى مؤلفات آباء الكنيسة الإغريق وأقدم علماء الدين المسلمين ، وهؤلاء المسلمون شغلوا أنفسهم إلى حد كبير بالأبحاث التى تدور حول القضاء والقدر والإرادة ، مثلهم فى هذا مثل آباء الكنيسة الشرقية . ثم يفصل فون كريم رأيه بعد ذلك فى الصلات والمشابهات التى بين الكنيسة الشرقية والإغريقية فى الشام وبين المرجئة والقدرية ^(٢) .

أما فى العراق فإن التشابه قوى بين آراء المعتزلة التى غرس الحسن البصرى غراسها الأول وبين آراء النساطرة الدينية المتأثرة بالفلسفة الإغريقية ، ولهذا يقول دى بور : « هناك دلائل متفرقة على أن طائفة من المسلمين الأولين الذين قالوا بالاختيار تتلمذوا لأساندة مسيحيين ^(٣) .

وقد يعزز هذا ما قبل من أن أول من تكلم فى القدر نصرانى من العراق أسلمه ثم عاد إلى نصرانيته ، وأخذ عنه مبدأ الجهنى وعيلان الدمشقى القدرى ، وهما من المرجئة ^(٤) .

(١) الملل النحل ١ / ٥١

(٢) الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ٦٦ فوق كريم .

(٣) تاريخ الفلدة فى الإسلام ٤٩ دى بور

(٤) شرح العيون ١٦٦ لا بن نبانة وصحيح مسلم كتاب الإيمان

ويروى أن الجعد بن درهم أول من تكلم في خلق القرآن بدمشق ، ثم طلب
فهرب حتى نزل الكوفة ، فتعلم منه الجهم بن صفوان ، ويقال إن الجعد أخذ
آراءه عن أبيان بن سميان ، وأبان كان تلميذا لطلوت ، وطلوت كان تلميذا لحنيفة
ليبيد بن الأعصم اليهودي ، وكان طلوت يقول بخلق التوراة وكان زنديقا^(١) ،
وهو أول من صنف في ذلك ، ثم أظهر الجعد بن درهم هذه الآراء ، فقتله خالد
القسري بالكوفة في عهد هشام بن عبد الملك ، كما قتل في عهده غيلان الدمشقي
لأنه كان قدريا^(٢) ، وقد كان الجعد من المرجئة وهم - كما سبق - أصل المعتزلة .
ثم طالعت المعتزلة مثل أبي الهذيل العلاف والنظام ومُعَمَّر بن عباد والجاحظ
كتب الفلاسفة في زمن المأمون ، واستخرجوا منها ما خلطوه بأوضاع الشرع ،
وتشعبت مباحثهم ، وتنوعت آراؤهم ، فسميت بحوثهم بعلم الكلام^(٣) .

وقد أكد ديور أن مذاهب المتكلمين تأثرت بعوامل مسيحية أبلغ التأثير ،
فتأثرت العقائد الإسلامية في تكوينها بمذاهب الماسكانية واليعاقبة في دمشق ،
كما تأثرت في البصرة وبغداد بالمذاهب النسطورية والغنوسطية ، ولم يخلص إلينا
إلا القليل من الآثار المكتوبة المتعلقة بتلك الحركة في أوائل نشاطها ، غير أننا
لا نخطئ الصواب إذا قلنا إن اختلاط المسلمين بالمسيحيين وتلقيهم العلم عنهم في
المدارس كان له عظيم الأثر في ذلك .

ونحن نجد بين مذاهب المتكلمين الأولى في الإسلام وبين العقائد المسيحية
شبهات قويا لا يستطيع أحد معه أن ينكر أن بينهم اتصالا مباشرا ، وأول مسألة
قام حولها الجدل بين علماء المسلمين هي مسألة الاختيار ، وكان المسيحيون الشرقيون
يكادون جميعا يقولون بالاختيار^(٤) .

(١) ابن الأثير ٧ / ٢٦

(٢) سرح العيون ١٦٨ وابن الأثير ٥ / ١٩٦

(٣) الفرق بين الفرق ١٠٩ وقد العلم والعلماء ١٠٢

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام ٤٨

ولكن المعتزلة مع هذا كله كانوا يستندون أصول آرائهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنهم يستقون من واصل بن عطاء ومن عمرو بن عبيد ، وهذان أخذوا عن محمد بن علي بن أبي طالب وابنه أبي هاشم عبد الله ، وقد أخذ محمد عن أبيه علي ، وأخذ علي عن رسول الله ، ويقولون إن محمد بن علي هو الذي ربي واصل بن عطاء وعلمه وخرجه ، كما رووا أخباراً شتى تعزز مذهبهم ، منسوبة إلى أبي بكر وعمر وعثمان والحسن وابن عباس (١) .

كما أنهم أولوا الآيات القرآنية تأويلاً يوافق مذهبهم ، ويؤيدهم في الرد على مخالفهم ، وفي نقض الشبه التي أثارها خصوم الإسلام ، لأن القرآن هو القانون الذي تستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل (٢) .

أما دفاع المعتزلة عن الإسلام فقد بدأ من عهد مبكر ، منذ ردد واصل بن عطاء على مخالف مذهبهم ، وهو في الثلاثين من عمره ، وذكر عمرو الباهلي أنه قرأ الجزء الأول من كتاب ألف مسألة في الرد على المسانوية من تأليف واصل ، وأحصى في ذلك الجزء نيفاً وثمانين مسألة ، وذكر مناظرات أبي الهذيل العلاف مع الجوس والثنوية وغيرهم طويلة مفصلة ، ويقال إنه أسلم على يده أكثر من ثلاثة آلاف رجل (٣) .

وللجاحظ في هذا الميدان بلاء عظيم ، فله رسالة في الرد على النصاري (٤) ، وله كتاب في الرد على الرافضة (٥) ، وله ردود ومناقشات شتى في كتاب

(١) النية والأمل ؛

(٢) الكشاف ١ / ٤٨٨ ؛

(٣) النية والأمل ٢١ ؛

(٤) ضمن مجموعة (ثلاث رسائل للجاحظ) نشرها يوشع فستل

(٥) ذكره الجاحظ في رسالة بيان مذاهب الشيعة ١٨١ من مجموعة رسائل الجاحظ

الحيوان ، كرده على الجحوس في إنكار عذاب النار^(١) ، وردة على زرادشت في تخويف أصحابه بالبرد والثلج^(٢) ، وإبطاله لإنكار الدهرية ملك سليمان وملكة سبا^(٣) .

وللمعتزلة بعامه جهد عظيم في بعض آراء الرافضة ، يتمثل في المناظرة تارة ، وفي تأليف الرسائل والكتب تارة ، كما فعل ابن الخياط في كتابه الانتصار .

أصول المعتزلة وكيف أيدها

للمعتزلة أصول قام عليها مذهبهم^(٤) ، وقد أيدها الزمخشري بكل ما استطاع من فكر وبيان ، وأول الآيات القرآنية بما يتفق مع هذه الأصول ويؤكددها .

(١) التوحيد

المسلمون جميعا موحدون ، لا يشركون مع الله أحدا ، ولكن المعتزلة وصلوا بتوحيدهم إلى حد التفلسف ، وبنوا عليه أمورا لم يكن أحد من المسلمين يعرض لها .

فقد وجدوا في القرآن الكريم آيات تنزه الله عن المشابهة ، وآيات يدل ظاهرها على التجسيم ، ورأوا آيات تدل على أنه تعالى ليس في جهة أو مكان ، وآيات يفهم من ظاهرها الجهة والمكان .

(١) الحيوان ٥ / ٦٩

(٢) الحيوان ٥ / ٦٨

(٣) الحيوان ٤ / ٨٥

(٤) التوبة والأمل ٦ والمال والنحل ١ / ٩٩

وكان كثير من المسلمين ينزهون الله عن المائلة ، ويمسكون عن الكلام في الآيات التي يدل ظاهرها على المائلة ، مؤثرين البعد عن التأويل .

أما المعتزلة فلم يرتضوا هذا المسلك ، وجعلوا يؤولون الآيات التي يفهم من ظاهرها التجسيم أو الحلول في جهة أو مكان تأويلاً يتفق وتقر به الله سبحانه عن المشابهة ، حتى روى أن النظام ناجى ربه بقوله وهو يحتضر : اللهم إن كنت تعلم أني لم أقصر في نصر توحيدك ، ولم أعتقد مذهبا من المذاهب اللطيفة — يريد الفلسفية — إلا لأشد به التوحيد ، فما كان منها يخالف التوحيد فأنا منه بريء ، اللهم فإن كنت تعلم أني كما وصفت فأغفر لي ذنوبي ، وسهل علي سكرة الموت ^(١) .

وبنوا على هذا التوحيد كثيراً من المعتقدات .

١ — فنفعوا عن الله الصفات المستقلة القديمة ، وقالوا إنه عالم بذاته ، قادر بذاته ، حي بذاته ، وليست الحياة والقدرة والعلم صفات غير ذاته ، بل هي صفات قديمة ومعان قائمة به ، لأنها لو شاركته في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الألوهية ، وهو سبحانه منزّه عن المثل ، لأنه القديم الأزلي وما سواه محدث ، فلا يصح أن تكون له صفات أزلية منفصلة عنه ، لأن القول بها تعدد .

ولهذا سموا أنفسهم أهل التوحيد ^(٢) .

ويتصل بالتوحيد رد الصفات كلها إلى كونه عالماً قادراً ، والحكم بأنهما صفتان ذاتيتان أو اعتباران للذات القديمة أو حالان ^(٣) .

(١) الانتصار للغياط ٤١

(٢) الملل والنحل ١ / ٤٩

(٣) الملل والنحل ١ / ٥١

وذكر الشهرستاني من آراء أبي الهذيل العلاف — وهو من شيوخ المعتزلة — أنه انفرد عن أصحابه بقواعد ، منها أن البارئ تعالى عالم بعلم ، وعلمه ذاته ، قادر بقدرة ، وقدرته ذاته ، حي بحياة ، وحياته ذاته .

وعقب الشهرستاني بقوله : إنما اقتبس هذا الرأي من الفلاسفة الذين اعتقدوا أن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه ، وإنما الصفات ليست وراء الذات معاني قائمة بذاته ، بل هي ذاته ثم قال : وإذا أثبت أبو الهذيل هذه الصفات وجوها للذات ، فهي بعينها أقانيم النصارى أو أحوال أبي هاشم ^(١) .

٢ — ونفوا التشبيه عن الله سبحانه نفيًا تامًا من كل وجهة ، مكانًا وجهة وصورة وجسمًا وتميزًا وانتقالًا وتغيرًا ، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة ، وسموا هذا تأويلًا ^(٢) .

وقد حرص الزمخشري على تأويل الآيات وفق هذه العقيدة فلم يدع شبهة تعلق بها إلا محالها .

فقال في تفسير قوله تعالى : « ولما جاء موسى ليلقاينا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك ، قال لن تراني » ^(٣) :

كلمه ربه من غير واسطة كما يكلم الملك ، وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقًا به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطًا في اللوح ، وروى أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة .

وعلق ابن المنير بقوله ^(٤) : هذا تصریح منه بخلق الكلام ، كما هو معتقد المعتزلة .

(١) الملل والنحل ١ / ٥٣ يريد أن أبا هاشم قال إن العلم والقدرة حالان للذات الإلهية .

(٢) الملل والنحل ١ / ٤٩

(٣) سورة الأعراف ١٤٣

(٤) سيأتي التعريف به في قيمة الكشف وأثره

والذى يخص هذه الآية من وجوه الرد عليه أنها سبقت مساق الامتنان على موسى باصطفاء الله له وتخصيصه إياه بتكليمه ، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها : « إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ، فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » فلو كان تكليم الله له بمعنى خلق الحروف والأصوات فى بعض الأجرام واستماع موسى لذلك لكان كل أحد يساوى موسى عليه السلام فى ذلك ، بل كان آحاد أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام آثر بهذه المزية وأحق بالخصوصية من موسى ، لأنهم سمعوا الكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام وأزكاها خلقا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت مزيتهم أظهر وخصوصيتهم أوفر ، ونحن نعلم ضرورةً من سياق هذه الآية تميز موسى بهذه المزية ، فلا يجهل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى بلا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها ، وكما أجزنا من المعقول أن يرى ذات البارى وإن لم يكن جسما ، فكذلك نجهز أن يُسمع كلامه وإن لم يكن حرفا ولا صوتا^(١).

وقال فى تفسير قوله تعالى : « ثم جعلناكم فِى الْاَرْضِ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ^(٢) » : أى استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكنا ، لننظر أتعلمون خيرا أم شرا فنعاملكم على حسب عملكم .

فإن قلت : كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة ؟

قلت : هو مستعار للعلم المحقق الذى هو العلم بالشىء موجودا أشبه بنظر الناظر وعيان المعاین فى تحققه .

(١) الكشاف وما مشه ١ / ٣٤٥

(٢) سورة يونس ١٤

وعلق ابن المنير بقوله :

كنت أحسب أن الزمخشري يقتصر على إنكار رؤية العبد لله تعالى، فضم
إلى ذلك إنكار رؤية الله، واجمع بين هاتين الزعتين عقيدة طائفة من القدرية
يقولون إن الله لا يرى ولا يرى، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا^(١).
وقال في تفسير قوله تعالى «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، وذروا الذين
يأجدون في أسمائه، سيجزون ما كانوا يسمون»^(٢) :

لله أحسن الأسماء، لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك،
فسموه بتلك الأسماء، وأتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها،
فيسمونه بغير الأسماء الحسنى، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه، أو يأبوا
تسميته ببعض أسمائه الحسنى.

ويجوز أن يراد والله الأوصاف الحسنى، وهي الوصف بالعدل والخير والإحسان
وانتفاء شبه الخلق، فصفوه بها، وذروا الذين يلحدون أوصافه، فيصفونه بمشبهة
القبائح وخالق الفحشاء والمنكر وبما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوها.

وعقب ابن المنير على هذا بقوله :

لا بدع حشو العقائد الفاسدة في غير موضع، فإن بسكن المراد الأوصاف
فالحسنى منها وصف الله بعموم القدرة والانفراد بالخلوقات حتى لا يشرك معه
عباده في خلق أفعالهم، ويعظم الله تعالى بأنه لا يسأل عما يفعل، وأن كل قضائه
عدل، وأنه لا يجب عليه رعاية ما يتوهمه الخلق مصلحة بعقولهم، وأن وعده
الصدق وقوله الحق، وقد وعد رؤيته فوجب وقوعها، إلى غير ذلك من
أوصافه^(٣).

(١) الكشف وحاشيته ١ / ٤١٦

(٢) سورة الأعراف ١٨٠

(٣) الكشف وحاشيته ١ / ٣٥٨

وقال في تفسير قوله تعالى: «وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ ، والأرضُ جميعاً قبضته يومَ القيامةِ والسَّماواتُ مطوَّياتٌ بيمينِهِ ، سبحانه وتعالى عما يُشرِّكونَ»^(١) : نبههم على عظمتِهِ وجلالَةِ شأنِهِ على طريقة التخييل ، فقال «والأرضُ جميعاً قبضته يومَ القيامةِ والسَّماواتُ مطوَّياتٌ بيمينِهِ» .

والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كاهو بحملته ومجموعه تصوير عظمتِهِ ، والتوقيف على كنهه جلالة لاغير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ، وكذلك حكم ما يروى أن جبريل جاء إلى رسول الله فقال : يا أبا القاسم إن الله يمسك السماوات يومَ القيامةِ على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يهزهن فيقول أنا الملك . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجباً مما قال ، ثم قرأ تصديقاً له «وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ إلى آخر الآية» وإنما ضحك أفصح العرب وتعجب ، لأنه لم يفهم منه إلا ما لا يفهمه إلا علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة ، وأن الأفعال العظام التي تتجبر فيها الأفهام والأذهان ولا تسكت عنها الأوهام هيئة عليه هو أن لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا بإجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل ، ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السأوية وكلام الأنبياء ، فإن أكثره تخييلات قدزلت فيها الأقدام قديماً ، وما أتى الزالون إلا من قلة غلبتهم بالبحث والتنقيب ، حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدروه حق قدره لما خفي عليهم أن العلوم

كلها مفتقرة إليه وعيال عليه ، إذ لا يحل عقدتها الموربة ، ولا يفك قيودها
السكرية إلا هو .

وكم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسيم
الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة ، لأن من تأول ليس من هذا العلم في
غير ولا نصير ، ولا يعرف قبيل له من دبير .

وعقب على هذا ابن المنبر فقال :

إنما عني بما أجراه ها هنا من لفظ التخيل التمثيل ، وإنما العبارة موهمة
منكرة في هذا المقام ، لا تليق به بوجه من الوجوه ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » ^(٢) :

لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يرادف الملك جعلوه
كناية عن الملك ، فقالوا استوى فلان على العرش ، يريدون ملكاً وإن لم يقعد على
السرير البتة ، وقالوه أيضاً لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه ، وإن
كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر ، ونحوه قولك يد فلان مبسوطة ،
ويد فلان مغلولة ، بمعنى أنه جواد أو بخيل ، لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت ،
حتى إن من لم يبسط يده قط بالنوال ، أو لم تكن له يد ، قيل فيه يده مبسوطة ،
لمساواته عندهم قولهم هو جواد . وفي قول الله عز وجل : « وقالت اليهود يدُ
الله مغلولة » ^(٣) « أي هو بخيل » بل يدها مبسوطتان ^(٤) « أي هو جواد من
غير تصور يد ولا غل ولا بسط ، والتفسير بالنعمة ، والتحجج للتثنية من ضيق

(١) الكتاب وحاشيته ٢ / ٣٠٥

(٢) سورة طه ٥

(٣) سورة المائدة ٦٤

(٤) سورة المائدة ٦٤

العطن ، والبعد عن علم البيان مسيرة أعوام ^(١) .

ولم يعلق ابن المنير على هذا بشيء .

وقال في تفسير قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » ^(٢) :

أكد للمبايعة على طريق التخييل فقال (يد الله فوق أيديهم) يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله ، والله تعالى منزّه عن الجوارح ، وعن صفات الأجسام ، وإنما المعنى تقرير عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما ، كقوله تعالى : « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » ^(٣) . والمراد ببيعة الرضوان ^(٤) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » ^(٥) . القرب هنا مجاز ، والمراد قرب علمه منه ، وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقا لا يخفى عليه شيء من خفياته ، فكان ذاته قريبة منه ، كما يقال الله في كل مكان ، وقد جل عن الأمكنة ^(٦) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ^(٧) : وجه ربك : ذاته ، والوجه يعبر به عن الجملة والذات ، ومساكين مكة يقولون : أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان .

(١) الكشف ٢٠/٢

(٢) سورة الفتح ١٠

(٣) سورة النساء ٨٠

(٤) الكشف ٣٨٣/٢

(٥) سورة ق ١٦

(٦) الكشف ٤٠٢/٢

(٧) سورة الرحمن ٢٧

وقرأ عبد الله (ذی الجلال) على صفة ربك، ومعناه : الذى مُجِئُهُ الموحدون
عن التشبيه بخلقِهِ وعن أفعالهم ، أو الذى يقال له ما أجلك وأكرمك ، أو من
عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده .

وعلق ابن المنير بقوله :

المعتزلة ينكرون الصفات الإلهية التى دل عليها العقل ، فكيف بالصفات
السمعية ؟ على أن من الأشعرية من حمل الوجه واليدين والعينين على نحو ما ذكر ،
ولم ير أنها صفات سمعية ^(١) .

٣ — وأنكروا رؤية العباد لله بأبصارهم فى الآخرة ^(٢) ، لأن الجسمية إذا
انتفت انتفت الجهة ، وإذا انتفت الجهة انتفت الرؤية ، وبهذا أولوا الآيات
والأحاديث ، ونفوا بعض الأحاديث ، لأنها أخبار آحاد .

وللمخشوى فى نفي الرؤية حديث طويل ، منه ما ذكره عند تفسير قوله
تعالى : « ولما جاء موسى وكلمه ربه » ، قال رب أرني أنظر إليك ، قال لن تراني
ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلّى ربه
للجبل جمعه دكاً ، وخرّ موسى صعيقاً ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك
وأنا أول المؤمنين ^(٣) .

أرني نفسك أنظر إليك ، والرؤية عين النظر ، فكيف قال أرني أنظر إليك ؟
أى اجعلنى متمكناً من رؤيتك بأن تتجلى لى فأنظر إليك وأراك .

وإذا كانت الطلّبة هى الرؤية لا النظر الذى لا إدراك معه ، قال تعالى
(لن تراني) ولم يقل لن تنظر إلى .

(١) الكشف وحاشه ٢/٤٢٥

(٢) اللؤلؤ والنحل ١/٤٩

(٣) سورة الأعراف ١٤٣

فإن قلت : كيف طلب موسى عليه السلام ذلك ، وهو من أعلم الناس بالله وصفاته ، وما يجوز عليه وما لا يجوز ، وبتعالیه عن الرؤية التي هي إدراك بعض الحواس ، وذلك إنما يصح فيما كان في جهة ، وما ليس بجسم ولا عرض فحال أن يكون في جهة ، ومنع المجبرة إحالته في القول غير لازم ، لأنها ليست بأول مكابرتهم وارتكابهم ، وكيف يكون طالبه وقد جاء في السورة نفسها : « واختار موسى قومه سبعين رجلاً نبياتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال : رب لو شئت أغناكتهم من قبل وإياي ، أتأسفنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء ، وتمهدي من تشاء ، أنت ولينا ، فأغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين » ^(١) فتبرأ من فعلهم ، ودعاهم سفهاء وضلالاً ؟

قلت : ما كان طلب الرؤية إلا لبيكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً وتبرأ من فعلهم ، وليلقمهم الحجر ، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ، ونههم على الحق ، فلجوا وتمادوا في لجاجهم ، وقالوا لا بد ، ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك ، ليقتبنوا ، وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة ، فلذلك قال ربني أنظر إليك ، وإذا كان في هذا الرذجر لموسى عما طلب ، وإنكار عليه في نبوته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى كانوا هم أولى بالإنكار .

وجاء النفي بـ « لن » تأكيد النفي في المستقبل كقوله تعالى « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » ^(٢) ، فقوله « لا تدركه الأبصار » ^(٣) « نفى الرؤية فيما يستقبل ، (ولن تراه) تأكيد وبيان ، لأن النفي مضاف لصفاته . فإن قامت : كيف اتصل الإدراك في قوله (ولكن انظر إلى الجبل) بما قبله ؟

(١) سورة الأعراف ١٥٥

(٢) سورة الحج ٧٣

(٣) سورة الأنعام ١٠٣

قلت : اتصل به على معنى أن النظر إلى محال فلا تطلبه ، ولكن عليك
بنظر آخر ، وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم
كيف أفعل به ، وكيف أجعله دكاً بسبب طلبك الرؤية ، لتعظم ما أقدمت عليه
بما أريك من عظم أثره ، فإنه عز وعلا حقق عند طلبك الرؤية مأمثله عند نسبه
الولد إليه في قوله : « وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ^(١) »

وقد علق وجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين
يدكه ويسويه بالأرض

وهذا كلام مدمج بعضه في بعض وارد على أسلوب عجيب ونمط بدیع ،
ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك ، ثم كيف بنى
الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية ،
أعنى قوله « فإن استقر مكانه فسوف تراه » فلما تجلى ربه للجبل ، وظهر له
اقتداره ، وتصدى له أمره وإرادته ، جعله مذكوكاً ، وخر موسى مفشياً عليه من هول
ما رأى ، فلما أفاق من صعقته قال : سبحانك أنزهك عما لا يحوز عليك من الرؤية
وغيرها ، تبّت من طلب الرؤية ، وأنا أول المؤمنين بأنك لست بمترى ولا مدرك
بشيء من الحواس .

فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية ، وكيف أرجف الجبل
بطالبيها ، وجعله دكاً ، وكيف أصعقهم ، ولم يخل كلمه موسى من نفيان ذلك
مبالغة في إعظام الأمر ، وكيف سبح ربه ملتجئاً إليه ، وتاب من إجراء تلك
السكامة على لسانه ، وقال أنا أول المؤمنين .

ثم تعجب من التسمين بالإسلام للتسمين بأهل السنة والجماعة كيف

اتخذوا هذه العظيمة مذهبا ، ولا يعترفك تسترهم بالبلسكة^(١) ، فإنه من منصوصات أشياخهم ، والقول ما قال بعض العدلية فيهم :

لجماعة سموا هوام سنة وجماعة حُرّ عمرى موكفة
ولقد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلسكة^(٢)
ولم يرتض أهل السنة هذا الرأى ، فردوا عليه .

قال أبو زكريا يحيى بن عظام - من تلمسان - فى رده على هذين البيتين :

قل للذى سمى الهداة أولى النهى حُرّ الآن سباب الهدى والمعرفة
فعدا يُرجح الاعتزال جهالة ويروقه زور الضلال وزخرفة
سوّفت ذم جماعة سنّية قد أحرزوا من كل فضل أشرفه
هم شيعة الحق الذى ما بعده إلا مهابوى فى الضلالة متبلفه

وقال القاضى أبو حفص بن عمر فى هذا أيضاً :

أجهلتم صفة الإله وفعله ونسبتموه لغيره بالزخرفة
وأردتم تنزيهه فدفعتم فى الشرك والإلحاد والأمر السفة
خالقتم سنن النبى وصحبه وتبعتم فى الزيف أهل الفلسفة^(٣)
وعلق ابن التبر قولاه :

ما أشد ما اضطرب كلامه فى هذه الآية ، لأن غرضه أن يدحض الحق بالضلالة ، ويشين بسكفه وجه الغزالة . هيهات ، قد تبين الصبح لدى عينين ، فالحق أبلغ لا يمازجه ريب إلا عند ذى ربّين .

(١) البلسكة : يريد أنهم يقولون إن الله يرى بلا كيفية

(٢) السكشاف ٣٤٦/١

(٣) الرحلة القروية ٢٠

أما حظ العقول من إجازة رؤية الله تعالى فوظيفة علم الكلام ، وأخصر وجه في إجازة ذلك أن الوجود مصحح الرؤية ، بدليل أن جواز الرؤية حكم يستدعي مصححا ، وقد شمل الجواز والجوهر ولا جامع بينهما يمكن جعله مصححا سوى الوجود ، وإذا كان الوجود هو المصحح فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده .

وأما استبعاد أن يرى ما ليس في جهة فأمر وهمي مثله عرض للمعطلة ، فعميت أبصارهم حتى أنكروا موجودا إلا في جهة ، ومن اتبع الأوهام اغتسق مهامه الضلال وهام ، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة المرنى لكانت المعرفة تتوقف على جهة المعروف ، ولا خلاف أنه سبحانه يُعرّفُ لا في جهة ، فكذلك يُرى لا في جهة ، فالحق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه ، لعله يجوز ذلك على الله تعالى .

والقدرية يحرّمهم الطمع حتى يروموا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقدهم ، وما هم حينئذ إلا عن آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها .

وأما قول موسى : « أَتُهَنِّئُكُمْ بِمَا فَعَلَ الشَّيْطَانُ بِكُمْ ؟ » تَبَرُّؤاً من أفعالهم ، وتسقيها لهم وتضليلا لرأيهم ، فلا راحة للقدرية في الاستشهاد به على إنكار موسى لجواز الرؤية ، فإن الذي كان الإهلاك بسببه إنما هو عبادة العجل في قول أكثر المفسرين .

ثم إن كان السبب طلبهم الرؤية فليس لأنها غير جائزة على الله ، ولكن لأن الله تعالى أخبر أنها لا تقع في دار الدنيا ، والخبر صدق ، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية ، فما سألوا وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها كان طلبهم خلاف

المعلوم تكذيباً للخبر ، فمن ثم سفههم موسى وتبرأ من طلب ما أخبر الله أنه لا يقع .

ولو كان سؤالهم عن الرؤية قبل إخبار الله تعالى بعدم وقوعها فإنما سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة وتوقيفهم الإيمان عليها حيث قالوا لن تؤمن لك حتى ترى الله جبهة ، ألا ترى أن قولهم : « لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً »^(١) إنما سألوا فيه جائزاً ، ومع ذلك قرعوا به لاقتراحهم . على الله ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه .

فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الزمخشري بعين الهوى ، وعمايته عن سبيل الهدى . وأما زعمه أن موسى طلب الرؤية لهم ، فإنه مردود بأنه لو كان طلب الرؤية لهم حتى إذا سمعوا منع الله تعالى لها أيقنوا أنها ممنوعة لكان طلبها عبثاً غير مفيد ، لأن هؤلاء لا يخلو أمرهم إما أن يكونوا مؤمنين بموسى أو كفاراً به ، فإن كانوا مؤمنين به فإخباره بإيمان بأن الله تعالى لا يرى ولا يجوز عليه ذلك كاف في حصول المقصود من غير حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من الله أن يريه ذاته على علم بأن ذلك محال ، وإن كانوا كفاراً بموسى فلا يحصل الغرض من ذلك أيضاً ، لأن الله إذا منعه مسئوله فإنما يثبت ذلك لهم بقول موسى عن الله تعالى إنه ممنوع ذلك ، وهم كفار بموسى ، فكيف يفيدهم غيره عن الله بامتناع ذلك ؟

فهذا أوضح مصداق لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه اعتقاداً بجوازها ، فأخبر الله أن ذلك لا يقع في الدنيا ولم كان جائزاً .

أما قوله إن (لن) تؤكد النفي فإنها كذلك ، ولكن استنباطه منافاة الرؤية لحال الباري عز وجل ، واستشهاده على أنها تشعر باستحالة النفي عنها

عقلا ، مردود بكثير من الآيات ، كقوله تعالى : « قل لن تخرجوا معي أبداً »^(١) فذلك لا يحيل خروجهم عقلا ، وقوله : « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن »^(٢) و : « لن تتبّعونا »^(٣) فهذه كلها جائزات عقلا ، لولا أن الخبر منع من وقوعها ، فالرؤية كذلك .

وأما قوله إن الله حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه ، فإنه مفرغ على المعتقد السالف بطلانه ، وليس له في هذا الفصل وظيفة إلا تتبع الشبه لامتناع الرؤية تلقفها من كل فج .

والحق أن ذلك الجبل إنما كان لأن الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء ، ولا تستقر الدنيا من إظهار شيء من ملكوت السماء ، وهذا هو المأثور عن السلف في هذه الآية ، ومعناه عند أبي الحسن (الأشعري) رحمه الله فعل فعلا سماه تجليا ، وكان الغضب إما لأنهم طلبوا رؤية جسمانه في جهر ، وإما لأنهم كتموا الخبر بأنه لا يرى في الدنيا ، وإما لأنهم كفروا بالاقتراح أو بالجموع .

وأما قوله إن الله تعالى علق وجود الرؤية على وجود ما لا يكون من استقرار الجبل ، فإنه من حيل القدرية في إحالة الرؤية ، يقولون قد علقها الله على شرط محال وهو استقرار الجبل حال دكه ، والعلق على الحال محال . وهذه حيلة باطلة ، فإن المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار ، وذلك ممكن وجائز ، وتعلق العلم لا يغير المعلوم ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع ولا العكس ، وحينئذ يتوجه دليلا لأهل السنة فنقول إن استقرار الجبل ممكن ،

(١) سورة النوبة ٨٣

(٢) سورة مود ٣٦

(٣) سورة الفتح ١٥

وقد علق عليه وقوع الرؤية ، والمعاق على الممكن ممكن ، والمعتزلة يعتقدون أن خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقدورا ، ونحن نقول مقدورا ، ولكن الشيئة لم تتعلق بإيجاده .

وأما توبة موسى وتسبيحه فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا .

ثم ختم رده بأنه مضطر إلى أن ينافع عن أصحاب سنة ، رسول الله كما نافع حسان بن ثابت أعداء رسول الله ، وذكر هذه الآيات المناقضة لبيتي الزمخشري :

وجاعة كفرا برؤية ربهم حقا ، ووعد الله مالن يخلفه

وتلقبوا عدلية قلنا أجل عدلوا بربهم فحسبهم منه

وتلقبوا الناجين كلا إناهم إن لم يكونوا في لقل ففعل شفه^(١)

وقال في تفسير قوله تعالى : « لا تدركه الأبصار » ، وهو يدرك الأبصار ،

وهو اللطيف الخبير »^(٢) البصر هو الجوهر اللطيف الذي ركبته الله في حاسة

النظر ، به تدرك المبصرات ، فالعنى أن الأبصار لا تتعلق به ، ولا تدركه ، لأنه

متعال أن يكون مبصرا في ذاته ، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلا

أو تبعاً كالأجسام والبهائم ، وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر

اللطيفة التي لا يدركها مدرك ، وهو يلطف عن أن تدركه الأبصار ، الخبير بكل

لطيف ، فهو يدرك الأبصار^(٣) .

وعلق ابن المنير على هذا بقوله :

يريد الزمخشري من الإدراك الإحاطة ، ومنه « حتى إذا أدركته

(١) هامش الكشاف ٣٤٦/١

(٢) سورة الأنعام ١٠٣

(٣) الكشاف ٣٠٥/١

«الغرق»^(١) أى أحاط به ، و «إننا لا نرى كون»^(٢) أى محاط بنا ، فلمننى إذاً عن الأبصار إحاطتها به عز وعلا ، لا مجرد الرؤية . ثم إما أن يقتصر على أن الآية لا تدل على مخالفتنا أو تزيد فنقول : يدل لنا أن تخصيص الإحاطة بالنفى يشعر بطريق المفهوم بثبوت ما هو أدنى من ذلك وأقله مجرد الرؤية ، كما أنا نقول لا تحيط به الأفهام وإن كانت المعرفة بمجرد ما حاصله لسكل مؤمن ، فالإحاطة للعقل متفية كنى الإحاطة للحس ومادون الإحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للحس ثابت غير منفى .

ولم يذكر الزمخشري على إحالة الرؤية عقلا دليلا ولا شبهة ، فيحتاج إلى القدر فيه ، ثم معارضته بأدلة الجواز ، ولكنه اقتصر على استبعاد أن يكون المرئى لا فى جهة ، فيقتصر معه على إلزامه استبعاد أن يكون الموجود لا فى جهة ، إذ اتباع الوهم يبعدها جميعا ، والالتقياد إلى العقل يبطل هذا الوهم ويجيزها معا^(٣) .

وقال فى تفسير قوله تعالى : «وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ»^(٤) : تنظر إلى ربها خاصة ، واختصاصهم بالنظر إليه محال ، فوجب جملة على معنى يصح معه الاختصاص ، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس أنا إلى فلان ناظر ما يصنع لى ، تريد معنى التوقع والرجاء ، ومنه قول القائل :

وإذا نظرت إليك من ملك والبحرُ دونك زِدْتَنِي نَعْمًا
والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم ، كما كانوا فى الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه^(٥) .

(١) سورة يونس ٩٠

(٢) سورة الشعراء ٦١

(٣) هامش الكشاف ٣٠٥/١

(٤) سورة النبا ٢٢

(٥) الكشاف ٥٠٩/٢

٥ - واقضى نعيمهم للصفات الأزلية ومنها الكلام أن يدينوا بأن القرآن كلام الله خلقه بعد أن لم يكن ، حتى لا يشاركه شيء في القدم ^(١) . وقد اعتقد الخليفة السامون هذا الرأي ، وحل الناس على أن يدينوا به ، وعذب كثيرا من العلماء مثل أحمد بن حنبل ، ووجه كتابا إلى إسحاق بن إبراهيم سنة ٢١٨ هـ يأمره فيه أن يمتحن القضاة في خلق القرآن ، ليقر منهم على منصبه من يوافق رأى الخليفة ، ثم ليأمرهم بقبول شهادة من يدين به ، ورفض شهادة من لا يدين به ^(٢) .

وما زال الخلاف بين المعتزلة والسنية محتدما حتى ظهر الأشعرى (المتوفى سنة ٣٣٠ هـ) فذهب إلى أن كلام الله يطلق إطلاقين كما هو الشأن في الإنسان ، فيسمى الإنسان متكلما باعتبارين : أحدهما بالصوت والآخر بكلام النفس الذي ليس بصوت ولا يحرف ، وهو المعنى القائم بالنفس المعبر عنه بالألفاظ . وانتقل من هذا إلى أن كلام الله يطلق بهذين الإطلاقين ، المعنى النفسى وهو القائم بذاته ، وهو الأزلى القديم وهو لا يتغير بتغير العبارات ، وهذا هو الذى يطلق عليه كلام الله حقيقة ، أما القرآن بمعنى المقروء المكتوب فهو كما يقول المعتزلة حادث مخلوق ^(٣) .

ثم جاء الزمخشري فدافع عن عقيدة المعتزلة ، فقال في تفسير قوله تعالى : « قل اجتمعوا إلى الإنسان والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ^(٤) .

والعجب من الثوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم ، مع اعترافهم بأنه معجز ، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة فيقال الله قادر على خلق الأجسام

(١) اللؤلؤ والنحل ١/٩٩

(٢) تاريخ الطبري ١٠/٢٤٨

(٣) ضحى الإسلام ٣/٢٢ - ٤٤

(٤) سورة الإسراء ٨٨

والعباد عاجزون عنه ، وأما الحال الذى لا محال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثنائى القديم ، فلا يقال للفاعل قد عجز عنه ، ولا هو معجزة ، ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز ، لأنه لا يوصف بالقدرة على الحال ، إلا أن يكابروا فيقولوا هو قادر على الحال ، فإن رأس ما هم المكابرة وقلب الحقائق .
وعلى ابن المنير بقوله :

مما يدل على حيد الزمخشري عن سنن الإنصاف أنه تدّس على الضعف في مثل هذه المسألة التى طبقت الأرض ظهوراً وشيوفاً ، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل عن معتقد القوم ، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة قائمة بذات البارئ تعالى يطلق عليها قرآن ويطلق أيضاً على أدائها وهى هذه الكلمات الفصيحة والآى الكريمة قرآن ، وأن المعجز عندهم الدليل لا المدلول ، لكنهم يتحززون من إطلاق القول بأنه مخلوق لوجهين : أحدهما أنه إطلاق موهوم ، والثانى أن السلف الصالح كفوا عنه ، فافتقوا آثارهم ، واقتبسوا أنوارهم ، وكم من معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره مما لا يجوز اعتقاده ، فلا ربط بين الاعتقاد والإطلاق ، ولا إكرام لمعتقد ذلك والمتعنت بالزامة ^(١) .

(٢) العدل

من الأصول المهمة للمعتزلة وصف الله تعالى بالعدل ، كما وصفوه بالوحدانية ، ولهذا سمو أنفسهم أهل العدل والتوحيد .

وإذا كان المعتزلة قد شعبوا مباحثهم فيما يتصل بالتوحيد فإنهم قد تعمقوا فيما يتصل بالعدل ، وشققوا منه عدة مباحث :

١ — قالَ اللهُ سبحانه وتعالى عادل ، والظلم منفي عنه ، قال تعالى : « وما ربك بظلام للعبيد » ^(١) وقال تعالى : « فما كانَ اللهُ ليظلمَهُمْ وَلَسكنَ كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلُونَ » ^(٢) .

٢ — وهو سبحانه يريد لعباده خير ما يكون .

٣ — ولا يريد الشر ولا يأمر به .

وذلك أن يريد الخير خيراً ، ومريد الشر شريراً ، فلو كانت إرادة الله متعلقة بكل ما في العالم من خير وشر لكان الخير والشر مرادين له ، فيكون المريد موصوفاً بالخيرية وبالشرية ، وذلك محال على الله .

ولهذا قالوا إن الله أراد ما كان من الأعمال خيراً أن يكون ، وما كان شراً ألا يكون ، وما لم يكن خيراً ولا شراً فهو تعالى لا يريد ولا يكرهه ، ومعنى هذا أن الله يريد لما أمر به من الطاعات أن يكون ، فهو يريد منا الصلاة والزكاة ، ولا يريد منا المعاصي ، وأما المباحات فلا يريد ولا يكرهها .

وأما غير المعتزلة فيعتقدون أن الله يريد لجميع ما كان ، غير مرید لما لم يكن ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وينبئ على هذا أن كفر الكفار وعصيان العصاة لم يرد الله في رأى المعتزلة ، وأراده في رأى غيرهم .

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى « إن شرَّ الدوابِّ عند الله الضمُّ البكم » الذين لا يعقلون ، ولو عليم الله فيهم خيراً لأنتمعههم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » ^(٣) .

(١) — سورة فصلت ٤٦ .

(٢) — سورة الروم ٩ .

(٣) — سورة الأنفال ٢٢ .

إن شر من يدب على الأرض أو إن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه ، ولو علم الله في هؤلاء الصم البكم انتفاعاً باللفظ للطف بهم حتى لا يسمعوا سماع الصديقين ، ولو لطف بهم لما نفع فيهم اللطف ، فلذلك منعهم إلفافه ، أو ولو لطف بهم وصدقوا لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا .

وعلق ابن المنير بقوله :

إطلاق القول بأن الله تعالى يالطف بالعبد فلا ينفع لطفه مردود ، فإن اللطف هو إبداء الجليل والإلطاف به ، واسمه اللطيف من ذلك ، فإذا أسدى الجليل إلى العبد بأن أسعده إسماع لطف به فتلك الغاية المرجوة ، ومعنى اللطف به على هذا أن يخلق في قلبه قبول الحق وحسن الإصغاء إليه والاهتداء به ، ولكن لا يتم ذلك على عقيدة الاعتزال والرأى الفاسد في خلق الأفعال ، لأن مقتضاها أن العبد هو الذى يخلق لنفسه قبول الحق والهداية وحسن الاستماع والإصغاء ، وأن الله تعالى لا يشارك العبد في خلق ذلك ، بل الذى ينسب إلى الله تعالى إرادة الهداية من جميع الخلق ، ولا يلزم حصول مراده على العموم ، ولو تنزل متنزل على هذه القاعدة لما استقام تأويل الرخصى أيضاً ، فإن حاصله ولو علم الله فيهم خيراً للطف بهم ، ولو لطف بهم لما انتفعوا باللفظ ، فيلزم عدم انتفاعهم باللفظ على تقدير علم الله الخير فيهم ، وهذا غير مستقيم ، لما يلزم عليه من وقوع خلاف المعلوم لله تعالى ، وذلك محال عقلاً .

فلا يرتفع الإشكال إلا بتقدير الإسماع الواقع جواباً أولاً ، خلاف الإسماع الواقع شرطاً ثانياً ، كيلا ينكروا الوسط فيلزم المحال المذكور ، وأقرب وجه في اختلاف الإسماعين أن يراد بالأول ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم إسماعاً يخلق

لهم به الهداية والقبول، ولو أستمعهم إستماعاً مجرداً من ذلك لتولوا وهم معرضون ،
فهذا هو الوجه في تأويل الآية^(١) .

٤ — ولم يخلق الله أفعال العباد لآخرها ولا شرأ ، وإنما يعملون أعمالهم
أحراراً ، فيثابون على الخير ويعقبون على الشر .

٥ -- وانتهوا من هذا إلى نظرية الصلاح والأصلح ، ومعناها أن الله
يقصد من أعماله نفع عباده وصلاحهم . وذهب بعض المعتزلة إلى أن رعاية الله
لمصالح عباده واجب عليه ، ولم يكتف بعضهم بهذا فقالوا إن الواجب عليه رعاية
الأصلح .

وقد وافقهم في جوهر الفكرة بعض المعتزلة ، واسكنهم عابوا عليهم تعبيرهم
بالوجوب ، ورأوا أن الأقرب إلى الأدب التعبير بأن هذا هو القانون أو النظام
الذي يقصد الله إليه في أعماله .

وخالفهم فريق كبير ، ورأوا أن أفعال الله ليست معللة بفرض ، وليس
الباعث عليها غاية ، بدليل أن في العالم شروراً كثيرة ومفارقات شتى ، كال فقر
والمرض ، ولا يمكن تفسير ما فيها من المصلحة .

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : « وعلى الله قصد السبيل ، ومنها
جائر » ، ولو شاء لهذا كم أجمعين »^(٢) :

معناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه ، كقوله « إن علينا
للهدى »^(٣) فإن قلت : لم غير أسلوب الكلام في قوله (ومنها جائر) ؟

(١) الكشف وحاشيته ١/ ٢٧٠

(٢) سورة النحل ٩

(٣) سورة الليل ١٢

قلت : ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السببain وما لا يجوز ، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقليل : وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها أو وعليه الجائر .
وقرأ عبد الله (ومنكم جائر) يعنى ومنكم جائر عن القصد بسوء اختياره والله يرى منه .

ولو شاء الله لهذا كم أجمعين قسرا .

وعلق ابن المنير على رأى الزمخشري بقوله :

أين يُذهب به عن تنمة الآية ، وذلك قوله تعالى : « ولو شاء لهذا كم أجمعين » ولو كان الأمر كما تزعم القدرية لكان الكلام : وقد هداكم أجمعين . وما كنهم إلا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض . فإن ذهبوا إلى تأويل الهداية بالقر والإجاء فما كنهم إلا يحرفون الكلم عن مواضعه .

وأما المخالفة بين الأسلوبين فلأن سياق الكلام لإقامة حجة الله تعالى على الخلق بأنه بين السبيل القاصد والجائر ، وهدى قوما اختاروا الهدى ، وأضل قوما اختاروا الضلالة لأنفسهم . وقد تقدم فى غير موضع أن كل فعل صدر على يد العبد فله اعتباران : فهو من حيث كونه موجودا مخلوق لله تعالى ومضاف إليه بهذا الاعتبار ، وهو من حيث كونه مقترنا باختيار العبد له ، وبتأنيده له ، وتيسره عليه ، يضاف إلى العبد ، وإن تعدد هذين الاعتبارين ثابت فى كل فعل ، فناسب إقامة الحجة على العباد إضافة الهداية إلى الله تعالى باعتبار خلقه لها ، وإضافة الضلال إلى العبد باعتبار اختياره له .

والحاصل أنه ذكر فى كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المذكورة فى الآخر ؛ ليناسب ذلك إقامة الحجة البالغة^(١) .

وقال الرمحشمى فى تفسير قوله تعالى : « فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَرُ ، فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى » ^(١) :

فإن قلت : فلم خلق الله العجل من الخلق حتى صار فتنة لبنى إسرائيل وضالاً ؟ قلت : ليست بأول محنة محن الله بها عباده ، ليثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ، ومن عجب من خلق العجل فليكن من خلق إبليس أعجب ^(٢) .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » ^(٣) :

إذا كانت عادة الملوك والجبابرة ألا يسألهم من فى مملكتهم عن أفعالهم وعمائيرهم ويصدرون من تدبير ملكهم ، تهيباً وجلالاً ، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب وخالقهم ورازقهم أولى بالأسأل عن أفعاله ، مع ما علم واستقر فى العقول من أن ما يفعله كله معقول بدواعى الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح ^(٤) .

وعلق ابن المنير بقوله :

سحقاً لها من لفظة ما أسوأ أذنبها مع الله تعالى ، أعنى قوله دواعى الحكمة ، فإن الدواعى والصوارف إنما تستعمل فى حق المحدثين ، كقولك هو مما توفر دواعى الناس إليه أو صوارفهم عنه .

وأما قولك لا يجوز عليه فعل القبائح فهل تقول إن أحداً شريك الله فى ملكه يفعل ما يشاء من الأفعال التى تسميها قبائح فتنتفيها عن قدرة الله تعالى

(١) - سورة ملة ٨٨

(٢) - الكشف ٣٢/٢

(٣) - سورة الأنبياء ٢٣

(٤) - الكشف ٤٣/٢

وإرادته ، وما الفرق بين من يشرك الله ماسكاً من الملائكة وبين من يشرك نفسه بربه حتى يقول إنه يفعل ويخلق لنفسه ، شاء الله أم لم يشأ ؟

والقدرة ارتضوا لأنفسهم شركاً ، لأن غيرهم أشرك بالملائكة ، وهم أشركوا بنفوسهم وبالشياطين والجن وجميع الحيوانات ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى :

« ولولا أن يكونَ الناسُ أمةً واحدةً لجعلنا لمن يَكْفُرُ بالرحمنِ آيوتِهِمْ سِقْفًا من فضةٍ ومعارجَ عليها يَظهرون ، وليبوتَهُمْ أبواباً وسُرراً عليها يتكئون وزخرفاً ، وإن كلُّ ذلكَ لَمَّا مَتاعُ الحياةِ الدنيا ، والآخرةُ عِندَ ربِّكَ للمتقين ^(٢) » :

فإن قلت : فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسيع عليهم من إطباق الناس على الكافر ، لحبهم الدنيا ومهالكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟

قلت : التوسعة عليهم مفسدة أيضاً ، لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا ، والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين ، فكانت الحسكة فيما دبر ، حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء ، وغلب الفقر على الغنى .

وقد علق ابن القيم على هذا بقوله : السؤال والجواب مبنيان على قاعدتين فاسدتين :

إحداهما تعليل أفعال الله تعالى ، والأخرى أن الله تعالى أراد الإسلام من

الخلق أجمعين ، أما الأولى فقد أخرس الله السائل عنه بقوله : « لا يسألُ عما يفعل وهم يسألون ^(١) » .

وأما الثانية فقد كفى الله المؤمنين الجواب بقوله : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ^(٢) » .

وقال في تفسير قوله تعالى : « هو الذي خلقكم فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمن ^(٣) » :

نعم إن العباد هم الفاعلون للكفر ، ولكن قد سبق في علم الحكيم أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره ، فما الذي دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يسكون منهم ؟ .

وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحد ؟
قلت : قد علمنا أن الله حكيم عالم بقبيح القبيح ، وعالم بفناه عنه ، فقد علمنا أن أفعاله كلها حسنة ، وخلق فاعل القبيح من أفعال الله ، فوجب أن يكون حسناً ، وأن يكون له وجه حسن ، وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح في حسنه ، كما لا يقدح في حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعي الحكمة إلى خلقها ^(٤) .

٦ — كذلك انتهوا إلى نظرية الحسن والقبح ، ومعناها أن الحسن والقبح في الأعمال ذاتيان ، ففي الصدق حسن ذاتي ، وفي الكذب قبيح ذاتي ، ولهذا لم يميزوا على الله الكذب لما فيه من قبيح ، وقالوا إنه لا بد أن يصدق ، لأن الصدق حسن في ذاته .

(١) سورة الأنبياء ٢٣

(٢) سورة يونس ٩٩ والكشاف ٣٥١/٢

(٣) سورة النفاق ٢

(٤) الكشاف ٤٦٣/٢

وبنوا على هذا أن الشرع يأمر بأشياء، وينهى عن أشياء، وفقاً لما فيها من حسن أو قبح، والعقل يستحسن أشياء، ويستقبح أشياء، لأنه يدرك ما في الحسنة من حسن، ويدرك ما في القبيحة من قبح، وليس التحسين والتقبيح راجعين إلى أمر الشرع ونهيه، بل هما راجعان إلى الشيء ذاته وإدراك العقل لحقيقته، فالشرع في تحسينه وتقبيحه مُحْبِزٌ لا منشيء، والعقل في إدراكه يُبْذِي ولا يوجد. واستدلوا على هذا بأن الناس كانوا قبل الشرائع يتجأون إلى عقولهم، فيستحسنون إنقاذ الغرقى مثلاً، ويستقبحون العدوان، وبأن الرسل دعوا الناس إلى تصديقهم والنظر في معجزاتهم للإيمان بشرائعهم، وفي هذا تأكيد لسبق العقل، وبأن الفقهاء اجتهدوا في أمور شرعية لم يرد فيها نص، وعللوا بالأحكام، وهذا من عمل العقل المعتمد على الحسن والقبح الذاتيين.

وأما غير المعتزلة فذهبوا إلى أن الحسن ما أمر به الشرع، والقبيح ما نهى عنه الشرع، لأن الشرع مثبت لا محذور، وليس هناك شيء حسن لذاته أو قبيح لذاته، فالحسن والقبح قد يتخالفان، فيكون القتل حسناً مرةً وقبيحاً مرةً، ولو كان الحسن أو القبح ذاتياً ما تبدل حكمه، وقد يكون الشيء حسناً في زمن وقبيحاً في آخر، والشرائع نفسها تبيح أشياء لقوم وتحرمها على آخرين، وتشرع أموراً لقوم، وتشرع غيرها لسواهم، فلو كان الحسن والقبح ذاتيين ما تغير التشريع^(١).

قال المرحوم شري في تفسير قوله تعالى: «لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل»^(٢): كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل، وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التي يوصل النظر فيها إلى المعرفة، والرسل في أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر في تلك الأدلة، ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها؟

(١) ضحى الإسلام ٣/٥٠

(٢) سورة النساء ١٦٥

قلت : الرسل منبهون من الغفلة ، وباعثون على النظر ، كما يرى علماء أهل العدل والتوحيد ، مع تبليغ ما حلتوه من تفصيل أمور الدين ، وبيان أصول التكليف ، وتعليم الشرائع ، فكان إرساؤهم إزاحة للعلة ، وتتمية للإلزام الحجة ، لئلا يقولوا ، لولا أرسلت إلينا رسولا فيوقظنا من سِنَّة الغفلة ، وينبهنا لما وجب الانتباه له .

وعلق ابن المنير بقوله : قاعدة المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين تجرمهم وتجبرهم على إثبات أحكام الله تعالى بمجرد العقل وإن لم يبعث رسولا ، فيوجبون بعقولهم ، ويحرمون ويبيحون على وفق زعمهم . ومما يوجبونه قبل ورود الشرع النظر في أدلة المعرفة ، ولا يتوقفون على ورود الشرع الموجب ، ولهذا يزعمون أن من ترك النظر في الأدلة قبل ورود الشرع فقد ترك واجبا استحق به التمديب ، وقد قامت الحجة عليه في الوجوب وإن لم يسكن شرع . وإذا تليت عليهم هذه الآية صمت آذانهم ، وقالوا إن الرسل تنعم حجة الله ، وتنبه على ما وجب قبل بعثها بالعقل ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وما كان الله ليضلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ » ^(٢) :

يعنى ما أمر الله باتقائه واجتنابه ، كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه ، وبين أنه محظور لا يؤخذ به عبادة الذين هدام للإسلام ، ولا يسميهم ضلالا ، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم ، وعليهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب ، وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، كما لا يؤخذون بشرب الخمر ولا بيع الصاع بالصاعين قبل التحريم .

فأما ما يعلم بالعقل كالصدق في الخبر، ورد الودعة، فغير موقوف على التوقيف.
وعلق ابن المنير على هذا بقوله :

هذا تقريع على قاعدة التحسين والتقبيح، وأن العقل حاكم الشرع، كما شئت
لما تمحض عليه ، تابع لمقتضاه ، وهذه القاعدة قد سبق بطلانها في غير موضع ^(١)
وقال في تفسير قوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها
وتقواها » ^(٢) :

معنى إلهام الفجور والتقوى إلهامهما وإعاقلها ، وأن أحدهما حسن والآخر
قبيح ، وتمكينه من اختيار ما شاء منها ، بدليل قوله : « قد أفلح من زكّاها ،
وقد خاب من دساها » فجعله فاعل التزكية والتدسية ومتوليها .

وأما قول من زعم أن الضمير في زكّى ودسّى لله تعالى ، وأن تأنيث
الراجع إلى (من) لأنه في معنى النفس ، فمن تنكيس القدرية - يريد الجبرية -
الذين يوركون على الله قدرأ هو برىء منه ، ومتعال عنه ، ويحيون ليااليهم في
تحل فاحشة ينسبون لها إليه .

وعلق ابن المنير على هذا بقوله :

وفي هذا الكلام نوعان من الباطل : أحدهما في قوله معنى إلهام الفجور
والتقوى إلهامهما وإعاقلها ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، والذي يمكنه
في هذه الكلمات اعتقاد أن الحسن والقبح مدركان بالعقل . ألا ترى إلى قوله
إعاقلها ، أي خلق العقل الموصل إلى معرفه حسن الحسن وقبح القبيح ، وإنما
اغتم في هذا فرصة إشعار الإلهام بذلك ، فإنه ربما يظن أن إطلاقه على العلم
للاستفاد من السمع بعيد .

(١) الكشف وهاهنا ١/١٠٤

(٢) سورة الشمس ٧ - ٨

والذى يقطع دابر هذه النزعة أنا وإن قلنا إن الحسن والقبح لا يدركان إلا بالسمع ، لأنهما راجعان إلى الأحكام الشرعية التى ليست عندنا بصفات الآفل ، فإننا لانفى حظ العقل من إدراك الأحكام الشرعية ، بل لا بد فى علمه كل حكم شرعى من المقدمة العقلية وهى الموصلة إلى العقيدة ، والمقدمة السمعية للفرقة عليها ، وهى الدالة على خصوص الحكم . على أن تعلقه بظاهر — لو سلم ظهوره — فى قاعدة قطعية بمنزل عن الصواب .

النزعة الثانية (وهى تكلم عن أفعال العباد)^(١)

(٣) حرية العباد

دان المعزلة بحرية العباد فى أعمالهم ، بغير توجيه من إرادة الله وقدرته ، ولهذا ينيهم الله عليها أو يعاقبهم ، فلا جبر ولا اضطرار ، لأن الله تعالى منزّه عن الفساد ، وعن خلق أفعال العباد ، فهم يفعلون أفعالهم بالقدره التى خلقها الله فيهم ، وهو لم يأمرهم إلا بما أراد ، ولم ينهمهم إلا عما كره ، ولو شاء لأجبرهم على طاعته ، ومنعهم من معصيته ، لأنه القادر .

وهذا هو السبب فى أنهم سموا أنفسهم أهل العدل .

لكن خصومهم أطلقوا عليهم القدرية أحياناً ، لأنهم وافقوا القدرية الذين كانوا قبلهم فى القول بحرية العبد وقدرته واختياره ، وأطلقوا عليهم الجهمية أحياناً ، لأنهم وافقوا الجهمية فى نفى الصفات ، وفى القول بخلق القرآن ، وإن خالفهم فى الحرية والاختيار^(٢) .

(١) الكشف وعامته ٥٤٦/٢

(٢) الجهمية أتباع جهم بن صفوان كان يقول بالجبر ، ويحرد الإنسان من الاختيار والقدرة ، ويؤمن أنه يثب أو يعاقب على أعماله جبراً ، وإنما تنسب الأفعال إليه على سبيل الخاز كما تنسب إلى الجراد ، يقال جرى الماء وتحرك الهواء وأثمرت الشجرة ومثلت الشمس ، =

لسكن المعتزلة يبرأون من تسميتهم قدسية أو جهمية ، ويردون على التسمية الأولى بأنهم ينفون القدر ، وغيرهم يثبتونه ، فهم أولى بأن ينسبوا إليه .

ويتبرأ من الجهمية بشر بن المعتز أحد زعماء المعتزلة بقوله :

ننفيهم عنا ولنسأ منهم ولاهم منا ولا نرضاهم

إمامهم جهنم ومالجهن وصحب عمروذى التقي والعلم^(١)

وأدلة المعتزلة على مذهبهم شعور الإنسان بالفرق بين الحركة الاختيارية والاضطرارية ، فالأولى مرادة والثانية غير مرادة ، ودليل آخر أنه لولا الحرية لبطل التكليف وانتهى الأمر والنهى والثواب والعقاب ، ودليل ثالث أن بالقرآن آيات كثيرة تؤكد هذه الحرية .

وكان من خصومهم الجبرية الذين ذهبوا إلى أن الإنسان مجبر ، فهو والجماد سواء ، وإذا كانت الأفعال تنسب إليه فإنه مجاز .

وقد نشأ الخلاف نفسه قبل الإسلام بين فلاسفة اليونان ، فذهب الأبيقوريون إلى أن الإنسان حر مختار ، وذهب الرواقيون إلى أنه مجبر لا اختيار له ، كما كان هذا الخلاف من مباحث الزرادشتية ثم المسيحية .

وقد دان المعتزلة بالحرية ، ودافعوا عن مذهبهم ، وتأولوا الآيات القرآنية المخالفة له .

ثم جاء أبو الحسن الأشعري فتوسط بين مذهبي المعتزلة والجبرية ، واخترع

== ومن مذهبه أنه لا يجوز وصف الله بصفة يوصف بها خلقه ، لأن هذا يقتضى تشبيهها ، فنفى جهم كونه حيا عالما وأثبت كونه قادرا فاعلا خالقا ، لأنه لا يوصف أحد من خلقه بالقدرة والفعل والخلق . وكان جهم من موالى خراسان أقام بالكوفة ودعا إلى مذهبه ، وكان وزيرا فجارت بن سريج ، فلما خرج الحارث على بني أمية حاربوه وهزموه وأسروا جهم وقتلوه (الملل والنحل ٧٩/١)

(١) محرو بن عبيد أحد رؤساء المعتزلة الأولين

ماتجاه الكسب ، وهو الاقتران العادى بين القدرة المحدثه (أى قدرة الإنسان)
والفعل ، فأنه تعالى أجرى العادة بمخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته لا بقدرة
العبد وإرادته ، وهذا الاقتران هو الكسب . وقال آخرون إن أفعال العباد
تضاف إلى الله باعتبار أنه أقدرهم عليها ، وخلق القدرة فيهم ، وتضاف إلى
العبد باعتبار أنه هو المصرف لأعماله بقدرته الحرة التى خلقها الله له ^(١) .

وإذا كان الزمخشري يدين بهذه الحرية فإنه لم يدع آية من القرآن الكريم
تتصل بالجبر أو الاختيار الا أولها وفق مذهبه .

قال فى تفسير قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا » ^(٢) :
لا تبطلنا ببلايا تزيع فيها قلوبنا بعد إذ أرشدتنا لدينك ، أو لا تمنعنا إطفائك
نعم إذ اطفئت بنّا .

وعلى ابن المنير بقوله :

أما أهل السنة فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرفة ، لأنهم يوحّدون حق
التوحيد ، فيعتقدون أن كل حادث من هدى وزيع مخلوق لله تعالى .

وأما القدرية فعندهم أن الزيع لا يخلق الله تعالى ، وإنما يخلق العبد نفسه ،
فلا يدعون الله تعالى بهذه الدعوة إلا محرفة إلى غير المراد بها كما أولها المصنف ،
وإن كما ندعو الله تعالى مضافا إلى هذه الدعوة ألا يبتلىنا ولا يمتنعنا لطفه . لأن
الكل فعله وخلق ولا موجود إلا هو وأفعاله التى نحن وأفعالنا منها ^(٣) .

(١) ضحى الإسلام ٤٤/٣ — ٦١ وعلم الأخلاق لأرسطو ٢٦٥ ترجمة أحمد لطفي
البيد وزادته الحكيم ٨٤ حامد عبد القادر

(٢) سورة آل عمران ٨

(٣) الكشف وعامته ١٣٥ / ١

وقال في تفسير قوله تعالى : « ومن يُرد الله فتنه فلن تمّلك له من الله شيئاً » ^(١) :

ومن يرد الله فتنه تركه مفتوناً ، فلن تملك له من الله شيئاً ، ولن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئاً ، أولئك الذين لم يرد الله أن يمنحهم من إطفافه ما يطهرون به قلوبهم ، لأنهم ليسوا من أهلها ، لعلمه أنها لا تنفع فيهم ولا تنفع ، كقوله تعالى : « إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله » ^(٢) وقوله : « كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم » ^(٣) .

وعلق ابن المنير بقوله :

هذه الآية منطبقة على عقيدة السنة في أن الله تعالى أراد الفتنه من المفتونين ، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنه ووضر الكفر ، لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى ما أراد الفتنه من أحد ، وأراد من كل أحد الإيمان وطهارة القلب ، وأن الواقع من الفتن على خلاف إرادته ، وأن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد ، ولكن لم يقع .

فحسبهم هذه الآية وأمثالها لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر البدع ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ وما أبشع صرف الزمخشري هذه الآية عن ظاهرها بقوله لم يرد الله أن يمنحهم أطفافه ، لعلمه أن أطفافه لا تنفع فيهم ولا تنفع ، وإذا لم تنفع أطفاف الله تعالى ولم تنفع فلفظ من ينفع وإرادة من تنفع ^(٤) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله

(١) سورة المائدة ٤١

(٢) سورة النحل ١٠٤

(٣) سورة آل عمران ٨٦ والكشاف وهامشه ٢٥٦/١

(٤) هامش الكشاف ٢٥٦/١

وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ
إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ » ^(١) :

لَا تَلُومُونِي حَيْثُ اغْتَرَّيْتُمْ بِي ، وَأَطَعْتُمُونِي إِذْ دَعَوْتُكُمْ ، وَلَمْ تَطِيعُوا رَبَّكُمْ
إِذْ دَعَاكُمْ ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ الشَّقَاوَةَ أَوْ السَّعَادَةَ
وَيَحْصِلُهَا لِنَفْسِهِ ، وَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا التَّسْكِينُ وَلَا مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا التَّرْبِيزُ ، وَلَوْ
كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُ الْمَجْبُورَةُ لَقَالَ فَلَا تَلُومُونِي وَلَا تَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَضَى
عَلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَأَجْبَرَكُمْ عَلَيْهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَوْلُ الشَّيْطَانِ بَاطِلٌ لَا يَصِحُّ التَّعَلُّقُ بِهِ .

قُلْتَ : وَلَوْ كَانَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُ بَاطِلًا لَبَيَّنَ اللَّهُ بَطْلَانَهُ ، وَأُظْهِرَ إِسْكَارَهُ ،
عَلَى أَنَّهُ لَا طَائِلَ لَهُ فِي الدُّعْوَ بِالْبَاطِلِ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ : « إِنْ
اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ » كَيْفَ آتَى فِيهِ بِالْحَقِّ وَالصِّدْقِ ؟
وَفِي قَوْلِهِ : « وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ » وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنْ
عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » ^(٢) .

وَعَلَى ابْنِ الْمُبَرِّقِ بِقَوْلِهِ :

نَحْنُ مَعَاشِرُ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمُتَقَبِّينَ عِنْدَهُ بِالْمَجْبُورَةِ نَقُولُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا أَوْرَدَ
هَذَا الْكَلَامَ غَيْرَ رَادٍّ لَهُ وَلَا مُحْطٍ عَلَيْهِ فِيهِ الشَّيْطَانُ ، كَمَا قَصَّ كَلَامَ الْكُفَرَاءِ فِي
الآيَةِ الْأُولَى كَذَلِكَ . وَنَحْنُ نَعْتَقِدُ أَنَّ الْمَلَامَةَ إِنَّمَا تَتَوَجَّهُ عَلَى الْمَكْلُوفِ ، وَأَمَّا اللَّهُ
تَعَالَى فَمُقَدَّسٌ عَنْ ذَلِكَ ، لِأَنَّا نَعْتَرِفُ بِمَا خَلَقَهُ اللَّهُ لِلْعَبِيدِ مِنَ الْإِخْتِيَارِ الَّذِي يَجْزِيهِ
مِنْ نَفْسِهِ عِنْدَ تَجَاوُبِ طَرَفِي الْأَفْعَالِ الْإِرَادِيَّةِ ، وَبِذَلِكَ قَامَتِ الْحُجَّةُ لَهُ عَلَى

(١) - سورة إبراهيم ٢٢

(٢) - سورة الحجر ٢٢ : الكشاف ٥٠٣/١

خلقه وإن سلبنا قدرة الخلق تأثيرها في الفعل ، فلا تناقض إذاً بين عقيدة السنة وبين صرف الملامة إلى المكلف ^(١).

وقال في تفسير قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » ^(٢) :

يعنى لا يضطرهم إلى أن يكونوا أهل ملة واحدة وهى ملة الإسلام ، لقوله : « إن هذه أمتكم أمة واحدة » ^(٣) ، وهذا الكلام يتضمن نفي الاضطراب ، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق ، ولكنه مكنهم من الاختيار الذى هو أساس التكليف ، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل ، فاختلقوا ، ولذلك قال : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم ، فانفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه ^(٤).

وقال في تفسير قوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دساها » ^(٥) :

معنى إلهام الفجور والتقوى إلهامها وإعقابها وتمكينه من اختيار ما شاء منهما ، بدليل قوله : « قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دساها » فجعله فاعل التزكية .

وسئل ابن عباس عنه فقال أنقرأ : « قد أفلح من تركى » ^(٦) « وقد خاب من حل ظلم » ^(٧) . وأما قول من زعم أن الضمير في زكى ودسى لله تعالى ، وأن تأنيث الراجع إلى (من) لأنه في معنى النفس ، فمن تعكيس القدرية — يريد الجبرية —

(١) هامش الكشف ١/٥٠٣

(٢) سورة هود ١١٨

(٣) سورة المؤمنون ٥٢

(٤) الكشف ١/٤٥٧

(٥) سورة الشمس ٧ — ١٠

(٦) سورة الأعلى ١٤

(٧) سورة طه ١١١

الذين يوركون على الله قدراً هو برىء منه ، ومتعال عنه ، ويحيون لياليهم في
تمحل فاحشة ينسبونها إليه ^(١) .

وعلق ابن المنير على هذا بالرد على أن الحسن والقبح مدركان بالعقل . ثم
قال إن التزكية وقسيمها ليسا مخلوقين لله تعالى بل لشركائه المعزلة ، وإنما نعارضه
في الظاهر من لحوى الآية ، على أنه لم يذكر وجهها في الرد على من قال إن
الضمير لله تعالى ، وإنما اقتصر على الدعوى مقرونة بسفاهة على أهل السنة ،
فنقول لا مرأى في احتمال عود الضمير إلى الله تعالى وإلى ذى النفس ، لكن
عوده إلى الله تعالى أولى لوجهين : أحدهما أن الجمل سبقت سياقة واحدة من
قوله : « والسما وما بناها » والضمائر فيها تقدم هذين الفعلين عائدة إلى الله تعالى
بالإتفاق ، ولم يجر تغير الله ذكر ، وإن قيل يعود الضمير إلى غيره فإنها يتمحل
لجوازه بدلالة الكلام ضمنا واستلزاما لا ذكرا ومنطقا ، وما جرى ذكره أولى
أن يعود الضمير عليه .

والثاني أن الفعل المستعمل في الآية التي استدل بها في قوله : « أفلح من
تركى » وهو (تفعل) لا شك أن تفعل مطاوع ففعل ، فهذا بأن يدل لنا أولى من أن
يدل له ، لأن الكلام عندنا نحن قد أفلح من تركاه الله فتركى ، وعنده الفاعل
في الاثنين واحد أضاف إليه الفعلين المختلفين ، ويحتاج في تصحيح الكلام
إلى تعديد اعتبار وجه ، ونحن عنه في غيبة .

على أنا لا نأبى أن تضاف التزكية والتدسية إلى العبد على طريقة أنه الفاعل ،
كما يضاف إليه الصلاة والصيام وغير ذلك من أفعال الطاعات ، لأن له عندنا
اختياراً وقدرة مقارنة ، وإن منعنا البرهان العقلي الدال على وحدانية الله تعالى
ونفى الشريك أن نجعل قدرة العبد مؤثرة خالقه ^(٢) .

(١) السكشاف ٥٤٦/٢

(٢) هامش السكشاف ٥٤٦/٢

(٤) الوعد والوعيد

أراد المعتزلة بالوعد والوعيد أن الله صادق في وعده ووعيده ، فقد وعد المتقين الجنة ، وأوعد المشركين والعصاة النار ، وهو سبحانه لا يخلف وعده ولا وعيده ، فمن نجا فبفعله استحق الثواب ، ومن خسر فبفعله استحق العقاب ، فالثواب والعقاب قانون حتمي التزم الله تعالى به .

وإذا مات المسلم المعاصي قبل التوبة يخلد في النار ، ولا تنفع فيه شفاعته . وهم بهذا يخالفون المرجئة ، لأن هؤلاء ذهبوا إلى أن الله لا يخلف وعده ولكنه قد يخلف وعيده ، لأن الثواب فضل من الله لا بد أن يفي به ، وإلا كان خلف الوعد نقصاً ، أما العقاب فعدل ، والله أن يعفو أو يخفف العقوبة ، وليس في هذا نقص .

كما أن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار ، لأنه عمل خيراً هو إيمانه ، وارتكب شراً هو كبريته ، فيعاقب على كبريته ، ويثاب على إيمانه . فلننظر تأويل الزمخشري للآيات المتصلة بهذا الخلاف .

قال في تفسير قوله تعالى : « إِنْ لَمْ يَغْفِرْ أَنْ يُشْرِكْ بِهِ ، وَيَغْفِرْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » ^(١) : قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب منه ، وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة فما وجه هذه الآية ؟

الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعاً موجهين إلى قوله تعالى : « مَنْ يَشَاءُ » ، كأنه قيل إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك ، على أن المراد بالأول من لم يتب ، وبالثاني من تاب .

ونظيره قولك إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء ، تريد
لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله ، ويبذل القنطار لمن يستأهله .

وعلق ابن المنير بقوله :

عقيدة أهل السنة أن الشرك غير مغفور أبته ، وما دونه من الكبائر
مغفور لمن يشاء الله أن يغفره له ، هذا مع عدم التوبة ، وأما مع التوبة فكلاهما
مغفور . وهذه الآية وردت فيمن لم يتب ولم تذكر فيها توبة ، فلذلك أطلق
الله تعالى في مغفرة الشرك ، وأثبت مغفرة ما دونه مقرونة بالمشيئة ، فهذا وجه
انطباق الآية على عقيدة أهل السنة .

وأما القدرية فإنهم يظنون التسوية بين الشرك وبين ما دونه من الكبائر في أن
كل واحد من النوعين لا يغفر بدون التوبة ، ولا شاء الله أن يغفرهما إلا للتائبين ،
فإذا عرض الزمخشري هذا المعتقد على هذه الآية ردت ونبت عنه ، إذ المغفرة
منفية فيها عن الشرك وثابتة لما دونه ، مقرونة بالمشيئة .

فأما أن يكون المراد فيهما من لم يتب فلا وجه للتفصيل بينهما بتعليق
للمغفرة في أحدهما بالمشيئة وتعليقها بالآخر مطلقا ، إذ هما سيان في استحالة المغفرة .

وأما أن يكون المراد فيهما التائب فقد قال في الشرك إنه لا يغفر ،
والتائب من الشرك مغفور له ، وعند ذلك أخذ الزمخشري بقطع أحدهما
عن الآخر ، فيجعل المراد مع الشرك عدم التوبة ، ومع الكبائر التوبة ،
حتى ينزل الآية على وفق معتقده ، فيحملها أمرين لا تحتمل واحدا منهما ،
أحدهما إضافة التوبة إلى المشيئة وهي غير مذكورة ولا دليل عليها فيما ذكر ،
ولو كانت مرادة اسكانت هي السبب الموجب للمغفرة على زعم القدرية عقلا ،
ولا يمكن تعلق المشيئة بخلافها على ظنهم في العقل ، فكيف يليق السكوت عن
ذكر ما هو العمدة والموجب ، وذكر ما لا يدخل له على هذا المعتقد الرديء ؟

الثاني أنه بعد تقريره التوبة احتكم فقدرها على أحد القسمين دون الآخر ، وما هذا إلا من جعل القرآن تبعاً للرأى ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ومن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً » ^(٢) :

هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ ، ومن ثم روى عن أبي عباس أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة ، وعن سفيان : كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا لا توبة له ، وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد ، وإلا فكل ذنب محوٌّ بالتوبة ، وناهيك بمحو الشرك دليلاً .

وفي الحديث : لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم وفيه
والعجب من قوم يقرأون هذه الآية ، ويسمعون هذه الأحاديث وقول ابن عباس بمنع التوبة ، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم وما يخيل إليهم مناهم أن يطعموا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟

فإن قلت : هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر ؟

قلت : ما أبين الدليل وهو تناول قوله : « ومن يقتل » أى قاتل كان ، من مسلم أو كافر ، تائب أو غير تائب ، إلا أن التائب أخرجه الدليل ، فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله .

وعلق ابن المنير بقوله :

كفى بقوله تعالى في هذه السورة « إن الله لا يغفر أن يُشركَ به ، ويغفر

(١) الكشف وعامته ٢٠٨/١

(٢) سورة النساء ٩٣

ما دون ذلك لمن يشاء » دليل أبلج على أن القاتل الموحد وإن لم يقب فأمره إلى الله إن شاء آخذه ، وإن شاء غفر له .

وأما نسبة أهل السنة إلى الأشعبية فذلك لا يضيرهم ، لأنهم إنما تطفلوا على لطف أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، ولم يقنطوا من رحمة الله ، إنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الظالمون ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يُقبل منها شفاعَةٌ ، ولا يُؤخذُ منها عدلٌ » ، ولا هم يُنصرون ^(٢) :

فإن قلت : هل فيه دليل على أن الشفاعَة لا تقبل للعصاة ؟

قلت : نعم ، لأنه نفي أن تقضى نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك ، ثم نفي أن يقبل منها شفاعَة شفيعة ، فلم أنها لا تقبل للعصاة .

فإن قلت : الضمير في (منها) إلى أي النفسين يرجع ؟

قلت : إلى الثانية العاصية غير الجزى عنها ، وهي التي لا يؤخذ منها عدل ، ومعنى لا يقبل منها شفاعَة إن جاءت بشفاعَة شفيعة لم يقبل منها ، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها ، كما لا تجزى عنها شيئاً ، ولو أعطت عدلاً عنها لم يؤخذ منها ^(٣) .

وعلق ابن المنير على هذا بقوله :

أما من جحد الشفاعَة فهو جدير ألا ينالها ، وأما من آمن بها وصدقها وهم أهل السنة والجماعة فأولئك يرجون رحمة الله ، ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين ، وإنما ادخرت لهم ، وليس في الآية دليل لمنكرها ، لأن قوله

(١) الكشاف وهامشه ٢٢١/١

(٢) سورة البقرة ٤٨

(٣) الكشاف ٥٥/١

(يوماً) أخرجه منكراً ، ولا شك أن في القيامة مواطن ، ويومها معدود بخمسين ألف سنة ، فبعض أوقاتها ليس زماناً للشفاعة ، وبعضها هو الوقت الموعود ، وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه الصلاة والسلام ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ، لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » ^(٢) :

هما شريطان : أن يكون المتكلم منهم مأذوناً له في الكلام ، وأن يتكلم بالصواب ، فلا يشفع لغير مرتضى ، لقوله تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » ^(٣) .

وعلق ابن المنير بقوله :

يعرض بأن الشفاعة لا تحمل على مرتكبي الكبائر من الموحدين ، وقد صرح بذلك في مواضع تقدمت ، ويذهب إلى أنها مخصوصة بالمرتضين ، وذوو الكبائر ليسوا مرتضين ، ومن ثم أخطأ ، فإن الله عز وجل ما خصهم بالإيمان والتوحيد وتوفاهم عليه إلا وقد ارتضاهم ، بدليل قوله تعالى : « وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ . وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ » ^(٤) فجعل الشكر بمعنى الإيمان المقابل لل كفر مرضياً لله تعالى ، وصاحبه مرتضى ^(٥) .

(٥) المنزلة بين المنزلتين

دخل رجل على الحسن البصري فقال : يا إمام الدين لقد ظهرت في زمننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر هم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب

(١) هامش الكشاف ١ / ٥٤

(٢) سورة النبأ ٢٨

(٣) سورة الأنبياء ٢٨ والكشاف ٢ / ٥٢٠

(٤) سورة الزمر ٧

(٥) هامش الكشاف ٢ / ٥٢٠

الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ، ولا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، هم مرجئه الأمة ، فكيف تحكم لنا في ذلك ؟

فذكر الحسن ، وقبل أن يجيب قال تلميذه واصل بن عطاء : أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين . ثم قام واعتزل إلى أسطوانة بالمسجد ، وجعل يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسمى هو وأصحابه معتزلة .

وقد دار خلاف كبير دائم حول وصف مرتكبي الكبيرة ، فالحسن رأى أنه متافق ، وواصل بن عطاء ذهب إلى أنه في منزلة بين الكفر والإيمان ، وتابعه على رأيه عمرو بن عبيد ، والمرجئة وصفوه بأنه مؤمن ، والأزارقة وصفوه بأنه كافر ، وأهل السنة قالوا إنه فاسق ^(١) .

ودليل المعتزلة أن الإيمان اجتماع التصديق والاعتقاد القلبي وأداء الواجبات ، فمن صدق بأن الله واحد وأن محمداً رسوله ، ولم يتم بالفرائض لم يكن مؤمناً ، لأنه لم يستكمل خصال الخير .

وبني المعتزلة على رأيهم هذا أن للمعاصي قسمين : كبائر وصغائر ، واختلفوا في تعريف كل منهما ، وإن كان أكثرهم على أن الكبيرة ما أتى فيها وعيد ، والصغيرة ما لم يأت فيها وعيد ، وقالوا إن بعض الكبائر تصل إلى حد الكفر ، فمن شبه الله بخلقه أو نسب إليه الظلم أو كذبه في خير ، فقد كفر .

وهناك كبائر أقل منها منزلة ، يسمى مرتكبها فاسقاً ، والفسق منزلة بين

الكفر والإيمان ، ولهذا فإن الفاسق ليس مؤمنا وليس كافرا ، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين ^(١) .

وعلى هذا الرأي أول الزمخشري بعض الآيات

١ — فمن تأويله للآيات المتصلة بالمنزلة بين المنزلتين أنه قال في تفسير قوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ » ^(٢) : الإيمان الصحيح أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ويصدق به عمله . فمن أخل بالاغتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق ، ومن أخل بالشهادة فهو كافر ، ومن أخل بالعمل فهو فاسق .

وعلق ابن المير بقوله : إنه أراد بالفاسق غير المؤمن وغير الكافر ، وهذا من الأسماء التي سماها القدرية ، وما أنزل الله بها من سلطان .

ومعتقد أهل السنة أن الموحدة الذي لا خلل في عقيدته مؤمن وإن ارتكب الكبائر ، وهذا الصحيح لغة وشرعا . أما لغة فإن الإيمان هو التصديق ، وهو مصدق ، وأما شرعا فأقرب شاهد عليه هذه الآية ، فإنه لما عطف فيها العمل الصالح على الإيمان دل على أن الإيمان معقول بدونه ، ولو كان العمل الصالح من الإيمان لكان العطف تكرارا ^(٣) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » ^(٤) :

لما لم يسمعوا قول المشيط ، وأخلصوا النية والعزم على الجهاد ، وأظهروا

(١) الملل والنحل ١/٢٠٢

(٢) سورة البقرة ٣

(٣) الكشاف وهامشه ١٧/١

(٤) سورة آل عمران ١٧٣

حمية الإسلام ، كان ذلك أثبت ليقينهم ، وأقوى لاعتقادهم ، كما يزداد الإيقان بتناصر المحجج ، ولأن خروجهم على أثر التثبيط إلى وجهة العدو طاعة قطعية ، والطاعات من جملة الإيمان ، لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل .

وعن ابن عمر : قلنا يا رسول الله هل الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار .

وعن عمر رضى الله عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول : قم بنا نردد إيماناً . وعنه : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به ^(١) .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « وبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ، وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » ^(٢) :

إن الله ذكر المؤمنين الأبرار وذكر الكفار ، ولم يذكر الفسقة ، لأن الناس حينئذ إما مؤمن تقى وإما مشرك ، وإنما حدث أصحاب المنزل بين المنزلتين بعد ذلك ^(٣) .

٣ — ومن تأويله للآيات المتصلة بالكبائر والصغائر أنه قال فى تفسير قوله تعالى : « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » ^(٤) :

المعنى هو الذى بقى نفسه تعاطى ما يستحق من العقوبة من فعل أو ترك ، واختلف فى الصغائر ، وقيل الصحيح أنه لا يتناولها ، لأنها تقع مكفرة عن مجتنب الكبائر ^(٥) .

(١) الكشاف ١/١٧٦

(٢) سورة الإسراء ٩ — ١٠

(٣) الكشاف ١/٤١٠

(٤) سورة البقرة ٢

(٥) الكشاف ١/١٦١

وعلق ابن النير بقوله : من تمى القدرية على الله تعالى اعتقادهم أن الصغائر محوثة عنهم ما اجتنبوا الكبائر ، وأنه يجب أن يعفو الله عنها لاجتناب الكبائر ، كما يجب عندهم ألا يعفو عن مرتكب الكبائر ، وهذا هو الخطأ الصراح والحادة آيات الله البينات وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم الصراح .

والحق أن غفران الصغائر وإن اجتنب الكبائر موكل إلى المشيئة ، كما أن غفران الكبائر موكل إليها أيضا .

ومن لا يعتقد ذلك وهم القدرية يضطرون إلى الوقوف عند قوله تعالى : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَمْثَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » ^(١) فإنه ناطق بالمواخذة بالصغائر ، ويتحيزون عند قوله تعالى : « إِنْ اللَّهُ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ جَمِيعًا » ^(٢) فإنه يصرح بمغفرة الكبائر .

أما أهل السنة فقد ألفوا بين هاتين الآيتين بقوله تعالى : « إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ يُغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » ^(٣) فإن التقييد بالمشيئة في هذه يقضى على الآيتين المطلقتين ^(٤) :

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنْ رَبُّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » ^(٥) .

أى مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب ، ومحله الحال ، بمعنى ظالمين لأنفسهم . وفيه أوجه : أن يريد السيئات المكفرة لاجتناب الكبائر ، أو يريد الكبائر بشرط التوبة ، أو يريد بالمغفرة السر والإمهال .

(١) سورة الزلزلة ٧ — ٨

(٢) سورة الزمر ٥٣

(٣) سورة النساء ١١٦

(٤) هامش الكشف ١٦/١

وروى أنها لما نزلت قال النبي عليه الصلاة والسلام : لولا عفو الله وتجاوزته ما هنت أحد العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد^(١).

وعلق ابن المنير بقوله : الوجه الحق بقاء الوعد على إطلاقه ، إلا حيث دل الدليل على التقييد في غير الموحدة، فإن ظلمه أعنى شركه لا يغفر، وماعدا الشرك فغفرانه في المشيئة، والزمخشري يبنى على عقيدته التي وضع فسادها استحالة الغفران لصاحب الكبائر وإن كان موحدا إلا بالتوبة، فيقيد مطلقا، ويحجر واسعا^(٢).

وقال في تفسير قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم »^(٣) :

يعنى بشرط التوبة ، وقد تكرر هذا الشرط في القرآن ، فكان ذكره في مواضع مغنيا عن عدم ذكره في مواضع ، لأن القرآن في حكم كلام واحد ، ولا يجوز فيه التناقض . وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود « يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء » والمراد بمن يشاء من تاب ، لأن مشيئة الله تابعة لحكمه وعدله لا لمسلكه وجبروته . وقيل في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وفاطمة رضي الله عنها « يغفر الذنوب جميعا ولا يبالي » ونظير نفي المبالاة نفي الخوف في قوله تعالى : « ولا يخاف عقباها »^(٤).

ثم ذكر ما قيل في أسباب نزول الآية^(٥) :

وقال في تفسير قوله تعالى : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ »

(١) الكشاف ٤٨٩/١

(٢) هامش الكشاف ٤٨٩/١

(٣) سورة الزمر ٥٣

(٤) سورة الشمس ١٥

(٥) الكشاف ٣٠٢/٢

عنكم سَيِّئَاتِكُمْ»^(١) : الكبيرة والصغيرة إنما وصفنا بالكبر والصغر بإضافتهما إما إلى طاعة أو معصية أو ثواب أو عقاب فأعلهما^(٢).

وقال في تفسير قوله تعالى : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ »^(٣) :

الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر ، والكبائر الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة ، وقيل التي يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها . والفواحش ما فحش من الكبائر ، كأنه قال والفواحش منها خاصة ، واللمم ما قل وصغر من الذنوب ، وعن أبي سعيد الخدري : اللمم هو النظرة والغمزة والقبلة ، وعن السدي الخطرة من الذنب ، وعن الكلبي كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا ولا عذابا .

والله واسع المغفرة ، حيث يكفر الصغائر باجتنايب الكبائر ، ويكفر الكبائر بالتوبة^(٤) .

(٦) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

رأى المعتزلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على المسلمين ، كما رأى غيرهم .

ولكنهم ذهبوا إلى الاختصار على القلب إن كفى ، فإن لم يكف القلب فباللسان ، فإن لم يغن القلب واللسان فباليد ، فإن لم تنفع اليد فبالسيف^(٥) .

(١) سورة النساء ٣١

(٢) الكشاف ١/٢٠٢

(٣) سورة النجم ٣٣

(٤) الكشاف ٢/٤١٨

(٥) الملل والنحل ١/٤٩ ومروج الذهب ٢/١٩٠

قال الزمخشري إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، لأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف ونهى عن المنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في أوقاته، وكيف يبشره، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وقد يغفل في موضع اللين ويأين في موضع الغلظة، ويفكر على من لا يزيد إنكاره إلا تمادياً، أو على من الإنكار عليه عبث.

والأمر بالمعروف تابع للأمر به، إن كان واجباً فواجب، وإن كان ندباً فنadb، وأما النهي عن المنكر فواجب كله، لأن جميع المنكر تركه واجب، لا تصافه بالقبح. وشرط الوجوب أن يغلب على ظنه وقوع المعصية، نحو أن يرى الشارب قد سبهاً لشرب الخمر بإعداد آلاته، وألا يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة، ويبتدىء في إنكاره بالسهل، فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب، لأن الغرض كف المنكر

فمن رأى غيره تاركاً للصلاة وجب عليه الإنكار، وأما ما يحتاج إلى قتال فإنما يقوم به من في استطاعته القتال، كالإمام وخلفائه، لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها^(١).

ثانياً - مذاهب فقهاء

عرض الزمخشري لسائل فقهية كثيرة ، ولكنه لم يقتصر على مذهبه الحنفى ، بل أورد الأحكام فى المذاهب الأخرى ، وكان أحياناً يرجع مذهب الشافعى على مذهب أبى حنيفة .

وهذه أمثلة مما ذكره :

١ - قال تعالى : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ^(١) » .

الهدى هدى المتعة وهو نسك عند أبى حنيفة ، وبأكل منه ، وعند الشافعى يحرى بحرى الجنائيات ولا يأكل منه .

ويذبحه يوم النحر عندنا ، وعنده يجوز ذبحه إذا أحرم بحجته ، فمن لم يجد الهدى فعليه صيام ثلاثة أيام فى وقت الحج ، وهو أشهر ما بين الإحرامين لإحرام العمرة وإحرام الحج ، وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله ، والأفضل أن يصوم يوم التروية وعرفة ويوما قبلهما ، وإن مضى هذا الوقت لم يجزئه إلا الدم ، وعند الشافعى لا تصام إلا بعد الإحرام بالحج ، تمسكاً بظاهر قوله (فى الحج وسبعة إذا رجعتم) بمعنى إذا فرتم وفرغتم من أفعال الحج عند أبى حنيفة ، وعند الشافعى هو الرجوع إلى أهاليهم ^(٢) .

٢ - وقال تعالى :

« وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ^(٣) »
 الأيام المعدادات أيام التشريق ، وذكر الله فيها والتكبير فى أدبار الصلوات وعند رمى الجمرات . (فى يومين) بعد يوم النحر يوم النفر ، وهو الذى يسميه

(١) سورة البقرة ١٩٦

(٢) الكشف ١/٩٣

(٣) سورة البقرة ٢٠٣

أهل مكة يوم الرؤوس ، واليوم بعده ينفر إذا فرغ من رمي الجمار كما يفعل الناس اليوم ، وهو مذهب الشافعي . وروى عن قتاده ، وعن أبي حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر (ومن تأخر) حتى رمى في اليوم الثالث ، والرمي في اليوم الثالث يجوز تقديمه على الزوال عند أبي حنيفة وعند الشافعي لا يجوز ^(١) .
 ٣ — وقال تعالى : « ويسألونك عن الحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء في الحيض » ^(٢) .

بين الفقهاء خلاف في الاعتزال ، فأبو حنيفة وأبو يوسف يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار ، ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج ، وروى محمد حديث عائشة رضي الله عنها أن عبد الله بن عمر سأها : هل يباشر الرجل امرأته وهي حائض ؟ فقالت : تشد إزارها على سفلتها ، ثم ليباشرها إن شاء ، وماروى زيد بن أسلم أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما يحل لي من امرأتي وهي حائض ؟ قال : لتشدها عليها إزارها ثم شأنك بأعلاها . ثم قال : وهذا قول أبي حنيفة ، وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة ، قالت : يحتنب شعار الدم وله ما سوى ذلك ^(٣) .

٤ — وقال تعالى : « والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوَاطِينَ كَامِلِينَ »
 لمن أراد أن يُتِمَّ الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف... ^(٤) «
 يجب على الأب إرضاع الولد دون الأم ، وعليه أن يتخذ له ظفرا ، إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه ، وهي مندوبة إلى ذلك ، ولا تجبر عليه ، ولا يجوز استئجارها عند أبي حنيفة ما دامت زوجة أو معتدة من نكاح ، وعند الشافعي يجوز ، فإن انقضت عدتها جاز بالانفاق ^(٥) .

٥ — وقال تعالى : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » ^(٦) .

(١) الكشف ٩٧/١

(٢) سورة البقرة ٢٢٢

(٣) الكشف ١٠٣/١

(٤) سورة البقرة ٢٣٣

(٥) الكشف ١٠٩/١

(٦) سورة البقرة ٢٨٢

اطلبوا أن يشهد لكم شهداء على الدين من رجال المؤمنين ، والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام عند عامة العلماء ، وعن علي رضي الله عنه : لا تجوز شهادة العبد في شيء ، وعند شريح وابن سيرين وعثمان البتي أنها جائزة . ويجوز عند أبي حنيفة شهادة الكفار بعضهم على اختلاف الملل (١) .

٦ - قال تعالى : « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » (٢) .

فسر رسول الله الاستطاعة بالزاد والراحلة ، وكذا عن ابن عباس وابن عمر ، وعليه أكثر العلماء ، وعن ابن الزبير هو على قدر القوة .

ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه ، وروى عنه أن ذلك على قدر الطاقة .

وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر ، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة .

وعن الضحاك إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع ، وقيل له في ذلك ، فقال إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ بل كان ينطلق إليه ، فكذلك يجب عليه الحج (٣) .

٧ - وقال تعالى :

«وَابْتَغُوا الْيَقَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ» (٤) .

(١) الكشف ١/١٢٩

(٢) سورة آل عمران ٩٧

(٣) الكشف ١/١٥٦

(٤) سورة النساء ٦

الابتلاء عند أبي حنيفة وأصحابه أن يدفع إليه ما يتصرف فيه ، حتى يستبين حاله فيما يجيئ منه .

والرشد التهدي إلى وجوه التصرف ، وعن ابن عباس الصلاح في العقل والحفظ للمال .

وعند مالك والشافعي الابتلاء أن يتتبع أحواله وتصرفه في الأخذ والعطاء ، ويتبصر بخباياه وميله إلى الدين ، والرشد الصلاح في الدين ، لأن الفسق مفسدة في المال .

فإن قلت : فإن لم يؤنس منه رشد إلى حد البلوغ ؟

قلت : عند أبي حنيفة رحمه الله ينتظر إلى خمس وعشرين سنة ، لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ثمانى عشرة سنة ، فإذا زادت عليها سبع سنين وهى مدة معتبرة في تغير أحوال الإنسان لقوله عليه السلام « مروهم بالصلاة لسبع » دفع إليه ماله ، سواء أونس منه رشد أو لم يؤنس . وعند أصحابه لا يدفع إليه إلا بإيناس رشد ^(١) .

٨ — وقال تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم » ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقية ، فمن لم يجد فضيماً ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ^(٢) .

ومعنى من أوسط ما تطعمون أهليكم من أقصده ، لأن منهم من يسرف في إطعام أهله ، ومنهم من يقتل . وهو عند أبي حنيفة رحمه الله نصف صاع من بر أو صاع من غيره لكل مسكين ، أو يغذيهم ويعشيهم .

(١) الكشاف ١/ ١٨٩

المائة ٨٩

(٢) سورة البقرة ٢٢٤

وعند الشافعي رحمه الله مُدٌّ لكل مسكين .

والكسوة ثوب يغطي العورة . وعن ابن عباس كانت العباة تجزى يومئذ .

وعن ابن عمر إزار أو قميص أو رداء أو كساء . وعن مجاهد ثوب جامع . وعن الحسن ثوبان أبيضان .

وقد اشترط الشافعي في تحرير الرقبة أن يكون العبد مؤمنا قياسا على كفارة القتل .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فقد جوزوا تحرير الرقبة الكافرة في كل كفارة سوى كفارة القتل ، واشترط أبو حنيفة في الصوم أن يكون متتابعاً ، تسكاً بقراءة أبي وابن مسعود « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » وعن مجاهد كل صوم متتابع إلا قضاء رمضان ، وبخير في كفارة اليمين .

والتكفير قبل الحنث لا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه ، ويجوز عند الشافعي بالمال إذا لم يعص الحانث ^(١) .

٩ — وقال تعالى : « إنما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » ^(٢) . بعد عام تسع من الهجرة حين أمر أبو بكر على الموسم ، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، ويدل عليه قول علي حين نادى ببراءة « ألا يحج بعد عامنا هذا مشرك » ، ولا يتمتعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم .

وعند الشافعي يتمتعون من دخول المسجد الحرام خاصة .

(١) الكشف ٢٢٢/١

(٢) سورة التوبة ٢٨

وعند مالك يمنعون منه ومن غيره من المساجد .

وعن عطاء أن المراد بالمسجد الحرام الحرم ، وأنه على المسلمين ألا يتمكنوهم من دخوله .

ونهى المشركين أن يقربوه راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه .
وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ، ويعزلوا عن ذلك ^(١) .

١٠ — وقال تعالى : « الذين يُظاهرون منكم من نسائهم ما هنَّ أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعَفُوٌّ غَفُورٌ » ^(٢) .

فإن قلت : هل يصح الظهار بغير اللفظ ؟

قلت : نعم إذا وضع مكان (أنت) عضواً من الزوجة يعبر به عن الجملة ، كالرأس والوجه والرقبة والفرج ، أو وضع مكان (ظهر) عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأم كال البطن والفخذ ، أو وضع مكان (أمي) ذات رحم محرم منه بسبب نسب أو رضاع أو صهر أو جماع ، نحو أنه يقول أنت على كظهر أختي من الرضاع ، أو عمتي من النسب ، أو امرأة ابني أو أبنائي أو أم امرأتها ، فهو ظاهر ، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه .

وعن الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري وغيرهم نحوه .

وقال الشافعي لا يكون الظهار إلا بالألم وحدها ، وهو قول قتادة والشعبي .

(١) الكشف ١/٣٨٩

(٢) سورة المجادلة ٢

وعن الشعبي : لم ينس الله أن يذكر البنات والأخوات والعمات والخاللات .
إذ أخير أن الظهار إنما يكون بالأمهات والوالدة دون المرضعات . وعن بعضهم
لا بد من ذكر الظهر حتى يكون ظهاراً^(١) .

١١ — وقال تعالى : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن
لعدتهن »^(٢)

روى عن إبراهيم النخعي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا
يستحبون ألا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى
تنقضي العدة ، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثاً في ثلاثة أظهار .
وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة ،
وكان بكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد ،
فأما مفرقاً في الأظهار فلا ، لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال
لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض : ما هكذا أمرك الله ، إنما السنة أن
تستقبل الطهر استقبالا وتطلقها لكل قرءة تطليقة ، وروى أنه قال لعمر : مر ابنك
فليراجعها ثم ليدها حتى تحيض ، ثم تطهر ، ثم ليطلقها إن شاء ، فتلك العدة
التي أمر الله أن تطلق بها النساء .

وعند الشافعي رضى الله عنه لا بأس بإرسال الثلاث ، وقال لا أعرف في عدد
الطلاق سنة ولا بدعة ، وهو مباح . فمالك يراعى في طلاق السنة الواحدة
والوقت ، وأبو حنيفة يراعى التفريق والوقت ، والشافعي يراعى الوقت والوحدة .

فإن قلت : هل يقع الطلاق المخالف للسنة ؟ .

(١) الكشاف ٢/٤١٠

(٢) سورة الطلاق ١

قلت : نعم وهو آثم ، لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً بين يديه ، فقال : أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ وفي حديث ابن عمر أنه قال يا رسول الله أرأيت لو طلقها ثلاثاً ؟ فقال له : إذن عصيت وبانت منك امرأتك . وعن عمر رضي الله عنه أنه كان لا يؤتى برجل طلق امرأته ثلاثاً إلا أوجعه ضرباً ، وأجاز ذلك عليه . وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين أن من خالف السنة في الطلاق فأوقع في حيض أو ثلث لم يقع^(١) .

ثالثاً - قراءات

الزحشرى لغوى نحوى أديب ذواقة ، ولهذا أكثر من ذكر القراءات منسوبة إلى أصحابها في أكثر الأحيان ، وغير منسوبة في قليل من الأحيان ، وكان في الأغلب الأعم لا يعقب بشيء ، ولا يفضل قراءة على قراءة ، وأحياناً كان يعقب باختيار أروع القراءات تعبيراً ، وأبلغها معنى ، وأشبهها بنظم القرآن الكريم .

وهو يذكر مصحف عبد الله بن مسعود^(١) ، ومصحف أبي^(٢) ، ومصحف الحارث بن سويد صاحب عبد الله ، وهو الذى دفن مصحفه أيام الحجاج^(٣) ، ومصحف أهل الكوفة وأهل الحرمين والبصرة والشام^(٤) ، ومصحف أهل العراق^(٥) ، وعكرمة والأعرج وابن يعمر^(٦) ، وبعض المصاحف^(٧) ، كما يذكر روايات عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وزيد بن علي ونافع وابن جريج وحمزة والحسن وعمرو بن عبيد وغيرهم .

(١) الكتاب ١/٥٥٠ ، ٥٩ و ٢/٢٦٣ ، ٣٦٤

(٢) الكتاب ١/٩٤ و ٢/٨٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣

(٣) الكتاب ١/٣٨٧

(٤) الكتاب ٢/٨٠

(٥) الكتاب ٢/٣٤١

(٦) الكتاب ٢/٥١٨

(٧) الكتاب ٢/٤٦٠

من أمثلة ذلك ما ذكره في هذه الآيات :

١ - « وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ^(١) » .

قرأ عبد الله « وَلَنْ تُسْأَلَ » وقرأ أبي « وَمَا تُسْأَلُ ^(٢) » .

٢ - « وَإِذَا ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ ^(٣) » .

قرأ أبو حنيفة - وهي قراءة ابن عباس - « إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ » برفع إبراهيم ونصب ربه ، والمعنى أنه دعاه بكلمات من الدعاء ^(٤) .

٣ - « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ^(٥) » .

قرأ ابن عباس : « وَعَلَى الَّذِينَ يُطَوَّقُونَهُ ^(٦) » من الطَّوْقِ أو من الطَّاقَةِ أو القِلَادَةِ أى يكفونه ويقلدونه . وعن ابن عباس بتطوقونه بمعنى يتسكفونه أو بتقلدونه ، وبتطوَّقون بإدغام التاء في الطاء .

٤ - « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ^(٧) » .

قرأ على وابن مسعود والشعبي : (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ ، وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ^(٨)) برفع العمرة ، كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحج وهو الوجوب ^(٩) .

(١) سورة البقرة ١١٩

(٢) الكشاف ٧٢/١

(٣) سورة البقرة ١٢٤

(٤) الكشاف ٧٢/١

(٥) سورة البقرة ١٨٤

(٦) الكشاف ٨٨/١

(٧) سورة البقرة ١٩٦

(٨) الكشاف ٩٣/١

(٩) الكشاف ٩٣/١

٥ - «والوالداتُ مُرضِئَاتُ أولادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ»^(١) «قرأ قتادة (حولين كاملين)»^(٢).

٦ - «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ»^(٣).

قرأ أبيّ والحسن «فمن جاءته»^(٤).

٧ - «هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ»^(٥).

قرأ طاوس «هو الذي تصوّركم» أي صوّركم لنفسه.

٨ - «وَمَا يَتْلُمْ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ»^(٦).

قرأ أبي : «ويقول الراسخون في العلم»^(٧).

٩ - «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ»^(٨).

قال : إن قائماً منصوب على الحال أو المدح ، وقرأ عبد الله «القائم بالقسط» على أنه بدل من هو أو خبر مبتدأ محذوف ، وقرأ أبو حنيفة «قيماً بالقسط»^(٩).

١٠ - «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ

الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»^(١٠).

(١) سورة البقرة ٢٣٣

(٢) الكشف ١/١٠٩

(٣) سورة البقرة ٢٧٥

(٤) الكشف ١/١٢٧

(٥) سورة آل عمران ٦

(٦) سورة آل عمران ٧

(٧) الكشف ١/١٣٥

(٨) سورة آل عمران ١٨

(٩) الكشف ١/١٣٧

(١٠) سورة آل عمران ٢١

قرأ الحسن « يقتلون النبيين » وقرأ حمزة « ويقتلون الذين يأمرون » وقرأ عبد الله « وقتلوا » وقرأ أبي « يقتلون النبيين والذين يأمرون »^(١).

١١ — « قال رب اجعل لي آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا »^(٢).

قرأ يحيى بن وثاب إلا رمزا بضمين جمع رموز كرسول ورسول ، وقرأ رمزا بفتحين مثل خادم وخدم وهو حال منه ومن الناس كقوله :

مَتَى مَا تَلَقَّيْ قَوْدَيْنِ تَرْجُفُ رَوَانِفُ إِلَيْتَيْكَ وَتُسْتَظَارَا

يعنى إلا مترامزين كما يسكلم الناس الأخرس بالإشارة ويكلمهم^(٣).

١٢ — « أم لهم نصيب من الملك ، فإذا لا يؤتون الناس نقيرا »^(٤).

القرأة العامة على أن (إذن) ملغاة ، كأنه قيل فلا يؤتون الناس نقيرا إذن ، وقرأ ابن مسعود « فإذا لا يؤتوا الناس » على إعمال إذن^(٥).

١٣ — « سماعون للكذب كالمون للسحت »^(٦) قرئ السحت بالتخفيف

والثقل ، والسحت بفتح السين على لفظ المصدر من سحطة ، والسحت بفتحين والسحت بكسر السين^(٧).

(١) الكشف ١/١٣٩

(٢) سورة آل عمران ٤١

(٣) الكشف ١/١٤٤

(٤) سورة النساء ٥٣

(٥) الكشف ١/٢٠٩

(٦) سورة المائدة ٤٢

(٧) الكشف ١/٢٥٦

١٤ - « لَسْكَلٌ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » ^(١).

الشريعة الشريعة ، وقرأ يحيى بن وثاب الشريعة بفتح الشين ^(٢).

١٥ - « لَا يُوَاحِدُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ » ^(٣)
 قرئ عَقَّدْتُمْ ، للتخفيف وعَقَّدْتُمْ ، وقرأ جعفر بن محمد (أَهْلِيكُمْ) بِسُكُونِ الْيَاءِ وَالْأَهْلَى اسْمٌ جَمَعَ لِأَهْلِ كُلِّ لَيْلَى فِي جَمْعِ لَيْلَةٍ ، وَالْأَرْضَى فِي جَمْعِ أَرْضٍ ، وَقَوْلُهُمْ أَهْلُونَ كَقَوْلِهِمْ أَرْضُونَ بِسُكُونِ الرَّاءِ . أَمَا تَسْكِينُ الْيَاءِ فِي حَالِ النِّصْبِ فَلِلتَّخْفِيفِ ، كَمَا قَالُوا رَأَيْتُ مَعْدِيكَرَبَ تَشْبِيهَا لِلْيَاءِ بِالْأَلْفِ . وَقُرِئَ (كَسْوَتُهُمْ) بِضَمِّ السَّكَافِ وَنَحْوِهِ قَدْوَةٌ فِي قَدْوَةٍ وَأَسْوَةٌ فِي إِسْوَةٍ .

وَقَرَأَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ وَالْبِخْنِيُّ (أَوْ كَأَسْوَتُهُمْ) بِمَعْنَى أَوْ مِثْلَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ إِسْرَافًا أَوْ تَقْتِيرًا ، وَقَرَأَ أَبُو وَابِنٍ مَسْعُودٌ « فَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ » ^(٤).

١٦ - « يُبْكَفِّرُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا » ^(٥).

قُرِئَ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ، جَمْعُ سُوءٍ ^(٦).

١٧ - « وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ » ^(٧).

فِي مَصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ بِالضَّاءِ (بَظَنَيْنِ) وَفِي مَصْحَفِ أَبِي الْبَضَادِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ بِهَا ، وَإِنِّتَانِ الْفَصْلُ بَيْنَ الضَّادِ وَالضَّاءِ وَاجِبٌ

(١) سورة المائدة ٤٨

(٢) الكشاف ٢٥٨/١

(٣) سورة المائدة ٨٩

(٤) الكشاف ٢٧٢/١

(٥) سورة الزمر ٣٥

(٦) الكشاف ٢٩٩/٢

(٧) سورة التکویر ٢٤

ومعرفة مخرجها لا بد منه للقارىء ، فإن أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين وإن فرقوا ففرقاً غير صواب . وبينهما بون بعيد ، فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره ، كان عمر بن الخطاب أضبط يعمل بكلمتا يديه ، وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه . وهى أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين ، وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا ، وهى أحد الأحرف النوقية أخت الذال والثاء . ولو استوى الحرفان لما ثبتت فى هذه الكلمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة ، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب ^(١) .

وقد يفاضل بين القراءات ويختار إحداها .

١٨ — فى الآية الكريمة « وإنا لجميع حاذرون » ^(٢) ذكر أن بعضهم قرأ (حذرون) وبعضهم قرأ (حادرون) بالدال غير المعجمة ، وقال إن الحذر اليقظ ، والحاذر الذى يحدد حذره ، وقيل المتقوى بالسلاح إنما يفعل ذلك حذراً ، والحاذر السمين القوى قال :

أحب الصبيء السوء من أجل أمه وأبفضه من بُغضها وهو حاذر
أراد أنهم أقوياء أشداء ، وقيل مدججون بالسلاح قد أكسبهم ذلك حذارة
فى أجسامهم ^(٣)

١٩ — وعند تفسير قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » ^(٤) قال : قرأ أنس بن مالك كشجرة طيبة ثابت أصلها فإن قلت أى فرق بين القراءتين ؟

(١) الكشاف ٢/٢٢٨

(٢) سورة الشعراء ٦٦

(٣) الكشاف ٢/٢٢٤

(٤) سورة إبراهيم ٢٤

قلت قراءة الجماعة أقوى ، لأن في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة ، وإذا قلت مررت برجل أبوه قائم فهو أقوى معنى من قولك مررت برجل قائم أبوه ، لأن الخبر عنه إنما هو الأب لا رجل^(١) .

٢٠ — وفي تفسير قوله تعالى : « كُتِبَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ »^(٢)

ذكر أن (كلمة) قرئت بالنصب على التمييز وبالرفع على الفاعلية ، والنصب أقوى وأبلغ وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أ كبرها كلمة^(٣) .

٢١ — على أنه استبعد القراءات الشاذة وأنكرها ، فقال في تفسير قوله تعالى : « أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا »^(٤) .

أفلم يباأس أى أفلم يعلم ، قيل هى لغة قوم من النخع ويدل عليه أن عليا وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرأوا أفلم بتبيين ، وهو تفسير أفلم يباأس .

وقيل إنما كتبه السكاتب وهو ناعس مستوى السيئات ، وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتا بين دفتى الإمام يريد المصحف الإمام وكان متقلبا في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله ، المهتمين عليه ، لا يففلون عن جلالة ودقائقه ، خصوصا عن القانون الذى إليه المرجع ، والقاعدة التى عليها البناء ، وهذه والله فريضة ما فيها مزية^(٥) .

(١) الكشف ١/٥٠٤

(٢) سورة السكهت ٥

(٣) الكشف ١/٥٦٣

(٤) سورة الرعد ٣١

(٥) الكشف ١/٤٩٥

رابعًا - آراء نحويّة

عرفنا أن الزمخشري ألف كتباً في النحو ، منها المفصل ، وكان كلفاً بالنحو بصيراً بدقائقه مثل كلفه باللغة وبصره بها .

ولهذا تعرض كثيراً للإعراب في تفسيره ، فأعرب كلمات ، وأورد آراء النحاة في إعراب كلمات ، وناقش الأعراب ، واختار ما رآه أصح وأصوب ، وكثيراً ما كان يمثل بالنصوص الأدبية .

وهذه أمثلة من الآيات السكرية التي عرض فيها للنحو :

١ - « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ »^(١)
قال : إن قائماً منصوب على الحال من لفظ الجلالة ، فإن قلت : لم جاز إفراده بنصب الحال دون العطفين عليه ، ولو قلت جاءني زيد وعمروراً كبا لم يحز ؟ قلت : إنما جاز هذا لعدم الإلباس كما جاز في قوله تعالى : « وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً »^(٢) إن انتصب (نافلة) حالاً من يعقوب ، ولو قلت جاءني زيد وهند را كبا جاز ، لتمييز الحال بالدكورة ، ويجوز أن يكون (قائماً) منصوباً على المدح .

فإن قلت : أليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة ، كقولك الحمد لله الحميد - بفتح الدال - وإنما معشر - بفتح الراء - الأنبياء لا نورث ؟

(١) سورة آل عمران ١٨

(٢) سورة الأنبياء ٩٢

قات : قد جاء نكرة كجاء معرفة ، وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرة قول الهذلي :

ويأوى إلى نسوة عَطَلٍ وَشُعْنًا مَرَضِيْعَ مِثْلَ السَّعَالِي

فإن قلت : هل يجوز أن يكون صفة للمنفى ، كأنه قيل لا إله قائما بالقسط إلا هو ؟

قلت : لا يبعد ، فقد رأيناهم يتبعون في الفصل بين الصفة والموصوف .
فإن قلت : قد جعلته حالا من فاعل (شهد) فهل يصح أن ينتصب حالا من هو في (لا إله إلا هو) ؟

قلت : نعم لأنها حال مؤكدة ، والحال مؤكدة لا تستدعي أن يكون في الجملة التي هي زيادة في فائدتها عامل فيها ، كقولك أنا عبد الله شجاعا ، وكذلك لو قلت لا رجل إلا عبد الله شجاعا ، وهو أوجه من انتصابه عن فاعل (شهد) وكذلك انتصابه على المدح ^(١) .

٢ — « ذلکم اللہ فأنی تُؤفکون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكوناً والشمس والقمر حسباناً » ^(٢)

(الشمس والقمر) قرنا بالحركات الثلاث .

فالنصب على إضمار فعل دل عليه جاعل الليل ، أي وجعل الشمس والقمر حسباناً ، أو يعطفان على محل الليل .

فإن قلت : كيف يكون ليل محل والإضافة حقيقية ، لأن اسم الفاعل المضاف إليه في معنى المضى ، ولا تقول يزيد ضارب عمرو أمس ؟

(١) السكتات ١/١٣٧

(٢) سورة الأعام ٩٥

قلت ما هو في معنى المضي ، وإنما هو دال على جعل مستمر في الأزمنة المختلفة ، وكذلك فالق الحب وفالق الإصباح ، كما تقول الله قادر عالم ، فلا تقصد زماناً دون زمان .

والجر عطف على لفظ الليل ، والرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره والشمس والقمر محمولان حسباناً أو محسوبان حسباناً ، ومعنى جعلهما حسباناً أن حساب الأوقات يعلم بدورانها وسيرها ^(١) .

٣ — « إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . أو يوقهن بما كسبوا ، ويعف عن كثير ، ويعلم الذين يحادلون في آياتنا ما لهم من تحييص » ^(٢) .

فإن قلت : فما وجوه القراءات الثلاث في (يعلم) ؟

قلت أما الجزم فعلى ظاهر العطف ، وأما الرفع فعلى الاستئناف ، وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ويعلم الذين يحادلون في آياتنا ، ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن ، منه قوله تعالى : « ولنجعل آية للناس » ^(٣) ، وقوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق ، وأنجزى كل نفس بما كسبت » ^(٤) .

وأما قول الزجاج : النصب على إضمار أن ، لأن قبلها جزاء ، تقول ماتنفع أصنع مثله وأكرمك ، وإن شئت وأكرمك ، على تقدير وأنا أكرمك ، وإن شئت وأكرمك جزماً فقيه نظر ، لما أورده سيبويه في كتابه إذ قال :

(١) الكشف ١/٣٠٢

(٢) سورة الشورى ٣٥

(٣) سورة مريم ٢١

(٤) سورة المجانية ٢٢

واعلم أن النصب بالقاء والواو في قوله إن تأتي آتاك وأعطيك ، ضعيف وهو نحوه من قوله : وألحق بالحجاز فاستريح ، فهذا يجوز وليس بحمد الكلام ولا وجهه ، إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلا ، لأنه ليس بواجب أنه يفعل ، إلا أن يكون من الأول فعل ، فلما ضارع الذي لا يوجب كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه .

ثم عقب الزمخشري بقوله : ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ، ليس بحمد الكلام ولا وجهه ، ولو كانت من هذا الباب لما أدخل سميويه منها كتابه ، وقد ذكر نظائرها من الآيات المشككة^(١) .

٤ — «فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض^(٢)» فهلا كان ، وقد حكوا عن الخليل أن كل «لولا» في القرآن معناها هلا إلا التي في سورة الصافات^(٣) ، ولكن هذه الحكاية غير صحيحة ، لأن لولا وردت في سور أخرى وليس معناها هلا ، مثل قوله تعالى : «لولا أن تداركته نعمة من ربه لُمِيذَّ بالعراء»^(٤) . وقوله «ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطهروهم»^(٥) . وقوله : «ولولا أن نَبِّئَكَ لقد كذبت ترْكُن إليهم شيئا قليلا»^(٦) .

٥ — «وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع صُنبُلات خضر وأخر يابسات»^(٧) .

(١) الكشف ٢/٣٤٢ (٢) سورة هود ١١٦ .

(٣) يريد قوله تعالى في شأن يونس : «ولن يونس إن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون فسأهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الموت وهو هام ، فلولا أنه كان من السبعين لابت في بطنه إلى يوم يعثون » سورة يونس ١٣٩ — ١٤٤ .

(٤) سورة القلم ٤٩ (٥) سورة الفتح ٢٥ .

(٦) سورة الإسراء ٧٤ والكشاف ١/٤٥٦ .

(٧) سورة يوسف ٤٣ .

فإن قلت : هل من فرق بين إيقاع سمان صفة للمميز ، وهو بقرات دون المميز وهو سبع ، وأن يقال بقرات سماناً ؟

قلت : إذا أوقعتها صفة لبقرات فقد قصدت إلى أن تميز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها ، ثم رجعت فوصفت للمميز بالجنس بالسمن .

فإن قلت : هلا قيل سبع عجاف على الإضافة ؟

قلت : التمييز موضوع لبيان الجنس ، والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده .

فإن قلت : فقد يقولون ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب ؟

قلت : الفارس والصاحب والراكب ونحوها صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها ، وجاز فيها ما لم يحز في غيرها ، ألا تراك لا تقول عندي ثلاثة ضغام وأربعة غلاظ .

فإن قلت : ذلك مما يشكل ، وما نحن بسبيله لا إشكال فيه ، ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف ، لوقوع العلم بأن المراء البقرات ؟

قلت : ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل ؛ وقد وقع الاستغناء بقولك سبع عجاف عما تقترحه من التمييز بالوصف .

والعجف الهزال الذي ليس بعده ، والسبب في وقوع عجاف جمعاً لعجفاء مع أن أفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال حمله على سمان ، لأنه تقيضه ، ومن رأيهم حمل النظير على النظير والتقيض على التقيض ^(١) .

٦ — « هو الذي يربكم البرق خوفاً وطمعا » ^(٢) .

(١) السكشاف ١/٧٢٢

(٢) سورة الرعد ١٣

لا يصح أن يكون (خوفاً وطمعاً) مفعولاً لها، لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلن إلا على تقدير حذف المضاف، أى إرادة خوف وطمع، أو على معنى إخافة وإطعاماً.

ويحوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق، كأنه في نفسه خوف وطمع، أو على ذا خوف وذا طمع، أو من المخاطبين أى خائفين وطماعين^(١).
٧ — « لا أقسمُ بيومِ القيامةِ »^(٢).

إدخال (لا) النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم، قال امرؤ القيس:

لا وأبيك ابنة العامري لا بدّعي القوم أنى أفر
وقال عُقُوبَةُ بن سُلَيم:

ألا نادى أمانةً باحتمال لتحزنتى فلا بك ما أبالى
وفائدتها تأكيد القسم، وقالوا إنها صلة (زائدة) مثلها في (لئلا يعلم أهل الكتاب) وفي قوله:

في بئر لا حور سرى وما شعر^(٣).

واعترضوا عليه بأنها إنما تراد في وسط الكلام لا في أوله، وأجابوا بأن القرآن في حكم سورة واحدة متصل ببعضه ببعض.

والاعتراض صحيح، لأنها لم تقع مزيدة إلا في وسط الكلام، ولكن الجواب غير سديد، ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته؟ والوجه أن يقال هي للنفي، والمعنى أنه لم يقسم بالشيء إلا إعظاماً له، بذلك عليه قول الله تعالى: « فلا أقسمُ بمواقعِ النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ».

(١) الكشف ٤٩٠/١

(٢) سورة القيامة ١

(٣) قال ابن عيسى في شرح المفضل ١٣٦/٨ إن المراد في بئر حور ولا مزيدة، كذا

فسره أبو عبيدة، والخور الهلكة.

فكانه بإدخال حرف النفي يقول إن إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام ، يعني أنه يستأهل فوق ذلك .

وقيل إن (لا) نفي لكلام ورد له قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث ف قيل لا ، أى ليس الأمر كما ذكرتم ، ثم قيل أقسم بيوم القيامة .

فإن قلت : قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون » ، والأبيات التي أشدتها ، المقسم عليه فيها منفي ، فهلا زعمت أن (لا) التي قبل القسم زيدت موطنه للنفي ، ومؤكدة له ، وقدرت للمقسم عليه المحذوف هاهنا منفيًا ، كقولك لا أقسم بيوم القيامة لا تتركون سدى ؟ .

قلت : لو قصر الأمر على النفي دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ ، ولكن لم يقصر ، ألا ترى كيف لقي لا أقسم بهذا البلد بقوله لقد خلقنا الإنسان في كبد ، وكذلك فلا أقسم بمواقع النجوم بقوله إنه لقرآن كريم .

وقرى (لا أقسم) على أن اللام للابتداء ، وأقسم خبر مبتدأ محذوف معناه لأننا أقسم ، قالوا وبعضه أنه في المصحف الإمام بغير ألف ^(١) .

خامسًا - مسائل لغوية

من الطبيعي والرخشري لغوى أديب بصير بحقائق اللغة ومجازاتها أن يستعين بعلمه وذوقه على تجلية بعض الدلالات الدقيقة للكلمات ، وأن يناقش سابقه ومعاصريه فى بعض الكلمات .

١ - قال فى تفسير قواه تعالى : « والذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون »^(١) .

معنى إقامة الصلاة تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيف فى فرائضها وسننها وآدابها ، من أقام العمود إذا قومه .

أو الدوام عليها والمحافظة عليها ، كما قال عز وجل : « الذين هم عن صلاتهم ساهون » و « والذين هم على صلاتهم يحافظون » من قامت السوق إذا نفقت ، لأنها إذا خوفت عليها كانت كالشيء النافق الذى تتوجه إليه الرغبات ، ويتنافس فيه المحصلون ، وإذا عطلت وأضيعت كانت كالشيء الكاسد الذى لا يرغب فيه . أو التجلد والتشمير لأدائها ، وألا يكون فى مؤديها فتور عنها ولا توان ، من قولهم قام بالأمر وقامت الحرب على ساقها ، وفى ضده قعد عن الأمر وتقاعد عنه إذا تقاعس وتثبط .

أو أذوها ، فعبر عن الأداء بالإقامة ، لأن القيام بعض أركانها ، كما عبر عنه بالقنوت ، والقنوت القيام ، وبالركوع والسجود ، وقالوا سبح إذا صلى ، لوجود التسبيح فيها^(٢) .

(١) سورة البقرة ٣

(٢) الكشاف ١ / ١٧

٢ — وقال في تفسير قوله تعالى : « ذَهَبَ اللَّهُ بنورهم »^(١) .

الفرق بين أذهب وذهب به أن معنى أذهب أزاله وجعله ذاهباً ، ويقال ذهب به إذا اصطحبه ومضى به معه ، وذهب السلطان بما له أخذه ، ومنه ذهبت به الخيلاء ، ولغني أخذ الله نورهم وأمسكه وما يمسك الله فلا مرسل له ، فهذا أبلغ من الإذهاب ، وقرأ البيهقي أذهب الله نورهم^(٢) .

٣ — وقال في تفسير قوله تعالى : « فَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ أَدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »^(٣) .

الند للثل ولا يقال إلا للثل المخالف المناوي ، قال جرير :

أَتَيْمًا تَجْعَلُونَ إِلَى نَدًّا وما تَيْمٌ لَدَى حَسْبٍ نَدِيدُ

وناددت الرجل خالفته ونافرته ومعنى قولهم : ليس لله ند ولا ضد تعنى ما يسد مسده ونفى ما ينافيه^(٤) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ »^(٥) .

فمن تعجل عَجِلَ في التَّعَرُّ أو استعجل النفر ، وتعجل واستعجل يَجِئَانِ مطاوعين بمعنى عَجِلَ ، يقال تعجل في الأمر واستعجل ، ويَجِئَانِ متعديين ، يقال تعجل الذهاب واستعجله . والمطاوعة أوفق ، لقوله « ومن تأخر » كما هي كذلك في قول الشاعر :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

لأجل المتأني^(٦) .

(١) سورة البقرة ١٧

(٢) الكشف ١ / ٣١

(٣) سورة البقرة ٢٢

(٤) الكشف ١ / ٣٨

(٥) سورة البقرة ٢٠٣

(٦) الكشف ١ / ٩٧

٥ - وقال في تفسير قوله تعالى : « وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ^(١) » .

قال : الكتاب والفرقان يعني الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل ، يعني التوراة ، كذلك رأيت الغيث والليث ، تريد الرجل الجامع بين الجود والجرأة ، ونحوه قوله تعالى : « لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ^(٢) » يعني الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً وضياءً وذكراً ، أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات ، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام .

وقيل الفرقان انفرق البحر ، وقيل النصر الذي فرق بينه وبين عدوه ، كقوله تعالى : « يَوْمَ الْفُرْقَانِ ^(٣) » يريد به يوم بدر ^(٤) .

٦ - وقال في تفسير قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ^(٥) » .

أذلة جمع ذليل ، وأما ذلول فجمعه ذُلٌّ ، ومن رُعم أنه من الذل الذي هو تقيض الصعوبة فقد غبي عنه أن ذلولاً لا يجمع على أذلة . فإن قلت : هلا قيل : أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين ؟ قلت : فيه وجهان :

-
- (١) سورة البقرة ٥٣
 - (٢) سورة الأنبياء ١٤٨
 - (٣) سورة الأنفال ٤١
 - (٤) الكتاب ١ / ٥٥
 - (٥) سورة المائدة ٥٤

أحدهما أن يَضْمَنَ الذلَّ معنى الخنو والعطف ، كأنه قيل عاطفين عليهم على وجه التذليل والتواضع .

والثاني أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم ، ونحوه قوله تعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ^(١) .

٧ — وقال في تفسير قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » ^(٢) .

أى أكاد أخفيها فلا أقول هى آتية لفرط إرادتى إخفاءها ، ولولا ما فى الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به .

وقيل معناه أكاد أخفيها من نفسى ، ولا دليل فى الكلام على هذا المحذوف ، ومحذوف لا دليل عليه مطروح ، والذي غرهم منه أن فى مصحف أبى أكاد أخفيها من نفسى فكيف أظهر كم عليها ؟

وعن أبى الدرداء وسعيد بن جبير (أخفيها) يفتح الهمزة من خفاء إذا أظهره ، أى قرب إظهارها ، كقوله تعالى : « اقتربت الساعة » ^(٣) وقد جاء فى بعض اللغات أخفاء بمعنى خفاء ، وبه فسر بيت امرئ القيس :

فإن تدفِنُوا الداء لا نُخْفِيهِ وإن تَبَعَمُّوا الحربَ لا نَقْعُدْ

فأكاد أخفيها تحتمل المعنيين ^(٤) .

وقال فى الأساس : خَفِيَ الشئ واختفى واستخفى تستر ، وهو يخفى

(١) سورة الفتح ٢٩ والكشاف ١ / ٢٦٢

(٢) سورة طه ١٥

(٣) سورة القمر ١

(٤) الكشاف ٢ / ٢١

صوته ، وَخَفِيَ الشَّيْءُ الْخَفِيُّ واختفاه أخرجه ، يقال خَفِيتُ الْحَوْزَةَ من تحت التراب . واختفى النباش السكفن ^(١) .

٨ — وقال في تفسير قوله تعالى : « وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَنَاسًا كَان مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ، عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَاسِيْلًا » ^(٢) .

سميت العين زنجبيلًا لطعم الزنجبيل فيها ، والعرب تستلذه وتستطيبه . قال الأعشى :

كَانَ الْقَرْفَلُ وَالزَّجْبِيلُ لِي بِأَتَابِيقِهَا وَأَرْيَا مَشُورًا
وقال المسيَّب بن علس :

وَكَانَ طَعْمُ الزَّجْبِيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتَهُ وَسَلَاقَةً الْحَمْرِ

و (سلسبيل) لسلاسة انحدارها في الحلق ، وسهولة مساغها ، يعنى أنها في طعم الزنجبيل ، وليس فيها لذعة ، ولكن تقيض للذع وهو السلاسة . يقال شراب سَلْسَلٍ وسَلْسَالٍ وسَلْسَبِيلٍ . وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية ، ودأت على غاية السلاسة . قال الزجاج : الساسبيل في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة . وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب أن معناه سل سبيلًا ، وهذا غير مستقيم على ظاهره ، إلا أن يراد أن علة قول القائل (سل سبيلًا) جعلت علما للعين ، كما قيل تأبط شرا ، وسميت بذلك لأنه لا يشرب إليها إلا من سأل إليها سبيلًا بالعمل الصالح ^(٣) . وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع ، وعَزَوْهُ إلى مثل على رضى الله عنه أبدع .

(١) أساس البلاغة مادة خفي

(٢) سورة الإنسان ١٧

(٣) الكشاف ١٢/٢

٩ — وقال في تفسير الآية الكريمة: « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا »^(١).

المعصرات: السحاب إذا أَعْصَرَتْ أى شارفت أن تعصرها الرياح فتُمْطِرُ، كقولك أجزَّ الزرع إذا حان له أن يُجَزَّ، ومنه أَعْصَرَتْ الجارية إذا دنت أن تحيض. وذكر في الأساس أن السحابة أَعْصَرَتْ واستدل بالآية.

ثَجَّاجًا: منصبا بكثرة، يقال ثَجَّ وَثَجَّ وَثَجَّ بنفسه، وفي الحديث أفضل الحج المَجَّجُ والثَّجَّجُ، أى رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى، وكان ابن عباس مَجَّجًا يسيل غرْبًا، يعنى يَتَجَّجُ الكلام ثَجًّا فى خطبته.

أَلْفَافًا: ملتفة، ولا واحد له كالأوزاع والأضياف، وقيل الواحد لَفٌ، وقال صاحب الإقليد: أنشدنى الحسن بن على الطوسى:

جَنَّةٌ لَفٌ وَعَيْشٌ مُنْعَدٌ وَنَدَامَى كُلُّهُمْ بَيْضٌ زَهْرٌ

وزعم ابن قتيبة أن المفرد لفاء والجمع لَفٌ ثم أَلْفَافٌ، وما أظنه واجدا له نظيرا من نحو خضر وأخضر وحر وأحمر. ولو قيل هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولها وجيها^(٢).

١٠ — وفي الآية الكريمة: « وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا »^(٣)

أى تكذبا، وفَعَّالٌ فى باب فَعَّلَ كَلَهُ فاش فى كلام فصحاء العرب، لا يقولون غيره، وسمعى بعضهم أفسر آية فقال: لقد فسرناها فسَّارًا ماسمع بمثله^(٤).

(١) سورة النبأ: ١٤ — ١٦

(٢) الكشف ٢ / ١٨٥

(٣) سورة النبأ: ٢٨

(٤) الكشف ٢ / ١٩٠

سَادِسًا - نَصُوصٌ شِعْرِيَّةٌ

استن الزمخشري نهج ابن عباس والطبري وغيرهما في الاستشهاد بالشعر والاستدلال به على تفسير معاني الكلمات ، فقد روى ابن عباس أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فتكلم بكلام مبين ، فقال النبي إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكما . وكان ابن عباس يُسأل عن الشيء من القرآن ، فيقول : فيه كذا وكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا كذا . وقال عكرمة : ما سمعت ابن عباس فسر آية من كتاب الله عز وجل إلا نزع فيها بيتا من الشعر . وكان يقول : إذا أعيأكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر ، فإنه ديوان العرب ^(١) .

أما الطبري فكثيرا ما اعتمد على الشعر في بيان المعنى المراد من الكلمة ، متارة بذكر اسم الشاعر ، ومتارة بذكر النص مجردا من الاسم .

وفي رأى الزمخشري ورأى سابقيه أن الإسلام لم يحرم الشعر كله ، بل حرم ما يخالف العقيدة ، وينافي الخلق الكريم . ولهذا قال في تفسير قوله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَدْعُونَ ، وَهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ، وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ، أُولَئِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ ذَكَرَ اللَّهُ تَوَلَّى » ^(٢) .

إن الله استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكفرون ذكر الله وتلا .

(١) مقدمة شرح التبريزي للحماسة ٣/١

(٢) سورة الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٦

القرآن ، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر ، وإذا قالوا شعرا قالوا في توحيد الله والثناء عليه، والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة وصالحاء الأمة، وما لا بأس به من المعاني ، لا يبتلعون فيها بذهب، ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة ، وكان هجائهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم ، قال الله تعالى : « لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ » ^(١) وذلك غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب ، لقوله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ^(٢). وعن عمرو بن عبيد أن رجلا من العلوية قال له إن صدرى لي جيش بالشعر ، فقال : فما يمنعك منه مما لا بأس به ؟ .

والقول فيه أن الشعر باب من الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام . وقيل المراد بالمستثنين عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير ، والذين كانوا يناخون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكافون هجاة قريش . وعن كعب بن مالك أن النبي قال له : اهجمهم ، فو الذي نفسى بيده هو أشد عليهم من الثمبل ، وكان يقول لحسان : قل وروح القدس معك ^(٣) .

ولهذا استشهد بالشعر في الكشف عن دلالات كثير من الألفاظ ، ولم يتقيد بعصر ولا بصفة خاصة في الشاعر .

١ — فني تفسير قوله تعالى : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » ^(٤) .

(١) سورة النساء ١٤٨

(٢) سورة البقرة ١٩٤

(٣) الكشف ٢/١٣٥

(٤) سورة النساء ٢٤

قال إن المراد ما ملكك أيماكم من الآتي سبين ولهن أزواج في دار
السفر، فمن حلال لفقراء المسلمين وإن كن محصنات ، وفي معناه قول
الغزدي :

وذا ت حليل أنسكحتنا رماحنا حلال لمن يبنى بهالم تطلق^(١)
٢ — وفي تفسير قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا
منهم كل بنان »^(٢) قال إن المراد أعلى الأعناق التي هي للذابح ، لأنها مفصل ،
وكان إيقاع الضرب فيها حزاً وتطبيراً للروس .

وقيل أراد الروس ، لأنها فوق الأعناق ، يعنى ضرب الهام ، قال الشاعر :

وأضرب هامة البطل المشيح .

وقال آخر .
عشيتة وهو في جأواء باسلة عضباً أصاب سواء الرأس فافئقما
والبنان الأصابع ، يريد الأطراف ، والمعنى فاضربوا المفصل والشوى^(٣) .

٣ — وقال في تفسير قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين
والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة »^(٤) : إن ساعة العسرة وقتها ، والساعة
مستعملة في معنى الزمان المطلق ، كما استعملت الغداة والعشية واليوم . قال الشاعر :

وكنا حسبنا كل بيضاء شجمة عشية فارغنا مجذام وخميرا

(١) الكشف ١/١٩٩

(٢) سورة الأنفال ١٢

(٣) الكشف ١/٣٦٨

(٤) سورة التوبة ١١٧

وقال آخر :

إذا جاء يوما وارثي يبتغي الغنى
يَجِدُ جَمْعَ كَفٍّ غَيْرِ مَلَأَى وَلَا صُفْرٍ^(١)
والعسرة حالهم في غزوة تبوك^(٢).

٤ — ويستشهد بيت لأبي نواس عند تفسيره قوله تعالى :

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »^(٣).

فيقول : فيه وجهان : أحدهما أنه كان وحده أمة من الأمم ، لكمله في جميع صفات الخير ، كقول الشاعر :

وليس لله بمسئور أن يجمع العالم في واحد^(٤).

ومعلوم أن البيت لأبي نواس كما في ديوانه وفي أوضح المسالك لابن هشام في باب أداة التعريف .

وإذا كان لم يصرح باسم أبي نواس في هذا البيت ، فقد صرح باسمه مرات أخرى ، كما نجد عند تفسير قوله تعالى : « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ، فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدَى مِنْ يَشَاءُ »^(٥).

إذ يقول : ومعنى تزئين العمل والإضلال واحد ، وهو أن يكون العاصي على صفة لا تجرئ عليه المصالح حتى طاعة الهوى ، فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحاً ، ويقع تحت قول أبي نواس :

اسقني حتى تراني حسنا عتدي القبيح^(٦)

(١) يد صفر بثلاث الصاد : خالية

(٢) الكشف ١/١٠٤

(٣) سورة النحل ١٢٠

(٤) الكشف ١/٥٣٨

(٥) سورة فاطر ٨

(٦) الكشف ٢/٢٣٩

٥ - ويستشهد بقول الشاعر :

وكأنس شربت على لذة [وأخرى تداويت منها بها]

عند تفسير قوله تعالى : « يطاف عليهم بكأس من معين »^(١) .

ويذكر أنه يقال للزجاجة فيها الخمر كأس ، ونسى الخمر كأساً^(٢) .

٦ - ويستشهد بقول طرفة :

أرى الموت بعقَام الكرام ويصطفى عَقِيلَةَ مال الفاحش المتشدد^(٣)

عند تفسير قوله تعالى : « وإنه لحب الخير أشديد »^(٤) .

ليوضح أن الشديد هو البخيل النمسك^(٥) .

٧ - واستشهد بشعره وإن لم يصرح بأنه له .

فعند تفسيره لقوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما يفوضه

فما فوقها »^(٦) .

ذكر هذه الأبيات على أنها لبعضهم :

يامن يرى مدَّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل

اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأول

وهذه الأبيات له ، كما يتبين من ديوانه^(٧) .

وعند تفسير قوله تعالى : « ولتُنذِرَ أم القرى ومن حولها »^(٨) .

ذكر هذا البيت على أنه لبعض المجاورين :

فمن يلق في بعض القرى رحاله فأم القرى ملقى رحالي ومقتابي^(٩)

(١) سورة الصافات ٤٥

(٢) الكشف ٢/٢٦٢

(٣) بعثام : يختار

(٤) سورة المائدات ٨ (٥) الكشف ٢/٥٥٧

(٦) سورة البقرة ٢٦ (٧) ديوان الزمخشري ٩٦

(٨) سورة الأنعام ٩٢ (٩) الديوان ٥ والكشاف ١/٣٠٣

سَائِعًا - بلاغة ونقد

تمهيد

سارع المعتزلة إلى دراسة اللغة والأدب والعلوم الدينية والفلسفة والمنطق ، لأن مكاتبتهم المذهبية أملت عليهم أن يحيطوا باللغة وأدبها ، ليتخيروا التعبير الجيد للملائم للفكرة ، وليتفهموا النصوص ، ويفحصوا إلى أسرارها ، ولأنهم كانوا يمدون أنفسهم للاقتصار في الجدل الدائر بينهم وبين اليهود والنصارى ، وبينهم وبين مخالفيهم من المسلمين ، وفي هؤلاء وأولئك أصحاب لسان وأصحاب فلسفة .

لهذا كثر في المعتزلة البلاغاء والفلاسفة ، فكان منهم أساتذة المفاظرة ، وأعلام الجدل ، وجهابذة الكتابة والخطابة ، ورواد البلاغة ، وكانوا يروون الشعر ويقرضونه ، وكان بشر بن المعتز أرواهم له ^(١) ، وله قصيدة من أربعين ألف بيت ضمنها نقضه لأراء مخالفيه ، وشهد الجاحظ أنه لم ير أحدا استطاع من النظم الخمس والمزدوج ما استطاعه بشر ^(٢) ، وله قصيدتان أخريان ^(٣) .

كذلك كان الجاحظ حفاظة للشعر ، كثير الاستدلال به في مؤلفاته كلها ، وكان يستطيع نظمه .

ولهم في وضع أصول البلاغة سبق لا ينكر ، منذ كتب بشر بن المعتز وصيته للأدباء ^(٤) ، ومنذ كتب الجاحظ فصولا في البلاغة منشورة في كتبه وبخاصة البيان والتبيين .

(١) الحيوان ٤٠٥/٦ (٢) النية والأمل ٣٠

(٣) الحيوان ٢٨٤/٦ - ٢٩٧

(٤) البيان والتبيين ١٣٥/١

ولهذا ازدهى الجاحظ ببلاغة المعتزلة في قوله: ^(١) «فإن عبر الخطيب عن شيء من صناعة الكلام، واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين، إذ كانوا تلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإلى هنا أحسن، ومنها أشغف؛ لأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف، وقدوة لكل تابع، ولذلك قالوا: العرض والجوهر، وأيس وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشي، وذكروا الهدية والهوية والماهية ^(٢) وأشياء ذلك».

ولقد عني المعتزلة بالكشف عن وجوه الإعجاز البلاغي، فلجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) كتاب فيه سماء (نظم القرآن) لم يصل إلينا، ولعلي بن عيسى الرماني (٢٨٤) رسالة سماها (النكت في إعجاز القرآن) ^(٣) تناولت سبعة أسباب لإعجازه منها: البلاغة، والعجز عن المعارضة، والتحدى للكافة. ثم ألف أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي قاضي قضاة الدولة البويهية (٤١٥ هـ) ^(٤) كتابه (المفني في أبواب التوحيد والعدل) ^(٥) تناول في الجزء السادس عشر منه إعجاز القرآن، فأرجعه إلى فصاحة الأسلوب.

ثم جاء الزمخشري فطبق في تفسيره آراء المعتزلة والأشعرية ^(٦) إذ درس

(١) البيان والتبيين ١/ ١٣٩

(٢) الهدية نسبة إلى هذا، والهوية نسبة إلى هو، والماهية نسبة إلى ما هو

(٣) معجم الأدباء ١٤/ ٧٣ وطبعت الرسالة ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

(٤) طبقات الشافعية ٣/ ١١٤

(٥) تنصير وزارة الثقافة والإرشاد القومي

(٦) ألف الباقلائي المتوفى سنة ٤٠٣ كتابه إعجاز القرآن بين فيه وجوه الإعجاز التي

يتقدمها هو وأصحابه الأشاعرة وردّها إلى أسباب منها المناهي البلاغية المتصلة بالنظم أو التعبير، وقد طبع كتابه مرات.

ما ألفه سابقوه ، وتأثر بما كتبه عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) في كتابيه
(دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) .

وكان من آثار هذا أنه عني بعلوم البلاغة ، وبخاصة المعاني والبيان ، وكشف
عن كثير من ألوانهما في الآيات القرآنية ، وجلا أسرار ما فيها من روعة وجمال ،
ليبين سر الإعجاز .

وقد نبه على هذه النزعة في مقدمة الكشف ، فقال : إن طبقات العلماء
تتساوى وتتداني في متن كل علم وعمود كل صناعة ، ولكنهم يقباينون
ويتفاضلون في إدراك ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت ، ولطائف المعاني ،
وغوامض الأسرار .

ثم قال إن علم التفسير حافل بما يغمر القرائح ، ويههر الألباب ، من غرائب
النكت ودقائق الأسرار ، ولهذا لا يستطيع أن يجيل النظر فيه كل ذي علم ،
كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن ، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم
الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ
القصص والأخبار ، والواعظ الخلاب ، والنحوي المدقق ، والفقير المتعمق ،
لا يتصدى أحد منهم لسلك تلك الطرائق ، إلا إذا كان بارعا في علمين مختصين
بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان ، متمهلا في ارتيادهما والتفكير عنهما ، بعد
أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، كثير التحقيق والحفظ^(١) .. إلخ .

وتلاحظ أنه فرق بين علمي البيان والمعاني في قوله^(٢) : « لا يتصدى منهم

(١) المقدمة ٣

(٢) أطلق ابن المعتز وقدامة بن جعفر وأبو هلال العسكري وابن رشيق كلمة البديع على
مباحث علم البيان ، فجعلوا من البديع الاستعارة والمجاز والكناية والتعريض ، وهم لا يريدون علم
البديع ، بل يريدون الطريف الجميل . وكما عبد القاهر في أسرار البلاغة إذ قال في صفحة ١٣
« وأما التطبيق (الطباقي) والاستعارة وسائر أقسام البديع ... إلخ »

أحد لسلوك تلك الطرائق . . . إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ،
وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادها آونة ، وتعب في التنقير عنهما أزمنة .
وذكر هذه التفرقة في مقدمة كتابه (أعجب العجب في شرح لامية
العرب) وفي مقدمة كتابه (أساس البلاغة)^(١) .

والحق أن عبد القاهر الجرجاني كان يريد بالنظم علم المعاني أى الأسلوب ،
وكان قد ردد في كتابه أسرار البلاغة كلمة البيان ، فجاء الزمخشري وأطلق علم
المعاني وعلم البيان على ما يطلقان عليه اليوم ، وبهذا فصل العلمين بعضهما عن
بعض .

أما علم البديع فهو في رأى الزمخشري تابع للمعاني والبيان ، وليس علما
قائما بذاته .

وقد تأثر السكاكي (٦٢٦ هـ) برأى الزمخشري ، ففصله ودل عليه ، وفضله
على غيره من الآراء^(٢) فقال : إن السبب في الإعجاز هو ما يجده أصحاب الذوق
من أن وجه الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة ، ولا طريق لك إلى هذا
الأمر إلا طول خدمة هذين العلمين — المعاني والبيان — بعد فضل إلهي من
هبة يهبها بحكمته من يشاء ، وهى النفس المستعدة لذلك ، فكل ميسر لما خلق له .
ولا استبعاد في إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه ، فلكم سبحانه

(١) أساقوله بعد تفسير الآية الكريمة (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) هذا من
الصنعة البديعية التى تبلغ بالحجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق الحجاز ، ثم تقى بأشكال
لها وأخوات ، وهو المجاز المرشح (الكشاف ٢٩/١) فإنه لا يريد بالصنعة البديعية علم البديع
كأفهم بعض الدارسين .

(٢) أرجم الرماني وجوه الإعجاز إلى سبعة : الأول ترك المعارضة مع توافر الدواعى
وشدة الحاجة ، والثانى التجدى للكافة ، والثالث الصرفة ، والرابع البلاغة ، والخامس الأبناء
الصادقة عن الأمور المنقولة ، والسادس نقض العادة ، والسابم قياس القرآن بكل معجزة [النسكت
وإعجاز القرآن] ورددها بإقتلاني إلى ثلاثة الإنباء بالأمور الغيبية ، والقصص الدنية وأخبار
الأنبياء ، والمناحي البلاغية المتصلة بالنظم (إعجاز القرآن)

الذيل في إنكاره ، ثم ضمنا الذيل ما إن نذكره ، فله الشكر على جريل ما أولى ، وله الحمد في الآخرة والأولى^(١) .

وقال : ولا سبيل إلى إدراك هذه البلاغة وهذا الإعجاز إلا بالذوق والتشبع من علمي البيان والمعاني ، وإمطة اللثام عن الأسرار البلاغية لجلائها ، أما نفس وجه الإعجاز فلا يدرك^(٢) .

ثم تأثر به يحيى بن حمزة العلوي (٧٤٩ هـ) فقال في مقدمة كتابه (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز) : إن الباعث على تأليف كتابه هو أن جماعة من الإخوان شرعوا في قراءة كتاب الكشف تفسير الشيخ العالم المحقق أستاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشري ، فإنه أسسه على قواعد هذا العلم ، فاتضح عند ذلك وجه الإعجاز من التنزيل ، وعرف من أجله وجه التفرقة بين المستقيم والمعوج من التأويل ، وتحققوا أنه لا سبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن إلا بإدراكه والوقوف على أسرار وأغواره ، ومن أجل هذا الوجه كان متميزا عن سائر التفاسير ، لأنني لم أعلم تفسيرا مؤسسا على المعاني والبيان سواء ، فسألني بعضهم أن أملئ فيه كتابا يشتمل على التهذيب والتحقيق ، فالتهذيب يرجع إلى اللفظ ، والتحقيق يرجع إلى المعاني ، إذ كان لا مندوحة لأحدهما عن الثاني^(٣) .

وبحسب الزمخشري من التقدير أن ابن خلدون أرجع تفوق المشاركة على المغاربة في الدراسات البلاغية إلى أن المشرق أوفر عمرا من المغرب ، وإلى عناية العجم — وهم معظم أهل المشرق — بعلوم البلاغة وبخاصة المعاني والبيان ، كما صنف الزمخشري في تفسيره لأنه كله مبني على البلاغة ، وهو أصل لها .

(١) مفتاح العلوم ٢٤٣

(٢) مفتاح العلوم ١٩٦

(٣) الطراز ١/٥١

ثم قال: واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن . . .
وأكثر تفاسير المتقدمين غُفِّلَ عنه، حتى ظهر الزمخشري ووضع كتابه في التفسير،
وتتبع آى القرآن بأحكام هذا الفن، بما يبدى البعض من إعجازه، فانفرد بهذا
المضلل على جميع التفاسير، لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن
بوجوه البلاغة، ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة، مع وفور بضائته
من البلاغة^(١).

أما بعد فقد عرض الزمخشري لمسائل بلاغية كثيرة في توضيح وتفصيل وتجلية
لأسرار الجلال، وتظهير آيات قرآنية أخرى، وتمثيل بنصوص من الشعر البليغ
والنثر الرائع.

ولست أريد استقصاء ما عرض له، بل أريد التمثيل ببعضه، فلهذا ما يتصل
بعلم البيان، ومنه ما يتصل بعلم المعانى.

(١) في علم البيان

١ — التشبيه

عرض للتشبيه المفرد في آيات كثيرة، منها قوله في تفسير الآية الكريمة:
«إنها ترمى بشررٍ كالقصرٍ كأنه جِمالٌ صُفْرٌ»^(٢): إنها ترمى بشررٍ عظيم
كالقصور أو كالشجر الغليظ أو مثل القصر — على وزن سبب — وهى أعناق
الإبل أو أعناق النخل، كأنه جمال تضرب إلى الصفرة.

وفي شعر عمران بن حطان الغاري:

دعهم بأعلى صوتها ورمتهم
بمثل الجلال الصُفْرِ نِزَاعَةُ الشَّوَى

وقال أبو العلاء :

حراء ساطعة الدواب في الدجى ترمى بكل شرارة كطراف
فشبهها بالطراف وهو بيت الأدم في العظم والحجرة ، وكأنه قصد بحبته أن يزيد
على تشبيهه لقرآن ، ولتبجحه توهم الزيادة ، فجاء في صدر بيته بقوله حراء ، توطئة
لها ، ومفاداة عليها ، وتنبيها للسامعين على مكائدها . ولقد عنى — جمع الله له عنى
الدارين — عن قوله عز و علا (كأنه جملة صفر) فإنه بمنزلة قوله (كميت
أحمر) على أن في التشبيه بالقصر وهو الحصن أشبهها من جهتين : من جهة
العظم ، ومن جهة الطول في الهواء ، وفي التشبيه بالجمال تشبيه من ثلاث جهات :
من جهة العظم والطول والصفرة ، فأبعد الله إغرابه في طرافه ، وما تفتح به شذقيه
من استطرافه ^(١) .

واستأجد مبررا لهذه الحملة العنيفة على المعرى ، لأنه شبه الشرارة الكبيرة
بالخيمة ، والقرآن الكريم شبه الشرر بالجمال أو بالشجر الغليظ أو بأعناق الإبل
أو بجذوع النخل ، وسواء أكان تشبيه المعرى جيدا أم غير جيد ، فإنه لم يدع أن
تشبيهه يسامى تشبيه القرآن الكريم ، ولا يستطيع أحد أن يدعى له ذلك .

٢ — تشبيه التمثيل :

عرض له في قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فارححت
تجارتهم » ، وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ، فلما أضاءت
ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، صمكم سمعكم
فهم لا يسمعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون
أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين ^(٢) .

فقال : الصحيح الذى عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة ، لا يتكلف لواحد واحد شيء بقدر شبهه به ، وهو القول الفحل والمذهب الجزل .

وبيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها عن بعض لم يأخذ هذا بحجرة ذاك ، فتشبهها بنفائرها^(١) ، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامنت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا بأخرى مثلها ، كقوله تعالى « مثل الذين يحملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا »^(٢) الغرض تشبيه جال اليهود في جهلها بعامها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة ، وتساوى الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ماسواها من الأوقار ، لا يشعر من ذلك إلا بما يمر بدفتيه - بجانبه - من السكد والتعب .

وكقوله تعالى : « واضرب لهم مثلا الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح »^(٣) المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر .

فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد ، غير منوط بعضها ببعض ، ومُصَيَّرًا شيئا واحدا . . فلا ، فكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالهم ، وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة ، شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفت نره بعد إيقادها في ظلمة الليل ، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق .

وذكر بعد ذلك أن التشبيه يحى بأداه وبغير أداة .

(١) هذا هو التشبيه المتعدد

(٢) سورة الجمعة •

(٣) سورة السكف •

وفي تعليقه على الآيات نفسها ما يدل على أن التشبيه التمثيلي ينطبق أيضا على تشبيه حال بحال، وهو ما سماه التمثيل^(١) أو ضرب المثل، لأن المثل يشمل الحال والصفة والقصة، فإنه قال في تفسير « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا » :
لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتعميا للبيان .
ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر، شأن ليس بالخفي في إبراز خبيثات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك التخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبسكيت للخصم الألد، ووقع لسورة الجامع الأني، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء . قال الله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون^(٢) »

والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل وهو النظير، يقال مثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه^(٣).

فإن قلت : ما معنى مثلهم كمثل الذي استوقد نارا؟ وما مثل المنافقين؟ ومثل الذي استوقد نارا حتى شبه أحد المثلين بصاحبه؟

قلت : قد استعير المثل استعارة الأسد للعقدام، للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، كأنه قيل : حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد نارا، وكذلك قوله تعالى « مثل الجنة التي وعد المتقون^(٤) » .

أي وفيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة، ثم أخذ في بيان عجائبيها.

(١) ذكر في شرحه لمقاماته صفحة ١٥٦ أن الذي يسمى تمثيلا نحو قوله تعالى (سنسمه على الخرموم) مثل حاله في الذل والهانة بحال الموسوم على أعز موضع منه
(٢) سورة العنكبوت ٤٣
(٣) الشكاشف ٣٠/١ - ٣٣
(٤) سورة الرعد ٣٥

وقال في تفسير قوله تعالى: «يوم نقول لجهنم هل امتلأت . . .» ونقول هل من مزيد؟^(١) :

إن سؤال جهنم وجوابها من باب التخيل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب وتبينه، وفيه معنيان: أحدهما أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها، حتى لا يسعها شيء، ولا يزداد على امتلائها؛ لقوله تعالى: «لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين»^(٢)

والثاني أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد^(٣) . وقد فرق السكاكي بين التشبيه والتمثيل، ورأى أن التمثيل هو ما كان وجهه وصفاً غير حقيقى ومنزاعاً من عدة أمور^(٤) .

٣ - الاستعارة

عرض للاستعارة، فقال في تفسير الآية الكريمة: «أولئك الذين أشقوا الضلالة بالهدى»: إن الضلالة الجور عن القصد، وفقد الاهتداء، استعير للذهاب عن القصد في الدين^(٥) .

وقال في تفسير قوله تعالى: «ثم جعلناكم فئاتاً في الأرض من بعدهم، لتنتظروا كيف تعملون»^(٦) :

أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكتها، لتنتظروا كيف تعملون

(١) سورة في ٣٠

(٢) سورة السجدة ١٣

(٣) الكشاف ٢/٢٠٥

(٤) مفتاح العلوم ١٨٥

(٥) الكشاف ١/٢٩

(٦) سورة يونس ١٤

خيراً أم شراً ، فنعاملكم على حسب أعمالكم ، والنظر هنا مستعار للعلم المحقق الذي هو العلم بالشئ الموجود ، شبه بنظر الناظر وعيان المعين في تحققه .

ويتضح من تعليقه على الآية الكريمة : «صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ» أنه لا بطلان للاستعارة إلا على ما يصح أن تطلق عليه ، فلا بد فيها من حذف المشبه أو المشبه به ، لأنه يفترض سائلاً يسأل : هل يسمى ما في الآية استعارة ؟ .

ويجيب على هذا بأن الحكم مختلف فيه ، ولكن المحققين على تسمية ما في الآية تشبيهاً بليغاً لاستعارة ، لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون ، والاستعارة إنما تطلب حيث يطوى ذكر المستعار له ، ويجعل الكلام خلوا عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه أو المنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام ، كقول زهير :

لدى أسد شاكى السلاح ممْدَفٍ له لبْدٌ أخْفاره لم تُقْلَمْ

وليس لقائل أن يقول : طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدأ ، فانساق بذلك إلى تسميته استعارة ، لأنه في حكم المنطوق به ، نظيره قول من يخاطب الحاج :

أسد على وفي الحروب معامة فتخاء تنفر من صغير الصافر

وعرض للاستعارة المسكنية في قوله تعالى : «وما يضلُّ به إلا الفاسقين الذين يَمَقُّصُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ»^(١) فقال : النقص الفسخ وفك التركيب ، فإن قلت من أين ساع استعماله في إبطال العهد ؟ قلت : من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة ، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين . . . ومن أسرار البلاغة ولطائفها أن بسكتوا عن ذكر الشئ المستعار ثم رمزوا إليه

بذكر شيء من روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه، ونحوه قولك شجاع يغترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر^(١).

وتنبه إلى الترشيح في الاستعارة في تعقيبها على قوله تعالى: «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى» فقال: إن قلت هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال، فما معنى ذكر الربح والتجارة، كأن ثم مبيعة على الحقيقة؟

قلنا: إن هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالجاز الذروة العليا، وهو أن تساق كلمة مساق الجاز، ثم تبقى بأشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورواقاً، وهو الجاز المرشح. وذلك نحو قول العرب في البليد: كان أذى قلبه خطلاًوان — مسترخيتان — جعلوه كالجار، ثم رشعوا ذلك روما لتحقيق البلادة، فادعوا لقلبه أذنين، أو ادعوا لهما الخطل — الاسترخاء — ليمثلا البلادة تمثيلاً بلحقها ببلادة الجار شاهدة معانية... فكذلك لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكله ويواخيه وما يكمل ويتم بانضمامه إليه: تمثيلاً لخسارهم ونصورياً لحقيقته^(٢).

كذلك عقب على الآية السكريمة: «مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم» بأن النار يصح أن تكون مجازية كنار الفتنة والعداوة للإسلام، ويصح أن تكون نارا حقيقية أوقدها الفؤاد ليتوصلوا بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصي، فأطفأها الله. وجاز في النار المجازية أن توصف بإضاءة ما حول المستوقد على طريقة الجاز المرشح، فأحسن تدبره^(٣).

(١) الكشف ٤٨/١

(٢) الكشف ٢٩/١

(٣) الكشف ٣١/١

وقد تأثره السكاكي في شرحه الاستعارة في قوله تعالى: «فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصفون»^(١) «وراد عليه أن الكلام يحتمل أن يكون على الحقيقة»^(٢).

٤ — الكناية

ذكر الكناية ، وفرق بينها وبين التعريض^(٣) ، فالكناية في رأيه أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له ، كقولك طويل النجاد والحمائل لطويل القامة .

والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره ، ويسمى التلويح ، لأنه يلوح منه ما يريد^(٤) .

قال في تفسير الآية الكريمة: «ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم»^(٥) : هو أن يقول لها : إنك لجميلة ، أو صالحة ، أو نافعة ، ومن غرضي أن أتزوج ، وعسى الله أن يسر لي امرأة صالحة . . . ولا يصرح بالنكاح . . . فإن قلت : أي فرق بين الكناية والتعريض ؟

قلت : الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له ، كقولك طويل النجاد والحمائل لطويل القامة ، وكثير الرماد للمضياف .

والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره ، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئت لك لأسلم عليك ، ولأنظر إلى وجهك الكريم ، ولذلك قالوا :

(١) سورة النمل ١١٢ والكشاف ١/٥٣٧

(٢) مفتاح العلوم ٢٠١

(٣) جعل الزمخشري كل نوع من هذه مستقلاً عن الآخر ، على حين أن السكاكي أدخل في الكناية التعريض والتلويح والإيحاء (مفتاح العلوم ٢١٨)

(٤) الكشاف ١/١١١

(٥) سورة البقرة ٢٣٥

وحسبك بالتسليم متى تقاضياً .

وكانه إمالة الكلام إلى غرض يدل على الغرض ، ويسمى التلويح ، لأنه يلوح منه ما يريد (١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » (٢) :

لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك ، فقالوا استوى فلان على العرش ، يريدون مَلَكٌ ، وإن لم يقعد على السرير البتة ، وقالوه أيضاً لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه ، وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر (٣) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ، وَلَعَنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ، يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ » (٤) .

غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ، ومنه قوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ » (٥) : ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط ، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه ، لأنهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة ، حتى إنه يستعمله في ملك لا يعطى عطاء قط ، ولا يمنعه إلا بإشارته ، من غير استعمال يده وبسطها وقبضها ، ولو أعطى الأقطع إلى المسكيب عطاء جزئياً لقالوا : ما أبسط يده بالنوال ، لأن

(١) الكشاف ١/١١٠

(٢) سورة طه ٥

(٣) الكشاف ٢/٧٠

(٤) سورة المائدة ٦٤

(٥) سورة الإسراء ٣٩

بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود ، وقد استعملوها حيث لا تصح اليد كقوله :

جاد الحمى بسط الدين بوابل شكرت نداء قلاعه ووهاده

ولقد جعل لبعد للشئ بداً فقال : إذا أصبحت بيد الشمال زمامها .

ويقال بسط اليأس كفيه في صدرى ، فجعلت لليأس الذى هو من المعانى لا من الأعيان كفين . ومن لم ينظر في علم البيان عجز عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ^(٢) » : هذا مجاز ، والمراد قرب علمه منه ، وأنه يتعلق بأحواله تعليقاً لا يخفى عليه فيه شئ من خفياته ، فكان ذاته قريبة منه ، كما يقال الله في كل مكان ، وقد جل عن الأمكنة ^(٣) .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان : ما لها ؟ يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ^(٤) » : فإن قلت ما معنى تحدث الأرض والإيحاء لها ؟

قلت : هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان ، حتى ينظر من يقول ما لها إلى تلك الأحوال ، فيعلم لم زلزلت ، ولم لفظت الأموات ، وأن هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويحذرون منه .

وقيل ينطقها على الحقيقة ، وتخبر عما عمل عليها من خير وشر ^(٥) .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ^(٦) » :

- | | |
|------------------|------------------------|
| (١) الكشاف ١/٢٦٤ | (٢) سورة ق ١٦ |
| (٣) الكشاف ٢/٤٠٢ | (٤) سورة الزلزلة ١ — ٥ |
| (٥) الكشاف ٢/٥٥٦ | (٦) سورة يوسف ٤٤ |

أضغاث الأحلام تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفسى
أو وسوسة شيطان ، وأصل الأضغاث ما جمع بين أحلاط النبات وحرمه ،
والواحد ضِغْث ، فاستعيرت لذلك ^(١) .

وقال فى الأساس : الضغث القبضة من قضبان صغار أو حشيش بعضه فى
بعض ، وضغته جعله أضغاثاً . ومن المجاز : هذه أضغاث أحلام ، وهى ما التبس
منها ، ويقال للحالم : أضغثت الرؤيا : جثت بها ملتبسة ، وضغث الحديث :
خلطه ^(٢) .

٥ - المجاز المرسل

هو كل كلمة استعملت فى غير معناها الأصلى بعلاقة غير المشابهة مع قرينة
مانعة من إرادة المعنى الأصلى ، ومن علاقاته السببية والمسببية والجزئية والكلية
والحالية والحالية واعتبار ما كان واعتبار ما سيكون . وقد عرض الزمخشرى
له فى كثير من الآيات .

قال فى تفسير قوله تعالى : « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا ، لَتُجْزَى كُلُّ
نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ، فلا يصدُّك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » ^(٣) .
فإن قلت : العبارة لهنى من لا يؤمن عن صد موسى ، والمقصود نهى
موسى عن التكذيب بالبعث ، أو أمره بالصدق ، فكيف صلحت هذه العبارة
لأداء المقصود ؟

قلت : فيه وجهان أحدهما أن فى صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب ،
فذكر السبب ليدل على المسبب ، والثانى أن صد الكافر سبب عن رخاوة لرجل

(١) الكشف ١/ ٤٧٣ (٢) أساس البلاغة : مادة ضغث

(٣) سورة طه ١٥ - ١٦

في الدين ولين شكيمته ، فذكر المسبب ليدل على السبب . كقولهم لا أرى منك
ها هنا ، المراد منه عن مشاهدته ، والحضور بمجلسه ، وذلك سبب رؤيته إياه ،
فكان ذكر المسبب دليلاً على السبب ، كأنه قيل فكأن شديد الشكيمة حتى
لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أن يطمع في صدك عما أنت عليه ^(١) .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « كل شيء هالك إلا وجهه » ^(٢) :

كل شيء هالك إلا إياه ، والوجه يعبر به عن الذات ^(٣) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال
والإكرام » ^(٤) : المراد بالوجه الذات ، والوجه يعبر به عن الجملة والذات ، ومساكين
مكة يقولون : أين وجه عري كرم يتقذى من الهوان ^(٥) .

٦ — تجاوز العقلي

هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له ، لعلاقة مع قرينة مانعة من
إرادة الإسناد الحقيقي وهو يسكون إلى سبب الفعل أو زمانه أو مكانه أو مصدره
أو بإسناد المبني للفاعل إلى المفعول أو المبني للمفعول إلى الفاعل . وقد اعتمد
الزمخشري على هذا الحجاز كثيراً في تأويل الآيات المتصلة بحرية العباد واختيارهم
وفقاً للمذهب المعتزلة .

فقال في الآية الكريمة : « يُصَلُّ به كثيراً ويَهْدِي به كثيراً » ^(٦) : إن
إسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب ، لأنه لما ضرب المثل
فَصَلَ به قوم واهتدى قوم تسبب لضلالهم وهداهم ، وعن مالك بن دينار رحمه
الله أنه دخل على محبوبس قد أخذ بماله عليه وقيد ، فقال : يا أبا يحيى أما ترى
ما نحن فيه من القيود ؟ فرفع مالك رأسه ، فرأى سلة ، فقال : لمن هذه السلة ؟

(١) السكاك ٢٢/٢

(٢) سورة القصص ٨٨

(٣) الكشف ١٧٣/٢

(٤) سورة الرحمن ٢٧

(٥) الكشف ٢٣٥/٢

(٦) سورة البقرة ٢٦

فقال الرجل : لى . فأمر بها تنزل ، فإذا دجاج وأخبصة^(١) ، فقال مالك : هذه رضعت القيود على رجلك^(٢) .

وقال فى تفسير قوله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » ، وما كانوا مهتدين^(٣) » أسند الخسران إلى التجارة ، وهو لأصحابها على طريقة الإسناد المجازى ، وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له ، كما تبست التجارة المشترين .

فإن قلت : هل يصح ربح عبدك وخسرت جاريك إلى الإسناد المجازى ؟ قلت : نعم إذا دلت الحال ، وكذلك الشرط فى صحة رأيت أسدا ، وأنت تريد المقدم ، إن لم تفر حال دالة لم يصح .

وقل فى تفسير قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمِلُ كلُّ أنثى . وما تنقيضُ الأرحامُ وما تزدادُ ، كلُّ شيءٍ عنده بمقدار »^(٤) .

(١) فى الأفعال الثلاثة : إما موصولة ، وإما مصدرية ، فإن كانت موصولة فالعنى أنه يعلم ما تحمله من الولد على أى حال من ذكورة وأنوثة ويعلم ما تنقيضه الأرحام ، أى تنقصه ، يقال غاض الماء ، وغضته أنا ، ويعلم ما تزداده أى تأخذه زائدا ، ومنه قوله تعالى : « وازدادوا تسعا »^(٥) .

وإن كانت مصدرية فالعنى أنه يعلم حمل كل أنثى ، ويعلم غييض الأرحام وازديادها ويجوز أن يراد غييض مافى الأرحام وزيادته ، فأسند الفعل إلى الأرحام ، وهو لما فيها^(٦) .

(١) أخبصة : جمع خبيص وهو المبول من اللبن والتمر .

(٢) السكشاف ١٧/١ (٣) سورة البقرة ١٦

(٤) سورة الرعد ٨ (٥) سورة السكشاف ٢٥

(٦) السكشاف ١٨٩ :

٢ - في علم المعاني

تناول كثيرا من موضوعات علم المعاني ، مثل :

١ - القصر

قال في تفسيره لقوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ، وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ » ^(١) .

إنما القصر الحكم على شيء ، كقولك إنما ينطق زيد ، أو لقصر الشيء على حكم كقولك إنما زيد كاتب ، ومعنى « إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ » أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قدح فيها ^(٢) .

وقد رد الله عليهم أبلغ رد في قوله : « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ » لما في الألف التأكيد ، وتعريف الخبر ، وتوسيط الفصل — الضمير هم — .

وقال في تفسير قوله تعالى : « إِيَّاكَ عِبُدْ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين » ^(٣) . قدم المفعول لقصد الاختصاص ، كقوله تعالى : « قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمِرُونَني أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ » ^(٤) : والمعنى نخصك بالعبادة ونخصك بطلب المعونة .

وقال في تفسير قوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِمِ آفَتَهُ » ^(٥) . اختص هداهم بالافتداء ، أي لا تهتد إلا بهم ، وهذا معنى تقديم المفعول ، والمراد بهداهم طريقهم في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع فإنها مختلفة ^(٦) .

(١) سورة البقرة ١١ — ١٢ (٢) الكشف ٢٦/١
(٣) سورة الفاتحة ٤ (٤) سورة الزمر ٢٩
(٥) سورة الأنعام ٩٠ (٦) الكشف ٣٠٠/١

- وقال في تفسير قوله تعالى: «وَجُودٌ بِؤْمُنْزٍ نَاضِرَةٍ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ» ^(١) :
تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره ، وهذا معنى تقديم المفعول، ألا ترى
إلى قوله: «إلى ربك يومئذ المستقر» ^(٢) .
و: «إلى ربك يومئذ المسق» ^(٣) .
و: «إلى الله تصير الأمور» ^(٤) .
و: «إلى الله المصير» ^(٥) .
و: «إلى الله ترجعون» ^(٦) .
و: «عليه توكلت وإليه أيب» ^(٧) .
كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص ^(٨) .

٢ - الفصل والوصل

عرض لها ^(٩) ، فقال في تفسير قوله تعالى: «الم ذلك الكتاب لا ريب فيه -
هذه الحال للمتقين» ^(١٠) الذي هو أرسخ في البلاغة عرفاً أن يضرب عن هذه الحال
صفحة - يريد الحال النحوية - وأن يقال إن قوله (الم) جملة برأسها أو طائفة من
حروف المعجم مستقلة بنفسها، و: «ذلك الكتاب» جملة ثانية، و«لا ريب فيه»

- | | |
|---|---------------------|
| (١) سورة القيامة ٢٢ | (٢) سورة القيامة ١٢ |
| (٣) سورة القيامة ٣٠ | (٤) سورة الشورى ٥٣ |
| (٥) سورة النور ٤٢ | (٦) سورة القصص ٧٠ |
| (٧) سورة هود ٨٨ | (٨) الكشاف ٥٠٩/٢ |
| (٩) اعتبرهما من علم البيان كما صرح بذلك في الكشاف ٤٥٢/١ | |
| (١٠) سورة البقرة ١ | |

ثالثة ، و « هدى المتقين » رابعة . وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، حيث جىء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض ^(١) . . .

وقال فى تفسير الآية الكريمة : « قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون » ^(٢) :

الجملة الثانية تؤكد للأولى ، لأن قولهم (إنا معكم) معناه الثبوت على اليهودية ، وقولهم (إنما نحن مستهزئون) رد للإسلام ودفع له ، لأن المستهزئ بالشئ المستخف به منكركه ، أو بديل منه ، لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر ، أو استئناف كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم إنا معكم ، فقالوا : فما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام ؟ فقالوا : إنما نحن مستهزئون ^(٣) .

فانفصل هنا سببه أن الجملة الثانية مؤكدة للأولى ، أو بديل منها ، أو استئناف ، أو بيان لها ، أو جواب عن سؤال مقدر ، وهذه الأسباب هى التى يسميها علماء البلاغة الفصل لكمال الاتصال أو لشبه كمال الاتصال .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « ذلك الكتاب لارباب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » ^(٤) :

فإن قلت « والذين يؤمنون » أم غير الأولين ؟ أم هم الأولون ؟ وإنما وسط العاطف ، كما يوسط بين الصفات فى قولك هو الشجاع والجواد وفى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية فى المزدحم

(٢) سورة البقرة ١٥

(٤) سورة البقرة ٢ — ٤

(١) الكشف ١٦/١

(٣) الكشف ٢٨/١

قلت : يحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه ، فيكون المعطوف غير المعطوف عليه ، ويحتمل أن يراد وصف الأولين ، ووسط العاطف على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه ^(١) .

٣ - التوكيد

قال في تفسير قوله تعالى : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ، فعزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ . قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ، قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ » ^(٢) .

فإن قلت : لم قيل « إنا إليكم مرسلون » أولاً و « وإنا إليكم لمرسلون » آخرًا ؟ قلت : لأن الأول ابتداء إخبار ، والثاني جواب عن إنكار ، وقوله « ربنا يعلم » جار مجرى القسم في التوكيد ^(٣) .

والمعروف في علم المعاني أن الخبر إن كان نخلي الذهن لا يؤكد ، فإن كان لشاك أكد بمؤكد واحد ، فإن كان لمنكر أكد بمؤكدين أو أكثر .

فهل أراد الرُّخْشَرى بالخبر الأول أنه نخلي الذهن ؟ لا ، لأن الرسل إليهم كانوا في شك من صدق الرسل ، ولكنه أراد بقوله إن الأول ابتداء إخبار أى بالنسبة لهؤلاء الشاكين .

٤ - التقديم التأخير

قال في تفسير الآية الكريمة : « قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَتَّخَذَ وَلِيًّا » ^(١) .

(١) الكشاف ١٨/١

(٢) سورة يس ١٣ - ١٦

(٣) الكشاف ٢٤٩/٢

(٤) سورة الأنعام ٩

إن «غير الله» وليت همزة الاستفهام دون الفعل (أخذ) لأن الإنكار في اتحاد غير الله وليا ، لا في اتخاذ الولي ، فكان أولى بالتقديم ^(١) .

ومحوه: «أفغير الله تأمروني أعبدُ أيها الجاهلون» ^(٢)

فالتقديم هنا للاهتمام بنفي المقدم :

وقال في قوله تعالى: «ذلك الكتاب لا ريب فيه» ^(٣) : لم يقدم الظرف على الريب كما قدم على الغول في قوله تعالى: «لا فيها غول» ، ولا هم عنها يُنزعون ^(٤) . لأن القصد في إبطال الريب حرف النفي نفي الريب عنه ، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدعون ، ولو جاء الظرف بعد حرف النفي لبعد النفي عن المراد ، وهو أن كتابا آخر فيه الريب لا هذا الكتاب ، كما قصد في قوله «لا فيها غول» تفضيل خمر الجنة على خمر الدنيا بأمرها لا تغتال العقول كما تغتالها هي ، كأنه قيل ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة ^(٥) .

وقال في تفسير قوله تعالى: «وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله» ^(٦) : إن الفرق بين ظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم ، وبين النظم الذي جاء عليه أن في تقدم الخبر على المبتدأ دليلا على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعتها وإياهم ، وفي تصوير ضميرهم اسما لأن ، وإسناد الجملة إليه ، دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالون معها بأحد يتعرض لهم ، وليس ذلك في قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم ^(٧) .

(١) الكشف ٢٨٥/١

(٢) سورة الزمر ٣٩

(٣) سورة الصافات ٤٧

(٤) سورة الحشر ٢

(٥) سورة البقرة ٢

(٦) الكشف ١٥/١

(٧) الكشف ١٤٥/٢

٥ — الحذف

قال في تفسير قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ^(١) » :

إن مفعول تعلمون متروك، كأنه قيل وأنتم من أهل العلم والمعرفة، والتوبيخ فيه أوكد، أى أنتم العرافون ، المميزون ، ثم إن ما أنتم عليه في أمر دياتكم من جعل الأصنام لله أنداداً هو غاية الجمل ونهاية سخافة العقل. ويجوز أن يقدر وأنتم تعلمون أنه لا يماثل ، أو وأنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت ، أو أنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله ، كقوله : « هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ^(٢) » .

وقال في تفسير قوله تعالى « والضحى والليل إذا سجى ، ما ودّعك ربك وما بلى ^(٣) » :

حذف الضمير من قلى كحذفه من « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ^(٤) » .

يريد والذاكراته ، ونحوه فأوى ، فهدى ، فأغنى ، وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف ^(٥) .

٦ — الالتفات

عرض للالتفات ^(٦) ، فقال في الآية الكريمة : « إياك نعبد وإياك نستعين » فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب ؟

(١) سورة البقرة ٢٢ (٢) الكشف ٣٨/١

(٣) سورة الضحى ١ (٤) سورة الاحزاب ٣٣

(٥) الكشف ٥٤٩/٣

(٦) اعتبر الالتفات من علم البيان واعتبره البلاغيون بعده من علم المعاني

قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، وقد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التسكلم، كقوله تعالى: «حتى إذا كنتم في الفلك وجرّين بهم»^(١)، وقوله تعالى: «والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه»^(٢).

وقد التفت امرؤ القيس ثلاثة التفاتات في ثلاثة أبيات:

تطاول ليلك بالأثمد ونسام الخلى ولم ترقد
وبات وبات له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد^(٣)
وذلك من نبأ جاءني وخبرته عن بني الأسود

وذلك على عادة افتنائهم في الكلام، وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد. وقد تختص مواقعته بفوائد، ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، تحقيق باللهاء وغاية الخضوع والاستمانة به في المهمات، فحوطب ذلك المعلوم، المتميز بتلك الصفات، فقيل إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك، ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به^(٤).

ومما يدل على تأثر السكاكي بالزخشرى أنه عرف الالتفات بأنه نقل الكلام من الحكاية والتسكلم والخطاب والغيبة إلى واحد منها، وقال إن العرب يستكثرون منه، ويرون أن الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب

(١) سورة يونس ٢٢ (٢) سورة فاطر ٩

(٣) العائر: كل ما أمرض العين والرمد والبتر في الجفن الأسفل.

(٤) الكشف ٨/١

أدخل في القبول عند السامع، وأحسن طريقة لنشاطه، وأمثلاً في استدرار إصغائه، وهم أحرىء بذلك... ثم ذكر عدة أمثلة ختمها بأبيات امرئ القيس الثلاثة التي ذكرها الزمخشري.

ثم تَقَبَّ بما يقطع بأنه نقل عن الزمخشري إذ قال: وهذا النوع قد تختص مواقع بطائفة معان قلما تتضح إلا لأفراد بلغائهم، أو للحدائق الماهرة في هذا الفن، ومتى اختص موقعه بشيء من ذلك كساه فضل بهاء ورواق، وأورث السامع زيادة هزة ونشاط... أصغ إلى قوله تعالى: «إياك نعبد وإياك نستعين» بعد تلاوتك لما قبله، لتعلم ما موقعه، وكيف أصاب الحز، وطبق مفصل البلاغة، لسكونه منها على أن العبد المنعم عليه بتلك النعم العظام الفاتكة للخصر إذا قدر أنه مائل بين يدي موليه، من حقه إذا أخذ في القراءة أن تسكون قراءته على وجه يجد معها نفسه شبه محرك إلى الإقبال على من يحمد^(١).

٧ - التعبير بالمضارع عن الماضي

قال في تفسير قوله تعالى: «والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً، فسقناهم إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ، فَأَخْمِئْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَذَلِكَ النُّشُورُ»^(٢).
فإن قلت لم جاء «فتثير» على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟

قلت: ليحكي الحَلَّ التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهيم المخاطب أو غير ذلك، كما قال تأبط شرًا:
بأنى قد لقيت الغول تهوى بسهب كالهصيفة صحصحان^(٣)

(١) مفتاح العلوم ١٠٧.

(٢) سورة قاطر ٩.

(٣) الغول: حيوان خرافي. سهب: قلاة. صحصحان: أرض مستوية.

فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهَشٍ فَخَرَّتْ صَرِيحاً لِلْيَدِينِ وَلِلْجِرَانِ^(١)

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الفول ، كأنه يبصرهم إياها ، ويطلعهم على كنهها ، مشاهدة للعجب من جرأته على كل هول ، وثباته عند كل شدة . وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها ، لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة قيل (فسقناه) (وأحيينا) معدولاً بهما عن لفظة الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه^(٢) .

وقد نقل السكاكي مقاله الزمخشري تعقيباً على هذه الآية^(٣) .

٨ - التعبير بالماضي عن المستقبل

قال في تفسير الآية الكريمة : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ^(٤) » : إنهم كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم ، فقيل لهم « أتى أمر الله » الذي هو بنزلة الآتي الواقع ، وإن كان منتظراً لقرب وقوعه^(٥) .

وقال في الآية الكريمة : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ^(٦) » : إنه عبر بالماضي انسكتة ، وهي الإشعار بتحقيق الفزع وثبوته ، وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض ، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به ، والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون^(٧) .

(٢) الكشف ٢٣٩/٢

(٤) سورة النمل ١

(١) الجران : مقدم علق البير .

(٣) مفتاح العلوم ١٣٣

(٥) الكشف ٥١٩/١

(٦) سورة النمل ٨٧

(٧) الكشف ١٥٣/٢

٩ - الجملة الاسمية والفعلية

ذكر أن الجملة الاسمية والفعلية تدل على الدوام والاستمرار، والجملة الفعلية تدل على التجدد .

قال في تفسير الآية الكريمة: « يا أيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جازر عن والده شيئا »^(١) : إن الجزء الثاني من الآية وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه الجزء الأول ، لأن الجملة الاسمية أكد من الفعلية ، والسبب في مجيئه على هذا السنن أن الخطاب للمؤمنين ، وَعَلَيْهِمْ قَبْضَ آبَاؤُهُمْ عَلَى الْكَافِرِ وَعَلَى الدِّينِ الْجَاهِلِي ، فأريد حَسَمَ أَطْمَاعِهِمْ وَأَطْمَاعِ النَّاسِ فِيهِمْ أَنْ يَنْفَعُوا آبَاؤَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَأَنْ يَشْفَعُوا لَهُمْ ، وَأَنْ يَغْنُوا عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، فلذلك جيء به في الطريق الآكد^(٢) .

وقال في تفسير الآية الكريمة: « وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ، اللَّهُ يُمْتَهِزِي بِهِمْ »^(٣) :

فإن قلت : فهلا قيل : اللَّهُ مُسْتَهْزِئٌ بِهِمْ طبقاً لقوله إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ؟

قلت : لأنَّ مُسْتَهْزِئٌ يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتاً بعد وقت ،

وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم^(٤) .

(١) - سورة لقمان ٣٣

(٢) - الكشف ١٩٩/٢

(٣) - سورة البقرة ١٥

(٤) - الكشف ٢٨/١ .

٣ - في علم البديع

١ - الجنس :

قال في تفسير قوله تعالى : « وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ »^(١) : إن هذا من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ ، بشرط أن يحىء مطبوعا ، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام ، يحفظ معه صحة المعنى وسداده .

ولقد جاء هاهنا زائدا على الصحة ، فحُسِّنَ وبدُع لفظا ومعنى . ألا ترى أنه لو وضع مكان (نبأ) بجر لكان المعنى صحيحا ، ولكنه كما جاء أصح ، لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال^(٢) .

وقال في تفسير الآية الكريمة « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبِاسْمَاءِ أَقْوَامِي »^(٣) : إن علماء البيان استفصحو هذه الآية ، ورقصوا لها رقصهم ، لا لتجانس الكلمتين وهما ابلعي وأقلعي ، وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن فهو كغير الملتفت إليه بإزاء المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور ، وقد بين محاسن الآية^(٤) .

٢ - الطباق :

في الآية الكريمة : « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ »^(٥) ذكر السفه وهو الجهل ، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقا له^(٦) .

(١) سورة النمل ٢٢ (٢) الكشف ١٤٢/٢

(٣) سورة هود ٤٤ (٤) الكشف ٤٤١/١

(٥) سورة البقرة ١٣ (٦) الكشف ٢٧/١

٣ — تأكيد المدح بما يشبه الذم :

قال في تفسير قوله تعالى : « وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (١) :

وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان ، كقوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بين قلوب من قراع الكتاب

وقال ابن الرقيات :

وما تقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون بأن غضبوا (٢)

٤ — اللف والنشر :

هو ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال ، ثم ذكر ما السكل واحد من أحاد هذا المتعدد من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرد كل شيء إلى ما هو له ، معتداً على قرينة لفظية أو معنوية .

ذكر عند تفسير قوله تعالى : « مَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ، وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ، وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٣) :

إن قوله تعالى (لتكملوا) علم الأمر بمراعاة العدة ، و (لتكبروا) علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر ، و (لعلمكم تشكرون) علة الترخيص والتيسير ، وقال إن هذا نوح من اللف لطيف المسلك ، لا يكاد يهتدى إلى تبينه إلا النقاب المحذّر من علماء البيان (٤) .

(١) سورة البروج ٨

(٢) الكشف ٢/٥٣٥

(٣) سورة البقرة ١٨٥

(٤) الكشف ١/٨٩

• - المشاكلة

هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ، نحو قول الشاعر .

قالوا اقترح شيئاً نحدد لك طبخه قلت اطبخوا لي حبةً وقمصاً

أى خيطوا ، وذكر خياطة الحبة بلفظ الطبخ لوقوعها في صحبة طبخ الطعام . ومنه قوله تعالى : « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ » حيث أطلق النفس على ذات الله تعالى ، لوقوعه في صحبة نفسى .

وقد ذكر الزمخشري في تفسيره للآية الكريمة : « إِنْ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا » ^(١) أنه يجوز أن يقول الكفرة : أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت ؟ فجاءت على سبيل المقابلة ، وإطباق الجواب على السؤال ، وهو فن من كلامهم بدیع ، وطرار عجيب ، منه قول أبى تمام :

مَنْ مَبْلَغُ أَفْنَاءِ بَعْرَبٍ كُلِّهَا أَيْ بَدَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الْمَنْزِلِ]

وشهد رجل عند شريح فقال : إنك لسبوط الشهادة ، فقال الرجل : إسمها لم تجعده عنى : فقال لله بلادك ، وقبل شهادته . فالذى سوغ بناء الجار ، وتجميع الشهادة هو مراعاة المشاكلة ، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار ، ولولا سبوط الشهادة لامتنع تجميعها . والله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبيها ، لا تكاد تستغرب منها فئاً إلا عثرت عليه فيه على أقوم منهاهجه ، وأسد مدارجه ^(٢) .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ » ^(٣) :

(١) سورة البقرة ٢٦

(٢) الكشف ٥/١

(٣) سورة اللائدة ١١٦

المعنى تعلم معلومى ، ولا أعلم معلومك ، ولكنه سلك بالكلام طريق
للمشكلة ، وهو من فصيح الكلام وبَيَّنَّه ^(١) .

وقد نقل كلام الزمخشري بهاء الدين السبكي فى كتابه (عروس الأفراح
فى شرح تلخيص المفتاح) ^(٢) .

(١) الكشف ٢٨١/١

(٢) شروح التلخيص ٣١٢/٤

ثامناً - تعليل وتحيص

١ - تأزرت عوامل متعددة مكنت للزخشرى أن يبرع في تعليله ، فهو معتزلى ذكى ممن مروا على الجدل والحاجة ، واستكناه ما وراء الظواهر ، وهو أديب ذواقة ، قدير على التعبير عما يحتاج بنفسه ، وهو إلى هذا كله غيور على الإسلام ، غيور على القرآن ، لا يألو جهداً في الدفاع عنها ، ولا يدع تعليلاً موصولاً بتفسير الآية أو تأويلها إلا ذكره .

من ذلك أنه عند تفسير قوله تعالى في وصف أهل الجنة : « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل ، وأوتوا به متشابهاً » ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون » (١) .

قال : فإن قلت : لأى غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة ؟ وما بال ثمر الجنة لم يكن أجناساً آخر ؟

قلت : لأن الإنسان بالمألوف آنس ، وللمعهود أميل ، وإذا رأى ما لم يألف نفر عنه طبعه ، وعافته نفسه ، ولأنه إذا ظفر بشئ من جنس ما سلف له به عهد ، وتقدم له معه إلف ، ورأى فيه مزية ظاهرة ، وفضيلة يذنة ، وتفاوتاً بينه وبين ما عهد ، أفرط ابتهاجه واغتيباطه ، وطال استعجابه واستغرابه ، وتبين كنه النعمة فيه ، وتحقق مقدار الغبطة به . وإن كان جنساً لم يعهده - وإن كان فائقاً - حسب أن ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك ، فلا يتبين موقع النعمة حق التبين .

وترديدهم هذا القول ونطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها ، دليل على تناهي الأمر ، وتمادى الحال في ظهور البرية وتمام الفضيلة ، وعلى أن ذلك التفاوت العظيم هو الذى يستملى تعجبهم ، ويستدعى تبجحهم فى كل أوان ^(١) .

وفى تفسير قوله تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ^(٢) » .

قال ^(٣) : فإن قلت : لم يأتهم العذاب فى الغمام ؟ قلت : لأن الغمام مظنة الرحمة ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول ، لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم ، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أَمَرَّ ، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير ؟

لذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفزع ، لحجبتها من حيث يتوقع الغيث ، ومن ثمة اشتد على المتفكرين فى كتاب الله قوله تعالى : « وَبَدَأْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ^(٤) » .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ، لِلَّذِى ذَكَرَ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ ^(٥) » فإن قلت : هلا قيل للأُنثيين مثل حظ الذكر ، أو للأُنثى نصف حظ الذكر ؟

قلت : ليبدأ ببيان حظ الذكر لفضله ، كما ضعف حظها لذلك ، ولأن قوله (للذكر مثل حظ الأنثيين) قصد إلى بيان فضل الذكر ، وقولك للأُنثيين مثل حظ الذكر قصد إلى بيان نقص الأنثى ، وما كان المقصد منه بيان فضل الذكر أدل على فضله من المقصد إلى بيان نقص غيره عنه ، ولأنهم كانوا يورثون الذكور

(١) الكشاف ٤٤/١

(٢) سورة البقرة ٢١٠

(٣) الكشاف ٩٩/١

(٤) سورة النساء ١١

(٥) سورة الزمر ٤٧

دون الإناث ، وهو السبب لورود الآية ، فقليل كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث ، فلا يمتد في حرمانهن مع إدلائهن من القرابة بمثل ما يدل به الذكور^(١) .

وقال عند تفسير قوله تعالى : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ »^(٢) : لا تسبوا الآلهة الذين يدعون من دون الله ، فسيبوا الله ، ذلك أنهم قالوا عند نزول قوله تعالى : « إِنَّا كُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »^(٣) « لنتهمين عن سب آلهتنا ، أو لنهجون إلهك ، وقيل كان المسلمون يسبون آلهتهم ، فمها ، لئلا يكون سبهم سببا لسب الله سبحانه .

فإن قلت : سب آلهتهم حق وطاعة ، فكيف صح النهي عنه ، وإنما يصح النهي عن المعاصي ؟

قلت : رب طاعة علم أنها تكون مفسدة ، فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهي عنها لأنها معصية ، لا لأنها طاعة ، كالنهي عن المفكر ، وهو من أجل الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدي إلى زيادة الشر انقلب معصية ، ووجب الكف عنه كما يجب الكف عن المفكر .

فإن قلت : فقد روى عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا جنازة ، فرأى محمد نساء فرجع ، فقال الحسن : لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك في ديننا .

قلت : ليس هذا مما نحن بصدده ، لأن حضور الرجال الجنازة طاعة ، وليس سببا لحضور النساء ، فإنهن يحضرنها حضر الرجال أو لم يحضروا ، بخلاف سب الآلهة ، وإنما خيل إلى محمد أنه مثله حتى تبين عليه الحسن^(٤) .

(١) الكشف ١/١٩١ (٢) سورة الأنعام ١٠٨

(٣) سورة الأنبياء ٩٨ (٤) الكشف ١/٣٠٥

٢ — وهو معتزلى يحتكم إلى العقل ، ويسند إلى التفكير في تحييض ماقرأ وماسمع ، فبنى رؤية الناس للجن ، ورفض الحسد على أنه قدرة من الحاسد على التأثير في المحسود ، ولم يصدق السحر بمعنى التأثير في المسحور ، وفق مايربده الساحر .

قال في تفسير قوله تعالى : « يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة يفرع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقيله من حيث لا ترونهم »^(١) : ذلك دليل بَيِّن على أن الجن لا يُروْنَ ولا يظهرن للأنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم ، وأن زعم من يدعى رؤيتهم زور ومخرقة^(٢) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ومن شر حاسد إذا حسد »^(٣) : إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغى الغوائل للمحسود ، لأنه إذا لم يظهر أثره أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده ، بل هو الضار لنفسه ، لاغتمامه بسرور غيره . وعن عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالماً أشبه المظلوم من حاسد .

ويجوز أن يراد بشر الحاسد إثمه وسماجة حاله في وقت حسده وإظهاره أثره^(٤) .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « ومن شر النفاثات في العقدير »^(٥) :

النفاثات النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط ، وينفثن عليهما ويرقن ، والنفت النفخ مع ريق .

ولا تأثير لذلك ، اللهم إذا كان إطعام شيء ضار ، أو سقيه ، أو إشمامه ،

(١) سورة الأعراف ٢٧ (٢) الكشف ١/٣٢٤

(٣) سورة الفلق ٥ (٤) الكشف ٢/٦٨٥

(٥) سورة الفلق ٤

أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه . ولكن الله قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذى يتميز به للتثبت على الحق من الخشوية والجهالة من العوام ، فينسبه الخشوية والرعاع إليهن وإلى نفثهن ، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ، ولا يعبأون به .

فإن قلت : فما معنى الاستعاذة من شرهن ؟

قلت فيها ثلاثة أوجه : أحدها أن يستعاذ من عملهن الذى هو صنعة السحر ، أو من إثمهن فى ذلك . والثانى أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخذعن به من باطلهن . والثالث أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن . ويجوز أن يراد بهن النساء السكيات من قوله : « إن كيدهن عظيم »^(١) ، تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث فى العقد ، أو اللاتى يفتن الرجال بتعرضهن لهم ، وعرضهن محاسنهن ، كأنهن يسحرنهم بذلك^(٢) .

٣ — وكثيراً ما محص الأخبار والآراء التى ذكرها سابقوه تمحيصاً دالا على دقة نظره ، وحرصه على نقاء العقيدة وتصفيتها من شوائب الإسرائيليات والأساطير .

ففسر قوله تعالى فى سورة يوسف : « ولقد هَمَّتْ بِهَا وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ رَهَانَ رَبِّهِ »^(٣) تفسيراً مقصلاً انتهى إلى أنها همت بمخالطته وهم بمخالطتها ، لولا أن رأى رهان ربّه .

ثم ذكر ما قاله سابقوه من المفسرين ، فقال إن بعضهم فسر همّ يوسف بأنه حل الإثميان ، وجلس منها مجلس الجامع ، وبأنه حل سراويله ، وقعد بين

شعبها الأربع ، وهي مستلقية على قفاها ، وفسر البرهان بأنه سمع صوتا بإياك وإياها ، فلم يكثر له ، فسمع ثانياً ، فلم يعمل به ، فسمع ثالثاً ، فأعرض عنه ، فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضاً على أُمَّلته ، وقيل ضرب بيده في صدره ، فخرجت شهوته من أنامله ، وقيل كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف ، فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين همّ .

وقيل صبح به يابوسف لا تكن كالطائر كان له ريش ، فلما زنا قعد لاريش له ، وقيل زبدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها « وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين » ^(١) فلم ينصرف ، ثم رأى فيها « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » ^(٢) ، فلم ينته ، ثم رأى فيها « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » ^(٣) فلم ينجع فيه ، فقال الله لجبريل : أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة ، فأنحط جبريل وهو يقول يابوسف أتعمل عمل السفهاء ، وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء ؟

وقيل رأى تمثال العزيز ، وقيل قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته ، وقالت : أستحي منه أن يرانا ، فقال يوسف : استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ولا أستحي من السميع البصير العليم بذات الصدور ؟

وعلق الزمخشري على هذا بقوله : وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه . وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم - بحمد الله - بسبيل .

ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه ، وذكر توبته واستغفاره ، كما نعيت على آدم ذلته ، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذي النون ، وذكر توبتهم واستغفارهم .

كيف وقد أثنى الله عليه وسماه مخلصاً . فَعَلِمَ بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدَّخْصُ ، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة والعزم ، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح ، حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين ، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصدق لها .

وقد استوفى القرآن الكريم قصته ، وضرب سورة كاملة عليها ، ليجعل له لسان صدق في الآخرين ، كما جعله لجدّه الخليل إبراهيم عليه السلام ، وليقتدى به الصالحون في العفة وطيب الإزار ، والتثبت في مواقف العثار . فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدي إلى أن يسكون إنزال الله السورة ليقبتدى بنبي من أنبياء الله في القعودين شعب الزانية ، وفي حل تسكّته للوقوع عليها ، وفي أن ينهأه ربه ثلاث كرات ، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات ، بقوارع القرآن ، وبالتوبيخ العظيم ، وبالوعيد الشديد ، وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سقط غير أشاه ، وهو جاثم في مَرَبَضِهِ لا ينتهي ولا ينتبه حتى يتداركه الله بحبريل وبإجباره .

ولو أن أوقع الزناة ، وأحدقهم حدقة ، وأجلحهم وجهاً ، لَقِيَ بأدنى ما لقي به نبي الله مما ذكروا لما بقي له عرق ينبض ، ولا عضو يتحرك .
فياله من مذهب ما أخشاه ومن ضلال ما أيبته ^(١) .

كذلك استقيح ما ذكره عن تعلق داود عليه السلام بامرأة ، وذكر أن

على بن أبي طالب قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده
مئة وستين جلدة ، وهو حد القرية على الأنبياء ^(١) .

وعلق على ما يروى في الحديث : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه
حين يولد ، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه ، إلا مريم وابنها » فقال : الله
أعلم بصحته ، وإن صح فعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه ، إلا مريم
وابنها كانا معصومين ، وكذلك كل من كان في صفقتها ، لقوله تعالى : « وَلَا غُورَ لَهُمْ
أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ » ^(٢) .

وأما حقيقة المس والنخس كما يقوم أهل الحشو فكلّاً ، ولو سلط إليهم
على الناس ينخسهم لامتلات الدنيا صراخاً وعياطاً مما ييلوننا من نخسه ^(٣) .

٤ — على أنه لم يسلم من أغلاط كان المفروض ألا يقع فيها كما وقع غيره ،
وذلك أنه ذكر بعض الإسرائيليات بعد أن قدم لها أو عقب عليها بطلانها ،
ولسكنه ذكر بعضها بغير أن يبدي رأيه فيها ، وكان المرجو منه أن يهملها
إهمالاً ، أو يذكرها على أنها من الأساطير .

قال في تفسير الآية الكريمة : « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلّع
عند قوم لم نجعل لهم من دونها بيثراً » ^(٤) : إن بعضهم قال : خرجت حتى
جاورت الصين ، فسأت عن هؤلاء ، فقل إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة ،
فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى ، ومعنى صاحب يعرف لسانهم ،
فقالوا له : جئنا ننظر كيف تطلع الشمس ؟ فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة
الصلصلة ، فمُشِيَ على ، ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن ، فلما طالعت الشمس
على الماء إذا هي فوقه كهيئة الزيت ، فأدخلونا سرباً لهم ، فلما ارتفع النهار خرجوا

(١) الكشف ٢٧٩/٢ (٢) سورة الحجر ٣٩ — ٤٠

(٣) الكشف ١٤٢/١ (٤) سورة الكهف ٩٠

إلى البحر يصطادون السمك ، ويطرحونه في الشمس فينضج لهم ^(١) .

وعند تفسير قوله تعالى : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمتُ لكم من إله غيري ، فأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطين ، فأجعل لي صَرْحًا لَعَلِّي أُطِيعَ إِلَى إله موسى » ^(٢) .

ذكر أنه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال ، حتى اجتمع خمسون ألف بَناة سوى الأنباغ والأجراء ، وأمر بطبخ الآجر والحصص ونجر الخشب وضرب المسامير ، فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق ... فبعث الله جبريل عند غروب الشمس ، فضربه بجناحه ، فقطعه ثلاث قطع ، وقعت قطعة على عسكر فرعون ، فقتلت ألف ألف رجل ...

ويروى في هذه القصة أن فرعون ارتقى فوقه فرمى بِدُشَابِهِ إِلَى السَّاءِ ، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَفْتَنَهُمْ ، فَدَرَّتْ إِلَيْهِ مَلْطُوخَةٌ بِالْدمِ ، فَقَالَ : قد قتلت إله موسى ، فعندها بعث الله جبريل لهدمه ، والله أعلم بصحته ^(٣) .

وفي تفسير قوله تعالى : « أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ » ^(٤) قال إن السحاب من السماء ينحدر ، ومنها يأخذ ماءه ، لا كزعم من يزعم أنه يأخذه من البحر ، ويؤيده قوله تعالى : « وَيُنْزَلُ مِنَ السَّاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ » ^(٥) .

وذكر عند تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض » ^(٦) أن

(١) السكشاف ٥٧٧/١ (٢) سورة القصص ٣٨

(٣) السكشاف ١٦٣/٢

(٤) سورة البقرة ١٩

(٥) سورة التور ٤٣ والسكشاف ٣٣/١

(٦) سورة الحجرات ٢

العباس بن عبد المطلب كان أجهر الناس صوتا ، ويروى أن غارة أُنْتَهَم يوماً
فصاح العباس : يا صباحاه ، فأسقطت الحوامل أشدة صوته .

وزعمت الرواة أن أبا عروة كان يزجر السباع عن الغنم ، فيمتق مرارة السبع
 في جوفه^(١) .

وكلمة يروى في الأخبار عن العباس ، وكلمة زعمت الرواة في الإخبار عن
 أبي عروة ، لا تعنيان الزمخشري ، لأن هذا من الأساطير التي كان من واجبه
 أن يهملها ، إذ أنها من الاستطراد الذي لا علاقة له بتفسير الآية ، أو يعقب
 عليها بنفيها .

(١) الكشف ٣٩٠/٢

قيمة الكشف وأثره

من هذه الجولة في رحاب الكشف يتبين أنه موسوعة في التفسير حافلة بموضوعات كثيرة في الاعتزال واللغة والنحو والبلاغة والأدب والفقه والقراءات، وما يتصل بها من تعليل وتدليل وتمحيص .

ويبدو أن الزمخشري أعجب بتفسيره بعد إكماله، كما كان معجباً بأوائله التي أملاها على بعض المعتزلة، فافتخر بقوله ^(١) :

وناهيك بالكشاف كنزاً نضارُهُ يعلم تمييزَ الجيادِ الصيارفا
وتخفق أوراق المصاحف هزةً لهن معاني يزدهين المصاحفا
فما في بلاد الشرق والغرب ناقد يقلبها دهرًا فيخرج زائفا
وكرر ثناءه على الكشف في قوله ^(٢) :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمري مثل كشاف
إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشافي
ولقد كان للكشاف دوىٌ منذ ألفه صاحبه، ظهرت أصداؤه في الثناء عليه آناً، كما ظهرت في العناية به اختصاراً وتعليقاً وردوداً .

فمن الذين أثنوا عليه ابن خلدون، إذ قسم كتب التفسير قسمين : نقلی مسند إلى الآثار المنقولة عن السلف، وصنف آخر معتمد على اللغة والإعراب والبلاغة .

ثم قال : ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري . من أهل خوارزم العراق ، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد ، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة ، حيث تعرض له في آي القرآن الكريم من طرق البلاغة ، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه ، وتحذير للجمهور من مكانته ، مع إقرارهم بفسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة .

وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية ، محسناً للحجاج عنها ، فلا جرم أنه مأمون من غوائله ، فلتغتم مطالعته لغاية فنونه في اللسان ^(١) . وعرض له مرة أخرى فأثنى عليه ، لتفوقه على غيره بالكشف عن الأسرار البلاغية ، ثم عقب بقوله : لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ، ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة ، مع وفور بضاعته من البلاغة .

فمن أحكم عقائد السنة ، وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه ، أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضر معتقده ، فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب ، للظفر بشيء من الإعجاز مع السلامة من البدع والأهواء ^(٢) .

ومنهم يحيى بن حمزة العلوي ، فقد ذكر في مقدمة كتابه [الطراز] أن الباعث على تأليف كتابه هو أن جماعة من إخوانه قرأوا تفسير الشيخ العالم المحقق أستاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشري ، الممتاز بأنه مؤسس على قواعد علم المعاني والبيان ، وتحققوا أنه لا سبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن إلا بإدراكه ، والوقوف على أسرار وأغواره ، ومن أجل هذا الوجه كان متميزاً عن سائر التفاسير ، لأنني لم أعلم تفسيراً مؤسساً على المعاني والبيان سواه ، فسألني بعضهم أن أملئ فيه كتاباً يشمل على التهذيب والتحقيق ، فالتهذيب يرجع إلى

اللفظ ، والتحقيق إلى المعاني ، إذ كان لامتدوحة لأحدهما عن الثاني ^(١) .

ومن اختصروه البيضاوى بعد أن جرده من الاعتزال ، وقرر آراء أهل

السنة ، ثم جاء النسفى فاختصر الكشاف وتفسير البيضاوى .

أما المعقبون عليه فكثير ، منهم أحمد بن محمد بن منصور الجذامى الإسكندرى المالكى قاضى الإسكندرية المشهور بأبى العباس ابن المنير ، كان إماما فى النحو والأدب والأصول والتفسير ، وله يد طويلة فى علم البيان والإنشاء ، خطب بالإسكندرية ودرس فيها وناب فى الحكم بها ، ثم اشتغل بالقضاء . توفى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) وله مصنفات منها الانتصاف من صاحب الكشاف ^(٢) ، ناقش فيه الزمخشرى ، وعارضه ، ونصر مذهب أهل السنة على مذهب المعتزلة ، بدليل قوله : الحمد لله الذى أهل عبده الفقير إلى التورك عليه ، لأن آخذ من أهل البدعة بشار أهل السنة ، فأصمى أفئدتهم من قواطع البراهين بمقدمات الأسنة ^(٣) .

ولكنه مع ذلك اعترف بفضل الزمخشرى فى الكشف عن وجوه إعجاز القرآن البلاغية التى تؤكد أنه كلام الله سبحانه ^(٤) .

ومنهم شرف الدين الحسن بن محمد الطيبى ٧٤٣ هـ (١٣٦١ م) فى كتابه (فتوح الغيب فى الكشف عن قناع الريب) وقد ذكره ابن خلدون فى قوله : لقد وصل إلينا فى هذه العصور تأليفه الذى شرح فيه كتاب الزمخشرى ، وتبع أنفاظه ، وتعرض لمذاهبه فى الاعتزال بأدلة تزيفها ، وتبين أن البلاغة إنما تقع فى الآية على ما يراه أهل السنة لأعلى ما يراه المعتزلة ، فأحسن فى ذلك ما شاء ، مع إمتاعه فى سائر فنون البلاغة ، وفوق كل ذى علم عليم ^(٥) .

وهناك كثير غير هؤلاء ^(٦) .

(١) الطراز للعلوى ٥/١ (٢) بنية الوعاة ١٦٨ . (٣) هامش الكشاف ٣٩٩/١

(٤) هامش الكشاف ٥٧٣/١ (٥) مقدمة ابن خلدون ٩٩٩

(٦) كشف الظنون ٣٠٩/٢ - ٣١٦

الفصل السابع في بحر اللغة

تفوق الزمخشري في اللغة كما تفوق في التفسير ، وقد تجلت عنايته باللغة وحقائقها ومجازاتها ونصوصها ونحوها في تفسيره السكشاف .
ولكن له جهودا عظيمة أخرى في اللغة العربية تنبئين من مؤلفاته فيها ،
حسبنا أن نذكر منها ما يأتي :

(١) أساس البلاغة

كان الخليل بن أحمد (١٨٠هـ) أول من دون معجما لغويا سماه كتاب العين ،
جمع فيه كثيرا من ألفاظ اللغة ، ورتبها حسب مخارجها من الخلق فاللسان
فالأسنان فالشفقتين ، ووضع أحرف العلة في آخر السكتاب ، وقد سمي كتابه
العين ، لأنه بدأه بحرف العين .

ثم سار كثير من مؤلفي المعاجم على طريقة الخليل ، كما نجد في البارع لأبي
علي القالي ^(١) (٣٥٦ هـ) وفي تهذيب اللغة للأزهري (٣٧٠ هـ) وفي المحكم
لابن سيده (٤٥٨ هـ) .

ولكن بعض اللغويين اتجهوا اتجاهين آخرين في ترتيب المعاجم ، فألف
الجوهري (٣٩٨ هـ) « تاج اللغة وصحاح العربية » مراعيًا في ترتيب ألفاظه
أواخر الكلمات ، كما فعل ابن منظور والفيروزابادي فيما بعد .

ورتب أحمد بن فارس (٣٩٠ هـ) كتابه الجمل في اللغة ، على أساس الحرف الأول
والثاني والثالث ، غير أنه التزم في ترتيبه الهجائي ما بعد الحرف الأول من حروف

(١) بقيت منه نكت في مكتبة باريس

المجاء إلى أن يبلغ الياء ، ثم يعود فيذكر ما بعده من الهمزة إلى ذلك الحرف ،
فمثلا عقد فصلا للراء ، ولكنه لم يذكر الراء مع الهمزة ثم مع الباء ثم مع التاء
وهكذا ، بل ذكر الراء مع الزاي ، ومع السين ، ومع الشين ، ومع الصاد
إلى الياء ، ثم عاد فذكر الراء مع الهمزة وما بعدها إلى الزاي .

طريقته

١ - ثم جاء الزخشرى ، فأف كتابه أساس البلاغة على نهج هجائى
أرق وأسهل من نهج ابن فارس ، إذ التزم الحرف الأول وما يليه من حروف
المجاء ، فعقد بابا للهمزة ، فرع منه الهمزة مع الباء (أب ، أبر ، أبس ، أبش ،
أبص ، أبط وهكذا إلى أبى) وفرع منه الهمزة مع التاء (أتب ، أتم ، آتى)
وفرع منه الهمزة مع الناء (أئر ، أثف ، أثل أثم الخ) وفرع الهمزة مع الجيم
(أيج ، أجد ، أجر الخ) وفرع الهمزة مع الحاء ومع الخاء ومع الدال وهكذا :
وسار على هذا النهج فى كل حرف .

ولا شك أن هذا الترتيب الدقيق السهل جدير بقوله فى المقدمة : « وقد
رتب الكتاب على أشهر ترتيب متداول ، وأسهله ، متناولا ، يهجم فيه الطالب
على طلبته موضوعة على طرف النمام وحبل الذراع ، من غير أن يحتاج فى التنقيب
عنها إلى الإبحاف والابضاع ، وإلى النظر فيما لا يوصل إلا بإعمال الفكر إليه ،
وفى دق النظر فيه الخليل وسيبويه » .

٢ - شرح المعانى الحقيقية للكلمات ، وأضاف إلى هذه المعانى الاستعمالات
الحجازية ، فقال مثلا فى مادة ثقب : ثَقَّبَ الشئ بالثقب ، وثَقَّبَ اللآل الدر ،
ودر مُثَقَّبٌ ، وعنده دُرٌّ عذارى لم يثقين ، وثَقِّنَ البراقع لعيونهن

ومن المجاز: كوكب ثاقب ودري: شديد الإضاءة والتلألؤ، كأنه يثقب الظلمة فينفذ فيها ويدروها، وقد ثَقَبَ ثَقُوبًا، وكذلك السراج والنار، وثَقَبَتْها وأثَقَبَتْها، وأثَقَبَ نارك بثقوب، وهو ما يثقب به من حُرَاقٍ وبعرٍ ونحوها. ورجل ثَقِيب وامرأة ثَقِيبَة: مشبهان للهب النار في شدة حمرتهما، وفيها ثَقَابَة، وحسب ثاقب: شهير، ورجل ثاقب الرأى إذا كان جزلا نظارا، وأتقنى عنك عين ثاقبة أى خبر يقين، وثَقَبَ الطائر إذا حلق كأنه يثقب السكك (الجو) وثقب الشيب في اللحية أخذ في نواحيها.

وقال في مادة حلف: حلف بالله على كذا خلفا، وهو خَلَّافٌ وخَلَّافَةٌ، وحلف خَلْفَةً فاجر، وأخْلُوفَةٌ كاذبة، وحالفه على كذا، وتحالفوا عليه واحتلفوا، وحلَّفَ خصمه وأحلَّفَه، واستحلَّفه القاضي.

ومن المجاز: بينهم حلف أى عهد، وهم حلفاء بى فلان وأحلافهم، وهذا حليفى، وهو حليف الندى وحليف السَّهَر، وفلان يخالف لفلان لازم له؛ وسنان حليف، ورجل حليف اللسان يوافق صاحبه على ما يريد لخدمته كأنه حليفه... الخ.

وقال في مادة كبد: هو يأكل كبود الدجاج وأكبادها؛ وكَبِدَتْهُ: أصبت كبده؛ وكَبِدَ فلان فهو مكبود، ورجل أكبد؛ وأصابه الكَبَاد.

ومن المجاز: بلغ كبد السماء وكَبِدَاءَ السماء، وتكَبِدَتِ الشمس توسطت السماء، وتكَبِدَتِ الفلاة: توسطتها، وتكَبِدَ اللبن: خثر، وفرس وجل أكبد: واسع الجوف ناهد موضع الكبد، وهو يبعث عن كبد الأرض وأكبادها: وهى معادنها، ورمت إليه الأرض بأفلاذ كبدها: بكنوزها وذخائرها، ووقع فى كَبِدٍ: فى مشقة، ونقول للخصماء إنهم لى كَبِدٍ من أمرهم، وبعضهم يكابد بعضا، والمسافر يكابد الليل إذا ركب هوله وصعوبته.

وقد يتعمق فيذكر مجاز الجاز ، كقوله في مادة نطح : تناطحت الكباش وانتطحت ، ومن الجاز : تناطحت الأمواج والسيول ، وأصابه ناطح : أمر شديد ، ونطير من النطيح والناطح : وهو المستقبل مما يُزَجَر . ومن مجاز الجاز : رجل نطيح : مشثوم .

وقوله في مادة نطع : على بالسيف والنطع ، ومن الجاز : تنطع في كلامه إذا تفصح فيه وتعمق . ومن مجاز الجاز تنطع الصانع : تحذق في صناعته .

٣ — ذكر تصاريف الكلمات ومشتقاتها وجوعها ومزاداتها ومعاني كل منها ، مرتبا بعضها على بعض ، ومتدرجا بعضها وراء بعض ، وسلكها في عبارات عدة تفصح عن معانيها ، وتميز مجازاتها من حقائقها ، سواء أكانت هذه العبارات شعرا أم نثرا ، قديمة أم محدثة ، وسواء أكانت من عصر الاحتجاج - من الجاهلية إلى القرن الثالث - أم مما بعده ، لأنه أراد أن يبين دلالات الكلمة في نصوص بليغة ، وليس يعنيه أن تكون هذه النصوص قديمة أم حديثة .

على أنه في كثير من الأحيان لم يقتصر على نصوص من كلام غيره ، بل أدار الكلمات في عبارات من عنده ، لأنه طبق ما قاله في المقدمة : « ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع في عبارات المبدعين ، وانطوى تحت استعمال المفلتين ، أو ما جاز وقوعه فيها وانطواؤه تحتها ، من التراكيب التي تملح وتحسن ، ولا تنقبض عنها الألسن » .

وقد تكون عباراته من أحد كتبه الأدبية التي ألفها قبل الأساس .

وهذه أمثلة من أساس البلاغة على غير عهد :

قال في مادة حصد : حَصَدَ الزرع : جَزَّه فهو حصيد ، وجمعه حصائد ، وهذا زمان الحصاد : « وآتَوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » ^(١) .

ومن الحجاز : حَصَدَهُم بالسيف : قتلهم ، « وهل يُكَبُّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم » ^(٢) .

وقال في مادة (بلو) 'بَلَى فلان' : أصابته بلية ، قال :

'بَلَيْتُ' وفقدان الحبيب بَلِيَّةٌ وكَم من كريم يُبْتَلَى ثم يَصْبِرُ
ومنه قولهم : لا أباليه أى لا أخبره لقلة اكترائى له ، وهو أفصح من
لا أبالي به ، قال زهير :

لقد باليت مَطْعَنَ أم أَوْفَى ولكن أم أَوْفَى لا تُبَالِي
وقولهم : أبليته عنراً إذا بينت له بيانا لا لوم عليك بعده ، حقيقته جعلته
باليا لعذرى ، أى خابراً له علما بكنهه ، وكذلك أبليته يمينا ، قال جرير :
فأبلى أمير المؤمنين أمانةً وأبلاء صدقاً في الأمور الشدائد
وابتليت الأمر : تعرفته ، قال :
تسائل أسماء الرِّفَاقَ وتبَّتلى ومن دون مائة وِثْنِ بابٍ وحاجبُ
يريد أنه محبوب .

ومن الحجاز : بلوت الشيء شمتته ، قال يصف للماء الآجن القديم :
بأصْفَرَ وَرْدِ آلٍ حَتَّى كَانُوا يَسُوفُ بِهِ الْبَالَى عَصَاةَ خَرْدَلٍ
وقال في مادة رقن : رَقَنَ الكتاب : كتبه كتابة حسنة ، والترقيش
الترقيش ، قال رؤبة :

دار كخط الكاتب المرقن

وفي نوايخ الكلم : العلم درس وتلقين ، لا طرس وتلقين (٢) .
وقال في مادة رنج : رنج فلان وترنج إذا دبر به وتمایل كالسكران ، ورنجته
الشراب ، قال :

وكأسٍ شربتُ على لذّةٍ دهاقٍ ترنج من ذاقها
ومن المجاز : رنجت الريح الغضا فترنج ، ولقد ترنج على فلان إذا مال
عليك ، انتطاول والترقع ، قال أبو القريب البصري :

ترنج بالكلام على جهلاً كأنك ماجد من آل بدر
ويقول في مادة شب : شببت النار : رفعتها ، وشب الصبي شاباً ، وقوم
شبان وشباب وشببة ، وتقول : كان عصر شباني أحلى من العسل الشباني ،
منسوب إلى بني شبابة من أهل الطائف ، وتقول المرء في شبابه كالمهر في
شبابه .

ومن المجاز والكناية . شببت الحرب بينهم ، وسمعت من يحيى النار
وهو يقول :

تَشَبَّبَ النَّيْمَةُ تسعى بها زهراً إلى تيممه

وهو كقولهم : أوقد بالنميمة ناراً ، قال عمر بن أبي ربيعة :

ليس كالعهد إذ علمت ولكن أوقد الناس بالنميمة ناراً
وشب الحمار وجهها ، وهو شبوب لوجهها

وقال في مادة نقد : تقول النَّقْدَةُ إليهم كأنهم النَّقْد ، وقد عاث فيها الذئب
الأعقد^(١) .

وقال في مادة مري : ومن الحجاز قَزَع مَرْوَنَه^(٢)

ونلاحظ أنه يذكر موضوع النص أحياناً كقوله في مادة : بضع .

قال أوس بن حجر في صفة القوس :

وَمَبْضُوعَةٍ مِنْ رَأْسِ قَزَعٍ شَخِيَّةٍ بَطُونٍ تَرَاهُ فِي السَّحَابِ مَكَلًّا

وقوله في مادة خرج : قال زهير يصف الخيل :

وَحَرَّجَهَا صَوَارِخَ كُلِّ يَوْمٍ فَقَدْ جَعَلَتْ عَرَائِسَهَا تَلِينُ
أَرَادَ وَأَدْبَهَا كَمَا يُخْرِجُ الْمُتَلَمِّمُ .

وقال في مادة طفل : هو طفل بين الطفولة ، وامرأة وخطيبة مُطْفَل ، وَطَفَلَتْ
ولدها : رشحته ، قال الأخطل يصف سحاباً :

إِذَا زَعَرَعْتَهُ الرِّيحُ جَرَّ ذُبُولَهُ كَمَا زَحَفَتْ عُودٌ نَقَالَ نُطْفَلُ

وقال في مادة تنخ : تَنَخَّتْ الشُّوكَةُ مِنْ رَجُلٍ بِالْمُنْتَاخِ ، بِالْمُنْقَاشِ ، وَتَنَخَّ
الْبَازِيُّ اللَّحْمَ عَذْرَاهُ ، وَتَنَخَّ الْقَلَاعُ الضَّرْسَ : نَزَعَهُ . قال زهير يصف غزواً :

تَذَبَّدَ أَفْلَاءُهَا فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ تَنَخُّخُ أَعْيُنُهَا الْعِيقَانُ وَالرَّخَمُ

وفي كثير من الأبيات لم يذكر القائل ، مكتفياً بكلمة قال ، وأغلب
الظن أن القائل لم يكن معلوماً له ولا لسابقيه الذين نقل عنهم .

كقوله في مادة جرد : ومن الحجاز : كيف حرثك أي امرأتك ، قال :

(١) هذه العبارة من مقامات الزمخشري ١٠٠ النقد : جف من الفم قبيح ..
الأعد : المتوى

(٢) وردت في المقامات ٧٢

إذا أكل الجرادُ حُرُوثَ قَوْمٍ فَحَزَنِي هُمُ أَكْلُ الْجَرَادِ
 وقوله في مادة دوح : وفلان يلبس الدّاح وهو الوشْيُ والنقش ، قال :
 يَلْبَسُ الْوَشْيَ عَلَى شَيْبِهِ مَا أَقْبَحَ الدّاحِ عَلَى الشَّيْخِ
 وقوله في مادة نفج : وكانوا يقولون : هذيلك النافجة ، وهي البنت ، لأنه
 كان يأخذ مهرها فينفج ماله أى يوسعه ويعظمه ، وأشد الجاحظ :

وليس تلادى من ورائة والدى ولا شأنٌ مالى مُسْتَفَادُ النَّوَافِجِ
 ٥ — على أنه أغفل بعض المواد التي نجدُها في لسان العرب وفي القاموس
 المحيط ، ولعله وجدها ليست من المواد الثرية بالمعاني والمشتقات ، فذكر مثلاً في
 الجيم مع الهاء : جهر ثم جهش ، ولم يذكر جهز .

وذكر في الحاء مع القاف حقل ثم حقن ولم يذكر حقم .
 وذكر في الراء مع التاء رتل وبعدها رتم ولم يذكر رتن ولا رثن .
 وذكر في السين مع الواو سود وبعدها سور ، ولم يذكر سوخ :
 وذكر في العين مع الكاف عكف وبعدها عكم ولم يذكر عكل .
 وذكر في النون مع التاء نأ وبعدها نتج ولم يذكر نتب .

قيّمته وآثره

١ — هذا الكتاب معجم لغوى جمع المفردات ومعانيها الحقيقية والجازية ،
 وكثيراً من النصوص البليغة التي وردت فيها ، فلم تحجّ المفردات جوامد
 منقطعة عن الاستعمال ، بل جاءت في سياق من التركيب أضفى عليها حياة .

وقد كان الزمخشري يبتغى من تأليفه الكشف عن أسرار اللغة ، للوقوف
 على وجوه الإعجاز ، وليس من المستطاع هذا الكشف إلا بتذوق معاني
 المفردات في قولها ، ومعرفة حقائقها ومجازاتها كما قال في المقدمة .

٢ - وهو إلى هذا ينبوع يغذى الملكة الأدبية، ويزود الشدة بفنائس اللغة وآدابها، وقد كان الزمخشري أدبياً بصيراً بما ينهض بأساليب الأدباء الناشئين، لأنه جرب هذا الطور من قبل، ولهذا قال في المقدمة: فمن حصل هذه الخصائص، وكان له حظ من الإعراب... وأصاب ذرواً من علم المعاني، وحظي برش من علم البيان، وكانت له قبل ذلك قريحة صحيحة وسليقة سليمة، فحل نثره، وجزل شعره ولم يطل عليه أن يناهز المقدمين، ويخاطر المقرئين.

٣ - وقد سلك مؤلفو المعاجم بعد الزمخشري طريقتين، فبعضهم حاكي الجوهرى في ترتيبه كتابه الصحاح، وبعضهم تأثر بطريقة الزمخشري في الترتيب الهجائى الذى التزمه، وكان أبرع فيه وأدق وأسهل.

أما الفريق الأول فيمثلته ابن منظور (٦٣٠ - ٧١١ هـ) مؤلف لسان العرب، والفيروز ابادى (٧٢٩ - ٨١٧ هـ) مؤلف القاموس المحيط، فإنهما عدلا عن الترتيب الهجائى إلى نظام الحرف الأخير من الكلمة الذى سار عليه الجوهرى فى الصحاح.

وربما كان سبب ذلك أنهما لم يرتضيا طريقة الزمخشري في ترتيب الكلمات ولا مسلكه في التفريق بين الحقيقة والمجاز، ولا طريقته فى الاستشهاد بنصوص من البلغاء بعد عصر الاحتجاج، وليس بمستبعد أن يضاف إلى هذين السببين سبب ثالث هو أن الزمخشري زعيم المعتزلة فى عصره، وابن منظور والفيروز ابادى من أهل السنة، وبين الفريقين ما بينهما من خصومة وعداء.

وأما الفريق الثانى فيمثلته الفيومى (توفى سنة ٧٦٦ هـ) مؤلف المصباح المنير، ثم اللجنة التى شكلتها وزارة المعارف المصرية برئاسة محمود خاطر بك فرتبت مختار الصحاح للرازى (توفى عام ٧٨٠ هـ)، وطارس البستاني مؤلف محيط المحيط،

وسعيد الشرتوني مؤلف أقرب الموارد؟ ومجمع اللغة العربية في المعجم الوسيط .

٤ — وازال أساس البلاغة في صدارة معاجمنا اللغوية . نستشير . وتستنبط منه ، ونأنس إليه ونثق به ، لأن مؤلفه كما قال ابن حجر العسقلاني : « في غاية المعرفة بفنون البلاغة ، وتصرف الكلام ، وكتابه من أحسن الكتب ، وقد أجاد فيه ، وبيّن الحقيقة من المجاز في الألفاظ المستعملة إفراداً وتركيباً ^(١) » .

(٢) المستقصى في أمثال العرب

منذ زمن مبكر عني كثير من اللغويين والأدباء بتقديم أمثال العرب ، مثل أبي عبيدة والأصمعي وأبي عبيد وأبي زيد والمفضل بن محمد والمفضل ابن سالم .

ثم جاء الرّمحشري والميداني (٥١٨ هـ) فألغا كتابيهما في زمن واحد . أما كتاب الرّمحشري فهو (المستقصى في أمثال العرب) فرغ من تأليفه سنة ٤٩٩ هـ .

وأما كتاب الميداني فهو (مجمع الأمثال) .

وقد رتب الرّمحشري كتابه ترتيباً هجائياً ، كما صنع في أساس البلاغة ، فبدأ بالأمثال التي أولها همزة ، ثم باء وهكذا إلى الياء ، مراعيّاً في الترتيب الحرف الثاني وما بعده ، فذكر مثلاً في حرف السين مع الراء : سرق السارق فانتحر ، وبعده سراك من دمك ؛ فإذا اتفقت كلمتان في صدر المثل راعى ما بعدهما ، فذكر في حرف العين مع النون : عند الشدائد تذهب الأحقاد ، وبعده : عند النطاح يغلب الكيش الأجم .

واسكنه ذكر في باب الهمزة جميع الأمثال المبدوءة بهمزة ، سواء أ كانت الهمزة أصلية ، مثل إنك لا تجني من الشوك العنب ، أم همزة وصل مثل : اجمل العبد على فرس ، اختلط الخابل بالنابل ، أم كانت الكلمة مبدوءة بأل مثل الحمد معنم ، والمذمة مغرم ، أم كانت الكلمة على وزن أفعل مثل : أحق من نعمة .

وقد شرح الزمخشري الأمثال ، وبين موارد وأسابيحها وملاسلها ؛ وذكر مضارب كثير منها ، والأحوال التي يصح أن يقال فيها ، وأضاف إلى شرحه مسائل من اللغة والنحو ، واستشهد بنصوص شتى من شعر ونثر .

وفي كتاب الزمخشري ثلاثة آلاف مثل وأربع مئة وواحد وستون . أما الميداني فقد رتب كتابه طبقاً لأصول الكلمات ، فذكر في باب الهمزة الأمثال المبدوءة بهمزة قطع مثل : إن من البيان لسحراً ، ولم يذكر ما أوله أل ولا همزة وصل ، ثم ذكر ما جاء على وزن أفعل من هذا الباب مثل : آكل من حوت ، ثم سرد أمثال المولدين ، وهكذا صنع في بقية الحروف ، فذكر في باب الباء الأمثال المبدوءة بباء ، مثل بلغ السيل الزبى ، ثم ما جاء على وزن أفعل مثل : أبلغ من قس . ثم أمثال المولدين ، ولكنه لم يلتزم الترتيب طبقاً لما بعد الحرف الأول من المثل فجده يذكر مثلاً فيما أوله تاء : ترك الظبي ظله ، ثم يذكر تجوع الحرة ولا تأكل بشديها ، ثم يذكر تحسبها حقاء وهي باخس ، ويذكر في باب القاف : قطعت جهيزة قول كل خطيب ، ثم يذكر قبل البكاء كان وجهك عابسا ، ثم يذكر قد استنوق الجمل وهكذا .

وبأمثال الميداني ستة آلاف مثل كما ذكر في مقدمته ، ويظهر أنه لم يراع أن كثيراً منها مكرر .

وفرق آخر بين العالمين ، هو أن الميداني ذكر في مقدمة كتابه عشرات من الكتب التي نقل منها ، على حين أن الزمخشري لم يذكر مصادره التي اعتمد عليها .

وقد كان الزمخشري أسبق إلى تأليف كتابه ، لأنهم يذكرون أنه لما اطلع على كتاب الميداني ندم على أنه ألف المستقصى .

ويذكرون قصة أخرى ، أغلب الظن أنها من وضع المتفككين أو العابثين ، لأنها لا تلائم أخلاق الزمخشري التي عرفناها ، فيقولون ^(١) إن الزمخشري لما وقف على كتاب الميداني أخذ القلم ، وزاد نونا على كلمة الميداني ، فصارت التميمياني ، ومعناها بالفارسية الذي لا يعلم شيئا ، فلما علم الميداني بذلك أخذ بعض مؤلفات الزمخشري فصير الميم نونا ، ومعنى الكلمة بالفارسية بائع زوجته .

نماذج منه

١ — إذا ضربت فأوْجِع ، وإذا نَعَرْتَ فأَسْمِع .

يضرب في إتقان الأمر والتشديد فيه ^(٢)

وفي مجمع الأمثال: من أمثال المولدين: إذا ضربت فأوْجِع ، فإن الملامة واحدة ،

يضرب في الحث على المبالغة ^(٣)

٢ — أشام من أحر عاد

هو قدار بن قديرة ، وهي أمه ، وأبوه سالف ، عقر ناقة صالح فهلك

بفعله ثمود . قال زهير :

فَتُنْتِجَ لَكُمْ غِلْمَانُ أَشَامَ كَأَهْمُ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضَعُ فَتَقْطَعُ ^(٤)

وفي مجمع الأمثال بعد ذكر المثل أنه قدار بن سالف ويقال له ابن قديرة

وهي أمه ، عقر ناقة صالح عليه السلام فأهلك الله بفعله ثمود ^(٥)

(١) معجم الأدباء ٤٧/٥ وللباء الرواة ١٢١/١ وبقية الوعاة ١٥٥

(٢) المستقصى ١٢٥/١ (٣) بحم الأمثال ٥٨/١

(٤) المستقصى ١٧٦/١ (٥) بحم الأمثال ٢٥٦/١

٣ — أفرس من عامر بن الطقيّل

هو ابن أخى عامر ملاعب الأسنة ، أفرس أهل زمانه وأسودهم ، وكان له مناد ينادى بعكاظ : هل من راجل فأحمله ، أو جائع فأطعمه ، أو خائف فأؤمنه ؟ ووقف جبار بن سلمى على قبره فقال : أنعم ظلما أبا على ، فوالله لقد كنت تشن الغارة ، وتحصى الجارة ، سرىعا إلى الولى بوندك ، بطيئا عنه بوعيدك ، وكنت لا تنضل حتى يضل النجم ، ولا تهاب حتى يهاب السيل ، ولا تعطش حتى يعطش البعير ، وكنت والله خير ما تكون حين لا تنظن نفس بنفس خيرا . ثم التفت فقال : هلا جعلتم قبر أبى على ميلا في ميل ^(١) .

وفى مجمع الأمثال هذا نفسه ^(٢)

٤ — أنجز خرمًا وعد

نجز الوعد إذا نفذ ، وأنجزته ، قاله الحارث بن عمرو بن حُجر السكندى لصخر بن نهشل ، وكان له مرباع بنى حنظلة ، فجعل للحارث الخمس منه إن دله على غنيمة ، ففعل ، ووفى هو بوعده . يضرب في استنجاز المواعيد ^(٣) .

وفى مجمع الأمثال هذا وزيادة عليه ^(٤)

٥ — أنقى من مرآة الغريبة

هى المرأة الناكح في غير عشيرتها ^(٥)

وفى مجمع الأمثال : يعنون التى تزوج من غير قومها ، فهى تجلو مرآتها أبدا ، لئلا يحفى عليها من وجهها شيء . قال ذو الرمة :

(٢) مجمع الأمثال ٢٢/٢

(٤) مجمع الأمثال ١٩٣/٢

(١) المستقصى ٢٦٩/١

(٣) المستقصى ٣٨٤/١

(٥) المستقصى ٣٩٨/١

لها أذن حشر وذفرى أسيلة وخذ كمرآة الغربية أسجح^(١)

٦- إن من البيان لسحرا

سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن الزرقان ، قال كيف هو فيكم ؟ فقال : شديد العارضة ، مطاع في العشيرة ، مانع لما وراءه . فقال الزرقان : والله إنه ليبلغ أنى أفضل مما قال ، ولكنه حسدنى . فقال ابن الأهتم : والله ما علمت (إلا) أنه زمر المروءة ، ضيق العطن ، أحق الأب ، لثيم الخال ، أما والله ما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الأخرى ، ولكن رضيت فقلت برضاى ، ثم أسخطنى فقلت بسخطى . فقال عليه السلام ذلك .

يضرب في الثناء على البليغ^(٢) .

وفى مجمع الأمثال هذا المثل وشرحه بغير خلاف يذكر^(٣) .

٧- ضرب أخماساً لأسداس

أى اعتمد وتعاطى أخماساً لأجل أسداس ، وهو جمع خمس وسدس من أظماء الإبل . وأصله أن الرجل حتى إذا أراد سفراً بعيداً عود إليه الصبر على العطش ، فأخذ يترقى بها مدرجا في الإظماء ، إذا قَوَّزَ بها - دخل الصحراء - صبرت ، فهو حين يسقيها أخماساً ثم يتجاوزها وينقلها إلى الأسداس عقيها على سبيل التدريب لها إنما يتعاطى سقيها أخماساً لأجل سقيها أسداساً ، قال الكهيت :
وذلك ضرب أخماسٍ أريدتْ لأسداسٍ عسى ألا يسكونا
وقال أيضاً :

السم أيقظ الأقوام أفتدةً وأضرب ناس أخماساً لأعشار

(١) بحم الأمثال ٢/٢٠٧ حشر : اطفئة يستعمل للواحد والثنى والجمع . ذفرى : المراد

الغنى .
(٢) المستقصى ١/٤١٤ (٣) بحم الأمثال ١/١٠

وقال :

يضرب للمكار الذى ير يد أمرا ويظهر غيره ^(١).

وقد شرح الميدانى للمثل هذا الشرح ، وذكر شعرا آخر غير النصوص الثلاثة التى ذكرها الزمخشري ^(٢).

٨ — قطعت جَهِيْزَةً قول كل خطيب .

بينما قوم يخطبون فى صلح بين حيين — قتل أحدهما من الحى الآخر رجلا
ويسألون الرضا بالدية — جاءت أمة اسمها جهيزة فقالت : إن القاتل ظفر به
بعض أولياء المقتول فقتله ، ف قيل ذلك .

يضرب لأمر قد فات وأيس من صلاحه .

وقيل هى جهيزة التى يضرب بها العنل فى الحق ، وإنه مثل فيمن يقطع
على الناس ما هم فيه بحماقة يأتى بها ^(٣).

وفى مجمع الأمثال هذا الشرح نفسه ^(٤).

٩ — كالثور يُضْرَبُ لما عافت البقر

كانوا إذا عافت البقر الورود ضربوا الثور زاعمين أن الجن ركبتهم ، وأنها
تزع البقر عن المشرب ، فينفرونها بإلقاء الضرب على الثور .
وقيل إنما يضرب لأنه قائد البقر وسائقها .

وقيل الثور: العَرْمَضُ أى الطحلب ، يضرب فيذهب فى نواحي الورود —

الماء — ثم تشرب حينئذ ، وإذا كان على وجه الماء عافته .

يضرب للمأخوذ بذنب غيره ، قال أنس بن مدركة الخثعمي :

(١) المستقصى ١٤٥/٢ (٢) مجمع الأمثال ١/٢٨٣

(٣) المستقصى ١٩٧/٢ (٤) مجمع الأمثال ٢/٢٥

إِنِّي وَقَتْلِي سَائِسُكَ ثُمَّ أَعْقَلَهُ كَالثَّوْرِ يُضْرِبُ لِلْعَافَتِ الْبَقْرُ
وقال : (١)
ويشبه هذا ما ذكره الميداني (٢).

(٣) الفائق في غريب الحديث

كان جمع الأحاديث التي بها كلمات غريبة وترتيبها، وشرح غريبها مقاطع
كثير من علماء اللغة والحديث، فتوالت مؤلفاتهم حتى لم تكدر تدع زيادة مستزيد.
وقد ذكر ابن الأثير في مقدمة كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر)
موجزاً لتطور التأليف في غريب الحديث ، منها أن أباعبيدة معمر بن النخعي التيمي
أول من جمع من ألفاظ غريب الحديث والأثر كتبها معدود الأوراق . ثم صنع
مثل صنيعه أبو الحسن النضر بن شميل المازني وعبد الملك بن قريب الأصمعي
ومحمد بن المستنير المعروف بقطرب .

ثم ألف أبو عبيد القاسم بن سلام كتابه المشهور في غريب الأحاديث
والآثار ، فكان المرجع إلى زمن ابن قتيبة الدينوري ، إذ ألف كتاباً على نهج
كتاب أبي عبيد ، أكثره لم يذكره أبو عبيد .

وتتابعت المؤلفات في هذا الفن ، إلى أن صنف أبو عبيد أحمد بن محمد الطبري
كتاباً جمع فيه ما بين غريب القرآن والحديث ، ورتبه وفق حروف المعجم على
وضع لم يسبق في غريب القرآن والحديث ، وفسر الكلمات اللغوية ، وجمع فيه
ما ذكره سابقوه ، ولهذا صار المؤلفون من بعده يتبعون أثره ، ويستدركون
ما فاتته ، إلى أن جاء الزنجشري فصنف كتابه سنة ٥١٦ هـ ، وسماه الفائق

«ولقد صادف هذا الاسم مسمى ، وكشف عن غريب الحديث كل مسمى ، ورتبه على وضع اختاره مسمى على حروف المعجم ، ولكن في العثور على طلب الحديث منه كلفة ومشقة ، وإن كانت دون غيره من متقدم الكتب ، لأنه جمع في التفتية بين إيراد الحديث مسرودا جميعه أو أكثره أو أقله ، ثم شرح ما فيه من غريب ، فجىء شرح كل كلمة غريبة يشتمل عليها ذلك الحديث في حرف واحد من حروف المعجم ، فتزد السكلمة في غير حرفها^(١) ، وإذا تطلبها الإنسان تعب حتى يحدها ، فكان كتاب المروى أقرب متناولا ، وأسهل أخذا ، وإن كانت كلماته متفرقة في حروفها ، وكان النفع به أتم ، والفائدة أعم^(٢) .

طريقته

١ — رتب السكلمات الغريبة من الأحاديث والآثار على حروف المعجم ، مراعى الحرف الأول والثانى ، فيذكر مثلا في الهمزة مع اللام أ ب ثم أ ت ، ثم ألف ، ويذكر في الخاء مع السكاف ح ك ثم حكة .

ولكنه لم يراع الحرف الثالث ، ففي التاء مع القاف يذكر ثقل ثم ثقب ، وفي الجيم مع الدال يذكر الجدح ثم جدف ، ثم جدد ، ثم جدد ، وفي الخاء مع اللام يذكر خلف ثم خلج ، ثم خلل ، ثم خاب ، ثم خلاص ، ثم خلى ، وهكذا .

٢ — قد يذكر الحديث كله ، وقد يذكر بعضه ، ناظرا إلى السكلمة أو إلى السكلمات الغريبة التي يريد شرحها ، ويستشهد بنصوص بليغة من الشعر والنثر ، وقد يعرب بعض السكلمات « إعراب المحقق البصرى الناظر في نص سيبويه وتقرير الفسوى »^(٣)

وقد أثنى عليه ابن حجر في قوله : « وكتابه الفائق في غريب الحديث من

(١) استدرج هذا بأن أشار إلى هذه السكلمات في المواضع التي وردت فيها .

(٢) الفائق ١/٣

(٣) النهاية ١/٤

أنفس الكتب ، لجمعه المنفرق في مكان واحد ، مع حسن الاختصار ، وصحة النقل ^(١) .

نماذج منه

١ — النبي صلى الله عليه وسلم . أتى بكتف مؤرّبة فأكلها وصلى ولم يتوضأ .

هي المؤرّبة التي لم يؤخذ شيء من لحمها ، فهي متلبسة بما عليها من اللحم ، متعلقة به ، من أرّبت العقدة إذا أحكمت شدها . من الناس من يوجب الوضوء بأكل ما مسته النار . وعن أهل المدينة أنهم كانوا يرون هذا الرأي . وهذا الحديث وأشباهه ردّ عليهم ^(٢) .

٢ — إن الإسلام أبأرز إلى المدينة كما تارز الحية إلى جحرها ، أي تنضوي إليه وتنضم . ومنه الأروز للبخيل المتقبض . وعن أبي الأسود الدؤلي إن فلانا إذا سئل أرز وإذا دعي انتهز ^(٣) .

٣ — في الحديث كانوا يتأثمون شرار ثمارهم في الصدقة ، أي يقصدون . وفي قراءة عبد الله : « ولا تأثموا الخبيث » ^(٤) .

٤ — النبي صلى الله عليه وسلم : لا يؤطن من المسجد للصلاة والذكر رجل إلا يبدشئ الله به من حين يخرج من بيته كما تبدشئ أهل البيت بغائبهم إذا قدم عليهم .

التبدشئ بالإحسان المسرة به والإقبال عليه ، وهو من معنى البشاشة لا من لفظها عند أصحابنا البصريين ، وهذا مثل لا ارتضاء الله فعله ووقوعه الموقع الجميل عنده .

(١) لسان البزّان ٤/٦ (٢) الفائق ٢١/١

(٣) الفائق ٢٢/١ (٤) الفائق ٤٥/١

يخرج في موضع الجر بإضافة الحين إليه ، والأوقات تصاف إلى الجمل ،
ومن لا بداء الغاية ، والمعنى أن التبتشيش يبتدى من وقت خروجه من بيته
إلى أن يدخل المسجد ، فترك ذكر الانتهاء لأنه مفهوم ، ونظيره :

شمتُ البرق من خَلَلِ السحاب

ولا يجوز أن يفتح حين كما فتحه في قوله :

على حين عابتُ العَشِيبَ على الصُّبَا

لأنه مضاف إلى معرب ، وذلك إلى مبنى ^(١) .

٥ — النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يتعوذ من الأَيِّمِ-يُن

هما السيل والحريق ، لأنه لا يهتدى لدفعهما ، من القلاة اليهماء وهى التى
لا يهتدى فيها ، لأنه لا أثر يستدل به .

وقال ابن الأعرابي . رجل أَيْهَمَ أُمى ، وامرأة يهماء ، ومنه قالوا : أرض
يهماء ، ويقال للجبل الذى لا يرتقى أَيْهَم .

وقيل اليهَمَ الجنون ، ومنه الأيهم الفحل المغتلم ^(٢)

(١) الفائق ١/٩٢

(٢) الفائق ٣/٢٣٢

(٤) أعجب العجب في شرح لامية العرب

هذا كتاب شرح فيه الزمخشري قصيدة الشنفرى التى مطلعها :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإئى إلى قوم سواكم لأمنيل

وذكر فى مقدمة الشرح أنه أنه « ليتحف به الخزانة السعيدية والخضرة العززية ، ذا الآلاء لتظاهرة ، والفعم الوفرة المستولى على جوامع الحكم بالتوقير لأهلها والتعظيم ، والتقريب والتكريم ، وإحراز الكتب المؤلفة فيها ، وإعزاز أربابها ومصنفها » .

ويفهم من المقدمة أنه أنه بعد أساس البلاغة ، لأنه قال : « وخطابى لمن

نشأ فى علم الإعراب وطالع أساس البلاغة »

وقد شرح اللامية كثير من اللغويين ، مثل المبرد وتعلب والتبريزى والعكبرى ويحيى الحلبي الفسائى والزوزنى والبقشوائى وابن أكرم وابن زاكور وعطاء الله المصرى والسويدى والسعيدى الحميرى ، واستشهد بأبيات منها كثير من اللغويين والنقاد والمؤرخين .

ونلاحظ أن الزمخشري ملأ شرحه بالنحو ، حتى لكان النحو مقصوداً قصداً ، وأنه اقتصر من اللغة على شرح المفردات الصعبة ، ولم يعرض لشيء من علوم البلاغة .

وهو فى شرحه يستشهد بالآيات القرآنية ، وأبيات شعرية

وقد عنى بها كثير من المستشرقين منذ نشرها (ده ساسى) فأكبوا على دراستها ، وترجموها شعراً ونثراً إلى لغاتهم مثل (فرنل) و (فيل) و (كوزجارتن) و (رويس) و (ديكرت) و (همبرجشتال) و (الفارت) و (أداما ميكيفتشا) و (فرين) و (ب . بليا) .

واتجه آخرون إلى اقتناء مخطوطاتها ، والموازنات بين بعضها وبعض ، مثل
(بترمان) و(شبرنجر) .

وفي عام ١٨٦٤ رأى نولدكه أن بعيد النظر فيها ، فآلف كتابا في الشعر
الجاهلي عرض فيه لما قيل في اللامية ، وناقشه ، ثم قال : لولا أني رأيت على
مخطوطة (بترمان) هذه الجملة (لامية الشنفرى ، وقيل إنها منحولة) ما تطرق
إلى ذهني شك في صحتها ، فإنها إن كانت منحولة فالشاعر الذي قالها يجب أن
يكون ملما بالحياة العربية والجاهلية إلما تاما ، كما أن خياله غزير جداً ، حتى
إنه ليستحق أن يتبوأ أسمى مكان بين الشعراء الجاهليين ، وإذا لم تكن هذه
اللامية لبطل الصحراء ، فإنها صنعت لتنسب إلى مثله .

وفي الوقت الذي كان فيه مجمع فيينا العلمى ينشر دراسة لنولدكه عن المعلقات
كان المجمع العلمى البافارى بميونخ ينشر فى عامى ١٩١٤ ، ١٩١٥ بحثاً قيماً حول
لامية العرب للمستشرق الألمانى (جورج يعقوب) ، وقد ألف قبل هذا البحث
كتاباً عن حياة البدو فى العصر الجاهلى ، وجمع المصادر المختلفة للامية الشنفرى ،
وعنى عناية خاصة بنهاى الشرق العربى وحيوانه .

وقد ناقش ما أجمع عليه شراح اللامية من أن السَّمْع فى قول الشنفرى :
فإننى لمؤلى الصبر أجتابُ بزّه عَلَى مِثْلِ قَلْبِ السَّمْعِ والخَزْمِ أَنْعَلُ^(١)
هو ولد الذئب من الضبع ، وخالفهم وقال إن مثل هذا التزاوج لم يحدث بين
الذئب والضبع ، واستعان لإثبات رأيه بحديقة حيوان (هلايرن) بألمانيا التى

(١) قال الزمخشري فى شرح اللامية ٥٤ : مؤلى الصبر : وليه يربد أنا القائم به . اجتاب :
أليس البز : أمتعة البراز ، يربد أى وليه ألبس ثوبه . السمع سيم مركب وهو ولد الذئب من
الضبع ، وفى التل أسمع من سمع قال الشاعر :
تراء حديد الطررف أبلج واضعا
أغرَّ طويل الباع أسمع من رسمع
الحزم أنعل : أحتذى الحزم

نبحث في تجربة التزاوج بين الذئب والثعلب ، وأخفت في تحقيق ما قاله شراح
اللامية ، لأن السمع كما قال الرحالة والعلماء وبخاصة علماء الحيوان : حيوان آخر
يشبه الكلب ، وحجمه كالحمار ، إذا لم تصب الطلقة الأولى منه مقتلاً اكتسب مناعة
ضد الرصاص ، وهو يهاجم الإنسان ويضربه بمخلبه الأمامي ، فيبجر بطنه ويقتلسه ،
ويطلق عليه علماء الحيوان اسم (ليكاون بيكتوس — Lycaon Pictus) وهو
مشهور بقوة السمع حتى يضرب به المثل^(٢).

على أن المناعة التي يكتسبها هذا الحيوان ضد الرصاص ليست مما يدخل في
نطاق العقول ، لأن إخفاق الطلقة الأولى أو ما بعدها لا يكسب الحيوان هذه
المناعة .

(٥) الجبال والأمكنة والمياه

تعريف بالجبال والأمكنة والمياه ومواقعها وأسمائها وبعض ما يتصل بها من
أخبار وشعر ، مرتبة ترتيباً هجائياً ، بدأ بما في أوله الهمزة ، فقال : أبو قبيس
الجبل المشرف على الصفا ، يسمى برجل من مذحج كان يكنى بأبي قبيس ، لأنه
أول من بنى فيه ، ثم ذكر بعده ما في أوله الباء ، وما في أوله التاء ، وهكذا إلى
الياء ، فقال : يَلْمَلَمَ : واد يجرم منه أهل اليمن .

نماذج منه

١ — أَلْجَاء : جبل بالمدينة ، سمي بذلك لأن ثم جبليْن هي أقصرهما ، فكانها
جاء ، وأنشدني الشيباني :

القصر والنخل فالجاء بينهما أشهى إلى القلب من أسياح جَبْرُون
الْجاء من المدينة على ثلاثة أميال ناحية العقيق إلى الجرف .

(١) من مقال بمجلة الرسالة العدد ٨١ في ٤ فبراير سنة ١٩٦٥ المذكور في أواخره .

٢ — مُحْكَمٌ : نهر باليامة ، قال الأعشى :

وَمِنْ غَدَاةِ الْعَيْنِ عَيْنٍ فُطِئِمَةٍ مَنَعْنَا بَنِي شَيْبَانَ شُرْبَ مُحْكَمٍ

٣ — عَكَظَ : سَوَقَ ، وَقِيلَ عَكَظَ مَاءُ لَهُمْ ، قَالَ :

إِنْ عَكَظَا مَاؤُنَا فَخَلُّوهُ

وَقِيلَ عَكَظَ مَا بَيْنَ نَخْلَةٍ وَالطَّائِفِ إِلَى بَلَدٍ يُقَالُ لَهُ الْفَتْقُ ، كَانَتْ سَوْقُهُ تَقَامُ

هَلَالِ ذِي الْقَعْدَةِ فَلَا تَرَالُ قَائِمَةٌ عَشْرِينَ يَوْمًا .

٤ — مَنفُوحَةٌ : بَلَدٌ فِيهِ مَنَازِلٌ وَنَخِيلٌ ، وَهِيَ خُطَّةُ بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ ،

قَالَ الْأَعْشَى :

فَقَاعِ مَنفُوحَةِ ذِي الْحَايِرِ (١) .

(١) لَا تَرَالُ مَنفُوحَةٌ عَامِرَةٌ بِالْقَرَبِ مِنَ الرِّيَاضِ فِي نَجْدٍ ، وَبِهَا أَطْلَالٌ يَقُولُونَ إِنَّهَا كَانَتْ

بَيْتِ الْأَعْشَى ، وَنَدَّ زُرْتَهَا مَرَّاتٍ مِنْ سَنَةِ ١٩٥٧ إِلَى ١٩٦٠ .

الفصل الثامن

في شعاب النحو

درس الزمخشري النحو ، وتفوق فيه كما درس اللغة وبرز فيها ، وكان
تابعاً لمذهب سيبويه والبعريين في آرائه ، كما يقين من مؤلفاته كلها ، وله في
النحو ثلاثة كتب هي :

(١) المفصل

شرع في تأليفه في غرة رمضان سنة ٥١٣هـ ، وفرغ منه في غرة المحرم
سنة ٥١٥هـ (١) .

وهو أربعة أقسام: الأول في الأسماء ، والثاني في الأفعال ، والثالث في الحروف ،
والرابع في المشترك .

ويمتاز بأنه يورد أمثلة كثيرة من القرآن الكريم والحديث الشريف وشعر
البلغاء وثرهم ، كقوله في حذف المفعول به :

وحذف المفعول به كثير ، وهو في ذلك على نوعين :

أحدهما أن يحذف لفظاً ، ويراد معنى وتقديراً .

والثاني : أن يجعل بعد الحذف نسياً منسياً ، كأن فعله من جنس الأفعال
غير المتعدية ، كما ينسى الفاعل عند بناء الفعل للمفعول به .

فمن الأول قوله تعالى « اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » وقوله « لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ » لأنه لا بد لهذا الموصول من أن يرجع إليه من صلتته مثل ما نرى في قوله تعالى « الَّذِي يَتَخَفَتُهُ الشَّيْطَانُ الْمَسَّ »، وقرئ قوله تعالى : « وما علمته أيديهم وما علمات »

ومن الثانى قولهم : فلان يعطى ويمنع ، ويصل ويقطع ، ومنه قوله عز وجل : « وأضلج لى ذريتى » وقول ذى الرمة

ولم تعتذر بالمحل من ذى ضروعها إلى الضيف يجرخ عراقيها نصلى^(١)
ولقد شرحه وعاقى عليه كثير من النحاة^(٢)، مثل أبى البقاء العكبرى المتوفى سنة ٦١٦ هـ . واسم شرحه الإيضاح ، ومثل ابن الحاجب (٦٤٦ هـ) وشرحه اسمه الإيضاح أيضاً ، وعلى هذا الشرح حواش لآخرين .

وأكثر شراح المفصل شهرة موفق الدين أبو البقاء يعيش بن على بن يعيش الحلبي المولود بحلب سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨ م) درس الفحو والحديث بحلب ودمشق والموصل ، وتوفى سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) وتعلم عليه ابن خلسكان سنة ٦٢٦ هـ ، ٦٢٧ هـ وقال إنه حجة فى الأدب .

ولابن يعيش هذا مؤلفات منها حاشية على شرح ابن جنى على (تصريف) المازنى ، وشرح واف على (المفصل) عارض فيه الزمخشري فى كثير من المواضع . وقد تحدث ابن يعيش عن الباعث له على شرح المفصل ، فقال : لما كان الكتاب الموسوم بالمفصل من تأليف الإمام العلامة أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، رحمه الله ، جليلا قدره ، نابها ذكره ، قد جمعت أصول هذا العلم فصوله ، وأوجز لفظه فتيسر على الطالب تحصيله ، إلا أنه مشتمل على ضروب ، منها لفظ أغربت عبارته فأشكل ، ولفظ تتجاذبه معان فهو مجمل ، ومنها ما هو

(١) الفصل ٢/ ٣٩ . يجرخ : المراد يجرحها

(٢) كشف الظنون ٢/ ٤٨٨ — ٤٨٩

بادر للأفهام إلا أنه خال من الدليل مهمل ، استخرت الله تعالى في إملاء كتاب
أشرح فيه مشكله ، وأوضح مجمله ، وأتبع كل حكم منه حججه وعلاله .

ولا أدعى أنه — رحمه الله — أخل بذلك تقصيرا عما أتيت به في هذا
الكتاب ، إذ من المعلوم أن من كان قادرا على بلاغة الإيجاز كان قادرا على
بلاغة الإطناب ^(١) .

وقد طبع هذا الشرح في ليبسيك من سنة ١٨٨٢ إلى ١٨٨٦ م ثم طبع
بإدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة في عشرة أجزاء .

(٢) مقدمة الأدب

قسم هذا الكتاب خمسة أقسام :

القسم الأول في الأسماء ، فذكر المفردات وجوعها التكسيرية ، مثل وقت
وأوقات ، وحين وأحيان ، وأجل وآجال ، وأوان وآونة وأيايين ، ودهر
وأدهار وأدھر ، ونبت ونبات ، وعشب وعِشَاب وأعشاب ، ومزرعة ومزارع ،
وسنبلة وسنابل ، وهكذا ، مراعىا موضوعات عامة لكل طائفة من الكلمات .

والقسم الثانى في الأفعال ، مثل : هَنَأَ الطعامَ يَهْنِئُهُ وَيَهْنُوهُ وَيَهْنَاهُ ،
وَهْنِئَتْ يَهْنِئُ وَيَهْنُو هُنُوًا ، وهذا البعير بالقطران يَهْنِئُهُ وَيَهْنُوهُ هَنَا وهو الهناء

والقسم الثالث في الحروف ، فتكلم عن الحروف ، وعملها في الأسماء
والأفعال ، وعقد لذلك فصولا ، منها فصل في الحروف التى تنصب الاسم
وترفع الخبر مثل : إن زيدا متطلق ، بلغنى أن زيدا متطلق ، كأن زيدا الأسد ،
ما جاءنى زيد لكن عمرا حاضرا ، ليت زيدا خارج ، لعل عمرا حاضرا ، فإذا

اتصل بها (ما) ارتفع الاسمان كقولك : إنما زيد منطلق وكذا الباقي .

القسم الرابع في تصريف الأسماء ، فتكلم عن حركات الإعراب وحركات البناء ، وعن التذكير والتأنيث . والنسب والتصغير . . الخ .

القسم الخامس : في تصريف الأفعال ، فعرض للمبنى للفاعل ، والمبنى للمفعول ، وللصحيح والمعتل ، وللتعجب ، ولأسم الفاعل واسم المفعول . . الخ .
والكتاب عربى فارسى في قسميه الأولين ، أما الأقسام الثلاثة الباقية فعربية خالصة .

وببدو من هذا التعريف الوجيز أن الكتاب نحو و لغة ، ولكن النحو أغلب . وقد أهداه إلى الأمير الأجل بهاء الدين علاء الدولة أبى المظفر أئسوز ابن خوارزم شاه ، ووصفه بقوله : « غاية لذته فى مجالسة الأفاضل ، وقصارى لهوه فى منادمة الأماثل ، ولا يزال ظل كرمه الواسع عليهم ممدودا ، وجناحه بإنعامه الفائض تجودا ، وصلاته وخلعه مترادفة عندهم متوالية ، رائحة إليهم غادية . وقد رسم لى أمره العالى — زيد علوا — بتحرير نسخة من كتاب مقدمة الأدب لخزاة كتبه المعمورة ، ففعلت على رسمه ، وجعلت الكتاب مرسوما باسمه ^(١) » .

(٣) الأنموذج

هذا كتاب موجز جداً فى النحو ، اقتضبه من المفصل ، ويظهر أنه أراد به المبتدئين ، عدد صفحاته ثلاث وعشرون صفحة .

وحدبنا هذه الإشارة ، لأن التفصيل فى هذا يحتاج إلى دراسة خاصة .

في حديث النثر

مارس الزمخشري النثر الفني في هذه الكتب الثلاثة : نوايغ الكلم ،
ومقامات الزمخشري ، وأطواق الذهب .

وله نثر فني في مقدمات كتبه الأخرى وفي ثنايا بعضها ، وبخاصة الكشف ،
وفي بعض فصول كتابه ربيع الأبرار .

أما موضوعاته فتدور حول الوعظ والإرشاد والدعوة إلى التحلي بالنقوى
ومكارم الأخلاق .

وأما أسلوبه فالصبغة العامة له مجازاة كتاب عصره في الكلف بالسجع ،
وتكلف الحسنات ، والجنوح إلى حل المنظوم ، والتلاعب بالألفاظ الاصطلاحية .
ولقد كان المأمول من أبي القاسم أن يتحرر من هذه القيود التي كبلت
النثر الفني منذ القرن الثالث الهجري إلى القرن العشرين ، لكنه لم يتحرر منه ،
مع أنه قال في مقدمة المقامات ^(١) : ولتعلم أن ماسماء الناس البديع ، من تحسين
الألفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والتسجيع والترصيع ، لا يباح
ولا يبرع حتى يوازي مصنوعه مطبوعه ، وإلا فما قيل في أما كنه ، ونها عن
موافعه ، فنبوذة بالعراء ، ، مرفوض عند الخطباء والشعراء .

على أن بعض سجعانه حلوة الوقع ، لا يبدو عليها استكراه ، وبعض

محسنة أسعفت بها المهارة واللباقة لجاءت كلُّها عفواً خاطراً ، ووليدة المصادفة ، مثل قوله : « ألا إن اتقاء المحارم ، من أجل المسكارم ، فانتقها إما لسكرم الغريزة ، وإما للتوقف عند حدود الشارع ، وتخوف الزواجر والقوارع »^(١).

وقوله : « يا أيها المستجدي ، حَسْبُكَ ، فبئس الكسبُ كَسْبُكَ ، لا يُخْلِقُ الديباجة مثل التعرض للحاجة ، فليرقع اليسيرُ خَصَّتَكَ »^(٢) ، ولتكن القناعة حَصَّتَكَ ، وأقلل في الناس طمعك ، واستدِمْ ففضل الله معك »^(٣) .

وبكفي أن أذكر بعض الأمثلة من كلفه بالسجع والمحسنات المقتسرة المتقلبة ببعض المفردات اللغوية التي لا باعث على استعمالها إلا الجنوح إلى الإغراب ، أو الدلالة على الإحاطة والمقدرة ، على حين أن غيرها أجهل منها وقماً ، وأوضح دلالة ، وأثرى معنى .

من ذلك قوله في مقامه العرلة : « قاتل الله بنى هذه الأيام ، جوارهم غَوَارُ »^(٤) وَنِقَارُهُمْ نِقَارُ^(٥) بينما أنت في خلكوائك إذ فوجئت بمثافتة بعضهم ، من الذين أخذك الله يفضيهم

فهو يتعسف في تعبيره ليسجع وليجانس بين حوار وغوار ، وبين نقال ونقار ، ويستعمل كلمة مثافنة على ثقلها .

(١) المقامات ٥٦

(٢) الحصة : الحصة الفقر ، وقال في الأساس : سمعت أهل السراة يقولون : رفع الله خصتك .

(٣) أطباق الذهب ٣٢

(٤) المغوار : المغاورة

(٥) النقال : مناقلة الكلام . النقار : المناقرة والتجريح

ويقول في المقامة نفسها^(١) : « استبقنا إلى غاية الفوايه مُعْتَقِينَ ، وتردنا
في هوة الرأي مُتَعَقِّين^(٢) » .

والتكاف واضح في استعمال معنقين ومعتنقين لضمان السجع والجناس .
ويقول في مقامة العمل^(٣) :

« إن ذكر النثر فلو رآه ابن لسان الحُمْرَةِ حمرة لسانه لجهش
وما بهش^(٤) » .

فهو يستعمل (راء) بدلا من رأى ، ويستعمل بهش ليجانس بينها
وبين جهش ، ويمثل بشخص غريب الاسم ، غير مشهور بالبلاغة إلى درجة
أن يضرب به المثل .

ويستعمل في هذه المقامة في استعمال كلمات أربع متصلة بالقوس ،
فيقول : « متى نظر إلى الرثامة مُوْتَرِينَ مُنْبِضِينَ^(٥) مُتَدِّينَ غير مُجْبِضِينَ^(٦)
أقبل على مقلاة الغم بَتَقْلَى ، وبجمرة الغيظ بَتَصَلَّى » والتكاف بين في تتابع
هذه الكلمات .

على أنه كتب خمس مقامات مثقلة باصطلاحات نحوية وعروضية وغيرها ،
سأعرض لها فيما بعد .

وهذا النثر في كتبه : نوابغ الكلم ، ومقامات الزمخشري ، وأطباق
الذهب ، وربيع الأبرار .

(١) مقامات الزمخشري ٧٢

(٢) معنقين : مسرعين

(٣) المقامات ١٠١

(٤) جهش : فزع أو هرب . بهش : هش وارتاح . ابن لسان الحمرة على وزن
سكرة خطيب بلغ ثمانية اسمه عبد الله بن حصين أو ورقاء بن الأشقر (القاموس مادة حر) .

(٥) منبضين : جاذبين أو تار القسي

(٦) مجبضين : ساقطه سهامهم

(١) نوابغ الكلم

أما نوابغ الكلم فهي حكم قصار متوالية موجزة أقصى إيجاز ، مسجوعة
سجعا ملتزما ، لا ينتظمها موضوع أو فكرة ، كقوله : العرب نبع صلب
المعاجم ، والغرب ^(١) مثل للأعاجم .

إذا قلت الأنصار كلت الأبصار .

لا تمش بالريية مؤثيماً ^(٢) ولا تنس أن عليك مؤثيماً .

صنوان من منح سائله ومن ، ومنع نائله ومن .

كم رأيت من أعرج في درج المعالي أعرج ^(٣) ، ومن صحيح القدم ليس له في

الخير قدم .

قد جمع الأصل والفرع من تبع العقل والشرع .

رُبَّ صدقة من بين فكك خير من صدقة من بطن كفتك .

إن يسود النّقار ^(٤) ما أسود القار .

أم الزائر ^(٥) نزور ^(٦) ، وأم الناجح نشور ^(٧) .

رب كلمة هي عند الناس فضيحة ، وهي عند الله فضيحة .

(١) الغرب : نوع من الشجر سهل السكر

(٢) المؤثي : الصوت المقي

(٣) أعرج (الثابتة) : أصعد وأرق

(٤) النّقار : الواشي العائب النمام

(٥) الزائر : الأسد

(٦) نزور : قلة الولد

(٧) الناجح : السكاب . نشور : كثرة الأولاد .

(٢) المقامات

وأما المقامات فقد ألفها سنة ٥١٢ هـ ، لأنه قال إنه أصيب في تلك السنة بالمرض الناهكة التي سماها المنذرة ، فأخذ على نفسه اليثاق إن من الله عليه بالصحة ألا يظاً عتبة السلطان ولا أعوانه ، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن قرص الشعر فيهم ، وأن يعف عن التطلع إلى عطاياهم ، ويحتهد في محو اسمه من الديوان ، ويبتهل إلى ربه ويتسك^(١) .

وكان تأليفها أو شرحها بعد نوايع الكلم ، لأنه شرح كلمة نقار في صفحة ٧٢ من المقامات ، وقال : وفي نوايع الكلم : لن يسور النقار ما اسود القار ، وشرح كلمة ثور في صفحة ٢٣٠ فقال : وفي النوايع أم الزائر نزور ، وأم النابج ثور^(٢) . ويفهم مما ذكره في الشرح أن تأليفها أو شرحها كان بعد الكشف^(٣) ، وكان بعد الفائق في غريب الحديث^(٤) .

ويظهر أنه كتبها في مكة ، لأنه أشار إلى البيت العتيق بقوله : أسأل الله أن يغم لك سجال النعم ، ويعينك على إفادة أهل الحرم ، ويكتبك ببركة هذا البيت العتيق في زمرة العتقاء من النار^(٥) .

وهي خسون مقامة ، موضوعها النصيح والإرشاد والعظة ، موجة إلى نفسه ، مصدره كل منها بقوله : يا أبا القاسم . ولكل منها عنوان مثل : مقامة المرشد ، مقامة التنوى ، مقامة الرضوان ، مقامة الزهد ، مقامة الصمت ، مقامة القناعة ، مقامة العفة ، مقامة التوحيد ، مقامة الشهامة ، مقامة العزم ، مقامة أيام العرب .

(١) المقامات ٦ — في شرح الكلمات في غادح نوايع الكلم

(٢) شرح المقامات ١٠٥ (٤) شرح المقامات ٥٥

(٥) مقامة المقامات ٣

وهي وإن خالفت مقامات الحريري في الموضوعات والغاية فإنها محاكاة لها في الأسلوب المسجع الحافل بالمحسنات .

وقد شرحها الزمخشري نفسه شرحا مفصلا ، تعرض فيه للغة والبلاغة والنحو ، واستشهد بكثير من آيات القرآن الكريم والحديث النبوي وشعر العرب وأمثالهم وأخبارهم ، كقوله ^(١) :

الظائر يحمي بيضته ويرفرف عليها ، فضرب مثلا لما يذب عنه الإنسان من حوزته وحقيقته ، فيقال فلان يحمي بيضته ، ولو قيل فلان يرفرف بجناحه على بيضة الإسلام لكان مجازا مرشحا .

فإن قلت : ما بالهم قالوا : أذل من بيضة البلد مع قومهم أعز من بيضة البلد ؟ قلت : هي بيضة النعمامة ، وأضيفت إلى البلد وهي المفازة ، لأنها تباض فيها ، وأما تتركها فتحضنها أخرى ، فلما كانت متروكة من ناحية محضونة من أخرى وصفت بالعزة والذلة ، فقيل :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته ما أقام الروح في جسدي
لكن قاتله من لا يعاب به وكان قدما يسمى بيضة البلد

والقاتل أخت عمرو بن ود في علي رضي الله تعالى عنه وقتله أخاها .

وقيل المراد بالبيضة التي هي مثل في القل الكأمة البيضاء ، لأن الأرض تبيضها ، أو تشبهها بالبيضة ، فهو كقولهم أذل من ققع بقرقر .

وقوله في شرح « استنبق من الدهش » إنها كلمة موضوعة ، استعمل من باقل المضروب به المثل في العمى ، قيس على استنوق الجمل ونظائره ، نحو استنبط

العرب ، واستعرب النبط^(١) . ولكن لم يذكر هذا الاستعمال في أساس البلاغة .

وهذه نماذج من المقامات

١ — قال في مقامة العزلة^(٢) :

يا أبا القاسم ، أزلْ نفسك عن حبة الناس وأَنْزِلْها ، وأتِ قَرْعة من فراع
الجميل فانزلها ، ولذْ ببعض السكوف والغيران ، بعيدا من الرقعة والجيران ،
حيث لا تَعْلَقُ طرفك إلا بسوادك^(٣) ، ولا تجرى مؤامرتك^(٤) إلا مع فؤادك ،
ولا توصلْ إلى سمعك إلا همسك ومناجاتك ، وإلا جوارك^(٥) ومناذاتك . . .

قاتل الله بنى هذه الأيام ، فإنهم طلائع الشرور والآثام ، جوارهم غوار ،
ونفاهم^(٦) نقار ، ووفاقهم نفاق ، أساق^(٧) بسنتهم الأعراض ، كما ترشق بسهامهم
الأعراض^(٨)

٢ — ويختم بعضها بشعر من إنشائه ، كقوله في مقامة الزهد^(٩)

طوبى لعبد بجبل الله مَفْتَصَمَةٌ على صراط سوى ثابتٍ قَدَمُهُ

رث اللباس جديد القلب مستتر في الأرض مشير فوق السماء سَمُهُ^(١٠)

إذا الديون اجتلتته في بَذَاذِهِ تعلقواظرها عنه وتفتحه^(١١)

(١) المقامات ١٠١ (٢) المقامات ٧١

(٣) السواد : الشخص (٤) المؤامرة : المشاورة

(٥) الجوار : رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة ، وفي التنزيل (إذ هم ينجأون)

(٦) نفاهم : منافاتهم الكلام . نقار : منافرة ينقر بعضهم بعضا بالقب ، وفي نوايع
الكلم إن يسود النقار ، اسود انقار .

(٧) أساق : تضرب . قال تعالى : سلقوكم بألسنة حداد

(٨) المقامات ٢٥

(٩) السم : الاسم ومعنى البيت مبنى على قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : كونوا

جدد القلوب خلاق الثياب تخونون في الأرض تعرفون في السماء .

(١٠) البَذَاذَةُ : ترك التكلف في الطعام والملبس .

ما زال يستحق الدنيا بهِمَّتِهِ حتى تَرَقَّتْ إلى الأخرى بهِهمِهِ
فذلك أعظم من ذى التاج، متكئاً على النارق مُحْتَفًا بهِ حشمه
٣ — وفي نهايتها خمس مقامات، ملاً الأولى باصطلاحات نحوية، وسماها
(مقامة النحو) وملاً الثانية باصطلاحات عروضية، وسماها (مقامة العروض)
وملاً الثالثة باصطلاحات القافية وسماها (مقامة القوافي) والرابعة اختص بها
اصطلاحات ديوانية وسماها (مقامة الديوان) مثل الطاسيسج^(١) والتأريج^(٢)
والروزنامج^(٣) والأسكرار^(٤)، والخامسة قصرها على ذكر أيام العرب وسماها
(مقامة أيام العرب) وهذه المقامات الخمس مثقلة بالتكلف والتحمل، وإن دلت
على مهارة في اللعب بالألفاظ.
فمن مقامة النحو قوله^(٥):

يا أبا القاسم أعجزت أن تكون مثل همزة الاستفهام، إذ أخذت على ضعفها
صدر الكلام؟ ليمتلك أشبهتها متقدماً في الخير مع المتقدمين، ولم تشبه في
تأخر كحرف القانيث والتتوين، ضارع الأبرار بعمل الثواب الأواب،
فالفعل لحضارته الاسم فاز بالإعراب... ولا يكون ضميرك عن الهم الديني
سالياً، كما لا يكون أقمل من الضمير خالياً...^(٦)
ومن مقامة العروض قوله^(٧):

يا أبا القاسم، لن تبلغ أسباب الهدى بمعونة الأسباب^(٨) والأوتاد^(٩) أو يبلغ

(١) الطاسيسج: أفساط السواد سميت بأفساط المنقال وهو أربعة وعشرون طسوجاً.

(٢) التأريج: تعريب تاريخ وهو المظلم وهو سواد يعمل للعقد إذا احتاجوا إلى حمل الأبواب

(٣) الروزنامج: تعريب روزنامه وهو ما يكتب فيه ما يجري كل يوم من استخراج ونفقة

(٤) الأسكرار: كتاب يكتب فيه عدد الخرائط والكتب الواردة والتالفة

(٥) المقامات ١٨٠ (٦) شرح بتفصيل المراد من هذه المصطلحات

(٧) المقامات ١٨٦

(٨) الريب اسم لحرفين وهو سبب خفيف نحو قل وسبب ثقل نحو ريم...

(٩) الوند اسم لثلاثة أحرف نحو نعم ونحو قال...

أسباب السماوات فرعون ذو الأوتاد . إن الهـُـذي في عَرَوْضِ سَوَى علم
العَرَوْضِ ^(١) في العلم والعمل بالسنن والفروض ، ما أحوج مثلك إلى الشغل
بتعديل أفعاليه ، عن تعديل وزن الشعر بتفاعيله ^(٢) .

(٣) أطواق الذهب

وأما أطواق الذهب في المواظف والخطب فإنه مئة مقالة ، كل منها في بضعة
أسطر بغير عنوان ، أنشأها في مكة قبل تأليف الكشف ، قال في المقدمة :
« أسألك أن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ، وأن تحفظ فيها
ماوجب للجار ، من حق الدمام والذمار ، لأنها وجدت في حرمك المطهر ،
ورلدت في جحر بيتك المستر » ^(٣)

وقال الميرزا يوسف خان الأشعبياني في شرحه لها : يريد أنه أنشأ تلك المقالات
بمكة أجابها الله تعالى ، وذلك أنه كان بطوف بيت الله ، وإذا فرغ من الطواف
ألف مقالة ، ثم يقوم ويطوف وينشئ بعد الفراغ ، وما زال على ذلك إلى أن
بلغت مئة كاملة ^(٤) .

وشرحها أيضاً الشيخ يوسف أفندي الأسير .

ثم ألف شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله المغربي الأصفهاني كتابه أطباق

(١) العروض : الحائث والناحية . وسمى هذا العلم بالعروض لأنه ناحية من نواحي العلم ،
أو باسم الجزء الأخير من أجزاء المصراع الأول ، كما قل علم المواريث علم الفرائض لقول الفرضيين
فريضة الزواج كذا وفريضة الأم كذا ، وقبل العروض عمود البيت وقيل السعة التي في وسطه ،
أخذ الخليل هذه الأسماء من بيت العرب وهي السبب والوتد والقاسمة والعروض والضرب
نشيها بيت الشعر بيت الشعر .

(٢) تفاعيل الشعر سبعة خماسيان وخمسة سباعية وهي الأفاعيل
والأركان والمضادات والمساطع والأوزان

(٣) أطواق الذهب ٩ (٤) فلائد الأدب في شرح أطواق الذهب ٩

الذهب على غرار أطواق الذهب ، وقال إنني حذوت حذوه ، واقتفيت أثره
وخطوه ^(١) .

ثم حاكها السيد توفيق البكري في كتابه صهاريج اللؤلؤ ، ثم أحمد شوقي
في كتابه أسواق الذهب ، مع اختلاف الموضوعات وتفاوت العبارات .
وهذه ناذج من أطواق الذهب :

١ — من عرف منهل الذل فعاقه ، استعذب تقيع العز وذعافه ^(٢) ، ومن
لم يصطل بحر الهيجاء لم يصل إلى بر النعم ، ومن لم يصبر على برائن أسد اللقاء
لم يصب أطرافاً كالنعم ^(٣) ، ومن لم يقص عليه عُسْر يقْذُه ^(٤) ، لم يقيض له
يُسْر يقْذُه ^(٥) .

٢ — الدنيا أدوار ، والناس أطوار ، فالبس كل يوم بحسب ما فيه من
الطوارق ^(٦) ، وعاشر كل قوم بقدر ما لهم من الطرائق ^(٧) ، فالأيام لا تجري
على وفق مرادك ، والأيام لا تسري على طبق تأويلك وإسراك ^(٨) ^(٩)

٣ — يا بن آدم ، أصلك من صُصال كالفتخار ، وفيك ما لا يسعك من التَّيه
والافتخار ، تارة بالأب والجد ، وأخرى بالدولة والجد ، ما أولاك بالآ تصغر
خدك ، ولا تفتخر بجدك . تبصر خيلبي ممّ مرّ كبك ، وإلام منقلبك .
فخفّض من غلوائك ، وخلّ بعض خيلائك ^(١٠) .

(١) أطباق الذهب ٧ (٢) الذعاف : السم الشديد

(٣) العز : شجر لين الأغصان تشبه به بنان الحان .

(٤) يقْذُه : يوجعه

(٥) أطواق الذهب ٤٢ (٦) الطوارق : النشئون والأحداث

(٧) الطرائق : المذاهب

(٨) التأوب : السير من أول النهار . الإسّاد : سير لإقامة فيه .

(٩) أطواق الذهب ٦١ (١٠) أطواق الذهب ١٢

٤ — العلماء السوء جمعوا عزائم الشرع ودَوَّنوها ، ثم رَخَّصُوا فيها
لأمرء السوء وهو نَوْها ، ليتهم إذ لم يراعوا شروطها لم يَعْوْها ، وإذ لم يَسْمَعوها
كما هي لم يَجْمَعوها ^(١) .

٥ — ذو الحقيقة لا يَغْرِهُ دِيْباجُ الملوك ، ولا يَعْباُ إِلَّا بَعْبَاءَةُ الصُّلُوك ،
يقول : وراء الديباجة ليل داس ، وتحت العباءة نهار شامس ^(٢) .

(٤) النصائح الصغار والبهوالغ الكبار

مجموعة من النصائح والحكم في صور مقالات قصار عددها نحو التسعين .
منها قوله :

١ — القاضي تعمل فيه الرشوة ، ما لا تعمل في الشارب النشوة ، إن
أتمه فسكران مَيْلًا وطربًا ، وإن فاته فشكْلان وَيْلًا وحرَبًا ، كأنه لم يسمع
أن الرشوة من السُّحْتِ ، وأن السُّحْتِ مأخوذ من السَّحَّتِ ^(١) .

٢ — من لم يحفظ ما بين فسْكِيَّة ، ظل يُقَبِّبُ كَدَّيْه ، ويات يتعامل
على دَقِيَّة ^(٢) ، حزنا على ما فرط فيه من التحفظ ، وأسفاً على ما فرط منه
من التَّلَفُّظ ، ولو كان اللسان مخزونًا لم يسكن النُّوَادُ مخزونًا ، فلما يحرس
مهجته من لم يحرس لهجته ، ولن نجه على السر أمينًا ، إلا بكل أمانة قينا .

(١) أطواق الذهب ٨١

(٢) شامس : مشرق . أطواق الذهب ١٤٥

(٣) السُّحْتِ : بضم السين الحرام وفتحها الاستئصال

(٤) الذهب : الخبز

(٥) ربيع الأبرار

وأما ربيع الأبرار فقد ألفه بعد نوايح السكم وبعد ديوان شعره وبعد ديوان المنشور^(١).

وموضوعه كما قال في مقدمته « إجماع خواطر الناظرين في الكشف عن حقائق التنزيل ، وترويح قلوبهم للمتعبين بإجالة الفكر في استخراج ودائع علمه وخباياه ، والتنقيس عن أذهانهم المكدودة باستيضاح نواامضه وخفاياه » .

وقد عرض فيه لسكثير من الموضوعات مثل الأوقات وذكر الدنيا والآخرة ، والسماء واللكواكب ، وذكر العرش والكرسى ، والسحاب والمطر والثلج والرعد والبرق وما يتصل بذلك من ذكر الاستمطار وغيره ، والهواء والريح والنسيم والحر والبرد والظل ، والنار وأنواعها وأحوالها وذكر نار جهنم وأحوالها والسراج والشمعة ونحو ذلك ، والأرض والبال والبال والبال وجواهر الأرض والمنازل وذكر الرحفة والخسف ، والماء والبحار والأودية والأنهار والعيون والآبار وما اتصل بذلك وناسبه من ذكر السفن والسباحة وغيرها ، والشجر والنبات والفواكه والرياض والبساتين وذكر الجنة ، والبلاد والديار والأبنية وما يتصل بها من ذكر العمارة والخراب وحب الوطن ، والجنون والحق والسفه والعفلة والحزن والعجلة وترك الأناة والفصول ، والرسوم في معايشة الناس وعلاقاتهم ومصالحهم ومجاساتهم ومراسلتهم وذكرهم وزيارتهم ، وذكر السلام والتحية وآداب النفس وما يتصل بذلك ، والقصاص وما ورد من حكاياتهم وملحهم ، والمتصوفة وما جاء في أكلامهم ورزقهم ، والمنطق وذكر

الخطب والشعر والفضاحة والبلاغة والعي والإفهام والإيجاز وما اتصل بذلك ،
والنساء ونكاحهن وطلاقهن وخطبتن والإعراس بهن ومعاشرتهن وما يحمد
ويذم منهن .

وهو يعتمد في هذا الكتاب على النقل من بعض كتبه ، ومن الجاحظ ،
وغیره ، ويذكر كثيراً من الأحداث والأخبار والأشعار ، وما روى عن
السابقين فيها وفيما اتصل بها ، فتجد كثيراً من الأسماء تتردد مثل عمر بن
الخطاب وابن عباس وعلى بن أبي طالب والحدري والحسن وأنس بن مالك
ووهب بن منبه وأحمد بن يوسف والصنوبري والمأمول والقرزوقي وابن مسعود
وابن الرومي والأصمعي والحجاج وعبد الملك بن مروان وبدیع الزمان الهمداني
وسهل بن هارون وأنوشروان الخ .

ومن هذا يتبين أن الكتاب مجموعة من المعارف والطرائف أكثره
بعبارات غيره . وهذه نماذج منه .

١ - قال في معاشرته الناس وملاقاتهم ومصاقتهم ومراسلتهم وذكرهم
وزيارتهم ^(١) .

جابر رضى الله عن النبي صلى الله عليه وسلم : من أخلاق النبيين والصدّيقين
البشاشة إذا تراؤا ، والمصالحة إذا تساقوا ، والزائر في الله حق على المزور
إكرامه .

كان القمّاع بن نور الهذلي إذا جالسه رجل جعل له نصيباً من ماله ، وأعانه
على حوائجه ، وتدا إليه شاكرًا .

عن محمد بن عبد الله بن يحيى بن خاقان قال : بعثني أبي إلى المعتضد في

شيء ، فقال لى : اجلس . فاستعظمت ذلك ، فقلت إنه لا يجوز ، فقال لى :
يا محمد ، إن أدبك فى القبول منى خير من أدبك فى قيامك .

قال رجل لأبى خليفة الجمحى : ما أحسبك تنسبى ، قال : وجهك يدل
على علو نسبك ، والإكرام يمنع من مسألتك ، فأوجد السبيل إلى معرفتك .
قال أبو تمام :

يحميه لآ لاؤه ولو ذر عيته من أن يقال بن أو ممن الرجل ؟
وفى معناه

ارم بعينيك فى مفارقنا فمقد التاج غير ملتئم
للمعى :

ولو كنتموا أنسابهم اعزتهم وجوه وفعل شاهد كل مشهد
ابن عباس : جليسى على ثلاث : أن أرميه بطرفى إذا أقبل ، وأوسع له
إذا جلس ، وأصغى إليه إذا حدث .

زار الخليل بعض تلامذته فقال له : إن زرتنا فيفضلك ، وإن زرتنا
فلفضلك ، فلك الفضل زائرا ومزورا .

أراد رجل أن يقبل يد هشام بن عبد الملك فقال : لا تفعل ، فإنما يفعل
من العرب الطمع ومن العجم الطبيعة .

قال رجل للمصور : أعطنى يدك أقبلها ، قال : إنا نصورك عنها ، ونصورها
عن غيرك .

سأل بعض أصحاب أبى حنيفة الشافعى عن مسألة ، فأجاب عنها ، فقال له :
أخطأت . فقال : لو كنت مكانك ثم كلمتك بمثل ما كلمتني لاحتجت إلى أدب .

كان أردشير إذا تمطى قام مُتَّارَه ، وكان قباض إذا رفع رأسه إلى السماء قاموا .
 بهرام جور : إذا لم تصد قلوب الأحرار بالبشر والبر فبأى شيء تصيدها ؟
 معاوية : نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط ، وأكلت الطعام
 حتى لا أجد ما أمر به ، وشربت الأثربة حتى رجعت إلى الماء ، وركبت المطايا
 حتى اخترت نعل ، ولبست الثياب حتى اخترت البياض ، فمات من اللذات
ماتتوف إليه نفسى إلا محادثة أخ كريم .
 ليبيد :

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه والمرء بصاحبه الجليس الصالح
 ٢ — وقال فى القصص والمتصوفة^(١) :

خباب بن الارت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن بنى إسرائيل لما
 قصوا هلكوا .
 ابن عمر رضى الله عنه : لم يقص على عهد رسول الله ولا عهد أبى بكر ولا
 عهد عمر وعثمان ، وإنما كانت القصص حين كانت الفتنة .
 ابن المبارك : سألت الثورى : من الناس ؟ قال : العلماء ، قلت : من الأشراف ؟
 قال : المتقون ، قلت : من الملوك ؟ قال : الزهاد ، قلت : من الغوغاء ؟ قال :
 القصاص الذين يأكلون أموال الناس بالكلام .
 وهب رجل لقاص خاتما بلا فص ، فقال : وهب الله لك فى الجنة غرفة
 بلا سقف .

قال ابن السَّمَّاء للمتصوفة : إن كان لباسكم هذا مواقف أسرائركم لقد أحببتكم
 أن يطلع الناس على أسرائركم ، ولئن كان مخالفا لسرائركم لقد هلكتم .
 قال بعضهم : قلت لصوفى بعنى جيبك . فقال إذا باع الصياد شبكته فبأى
 شيء يصيد ؟

٣ — وقال في النساء ومعاشرتهن ^(١) : —

عوتب السكسائي في ترك الزواج فقال : مكابدة العفة عنهن أيسر من الاحتياج لمصاحبتهم .

قيل لأعرابي يجمع بين ضرائر : كيف تقدر عليهن ؟ قال : كان لنا شباب يطاوعهن علينا ، ومال يصورهن إلينا ، ثم قد بقى لنا خلق حسن ، فنحن نتعاشر به .

خطب بنت دقيانوس غني وفقير ، فاختر الفقير ، فسأله الإسكندر ، فقال : كان الغني جاهلا وكان يخاف عليه الفقر ، والفقير عاقلا فكان يرجي له الغنى .

قال مصعب السكينة : أنت مثل البغلة لا تلدين . قالت : لا والله ولكن أبني كرمي أن يقبل لؤمك .

الأحنف : لأفعمى تحكك في يدي أحب إلي من أئيم رددت عنها كفنا . قال عمر رضي الله عنه لرجل هم بطلاق امرأته وزعم أنه لا يحبها : أو كل البيوت تبني على الحب ، فأين الرعاية والتدبم ؟ .

قال عبد الملك لابن الرقاع : كيف علمك بالنساء ؟ قال : أنا والله أعلم بهن ، وأنشأ يقول :

قُضَاعِيَّةُ الْعَيْنَيْنِ كِذْبِيَّةُ الْحَشَا خُرَاعِيَّةُ الْأَطْرَافِ طَائِيَّةُ الْفَمِ

لَهَا حَكْمُ لِقَاسٍ وَصُورَةُ يُوسُفَ وَمَنْطِقُ دَاوُدَ وَعِفَّةُ مَرْيَمَ

سئل المغيرة بن شعبه عن النساء ، فقال : بنات العم أحسن مواساة ، والغرائب أنجب ، وما ضرب رهوس الأقران مثل ابن السوداء .

أيو عمر بن العلاء عن رجل : لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدي منها . قيل : وكيف ؟ قال : أنظر إلى أبيها وأُمِّها فإنها نحى بأحدهما .

الفصل العاشر

في روضتي الشعر

خلف الزمخشري ديوان شعر في ١١٩ ورقة^(١)، جمع قصائده استجابة لمشورة ابن وهاس كما ذكر في المقدمة .

فأما موضوعات هذا الديوان فهمها :

١ — المدح ، ففيه مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم^(٢) ، ومدائح لابن وهاس^(٣) ، ولنظام الملك^(٤) ، وللملك سنجر^(٥) ، ولعبيد الله بن نظام الملك^(٦) ، ولعبد الله^(٧) ولعين الدولة^(٨) ، ولجوير الدولة^(٩) ، ولفخر المعالي^(١٠) ، وللوزير محمد^(١١) ، وللموفق^(١٢) ، ولمحمد خوارزمشاه^(١٣) ، ولمحمد بن أبي الفتح السلجوقي^(١٤) ، ولبنى زريق بهمدان فقد زارهم أيام إقامته بالحجاز^(١٥)

٢ — الشكوى من الزمان ومن الناس ومن معاندة الحظ .

٣ — الغزل .

(١) راجع مؤلفاته	(٢١) الديوان ٨٩
(٣) الديوان ٢٧	(٤) الديوان ٩٤
(٥) الديوان ٢٠	
(٦) الديوان ٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ١٠٦	
(٧) الديوان ١٤ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٩٩ ، ١٠٥	
(٨) الديوان ١٥	(٩) الديوان ٢٢
(١٠) الديوان ٢٧	(١١) الديوان ٣٣
(١٢) الديوان ٧٤	(١٣) الديوان ٨٢ ، ١٠٦
(١٤) الديوان ٨٥	(١٥) الديوان ١٩٠

٤ — الفخر .

٥ — الحكمة .

٦ — التزهيد .

٧ — المراسلات والرد على الإخوان والشوق إليهم .

٨ — الحنين إلى مكة .

٩ — الرثاء ، كثرثائه لمحمد بن أرسلان^(١) ولسراج الدولة^(٢) ولابن سميان^(٣)

خصائص شعره

١ — أما الطابع العام^(٤) لشعر الزمخشري فإنه شعر عالم امتزجت نفسه بالحقائق العلمية وقضاياها ، وأخذ نفسه بمجد الحياة وواقعها ، فكان ينبوع عواطفه وشلا تارة وناصبا تارة ، وقلمها تفجر دافقا فياضا ، فجاء خياله من القريب الذي لا يحلق في الآفاق البعيدة ، وجاءت صورته تكريرا لما رسم سابقوه .
وأما أسلوبه فرصين جزل لا تحس فيه بضعف أو تهافت في أية قصيدة من قصائده .

٢ — وهو يبدأ بعض مدائحه بغزل تمهيدى لا حرارة فيه ، على طريقة كثير من القدماء ، كقوله في مدح الوزير مجير الدولة الأردستاني^(٥) :
أيا حبذا سَعْدِي وَحُبَّ مُقَامِهَا ويا حبذا أين استقلَّ خيامها
حياتي وموتي قرب سَعْدِي وَبُعْدُهَا وعزى وذلى وضأها وانصرامها
سلام عليها أين أمست وأصبحت وإن كان لا يُقْرَأُ عَلَى سَلامها

(١) الديوان ١٦ ، ٣٢ (٢) الديوان ٣٦

(٣) الديوان ٧٠

(٤) حينما كنت أقرأ مخطوطة الديوان لأكتب في تفصيل عن شعر الزمخشري عرض على أحد أبنائي من طلبة الدراسات العليا أن يعد رسالته عن الزمخشري الشاعر ونحقيق ديوانه بإشراف ، فاكفيت بهذه الإشارات .

(٥) إنباء الرواة ٣/٣٦٧ وقال إن الوزير خلع عليه وأعطاه فرسا وألف دبتار

(م ١٩ — الزمخشري)

رعى الله مَرْحًا قَدَرعى فيه سَرْحُهَا (١)
 إِذَا سَحَبْتُ سَعْدَى بِأَرْضٍ ذِيوَهَا (٢)
 وَإِنْ مَايَسَتْ قَضِيَانٌ بَانٍ رَأَيْتَهَا تَفَكُّسٌ وَاسْتَعْلَى عَلَيْهَا قَوَامُهَا (٣)
 ويمثل هذا الغزل بدأ مدحته لصدر الملك (٣).

٢ - ويقدم لبعضها بالشكوى من سوء حاله ، والفخر بعلمه وأدبه ،
 والسخط على الدهر الذى جاد على الجاهل ، ويحل على العلماء ، كقوله فى مدحة
 لنظام الملك (٤) :

خَلِيلِي هَلْ تَجِدَى عَلَى فَضَائِلِي إِذَا أَنَا لَمْ أَرْقَعْ عَلَى كُلِّ جَاهِلٍ ؟
 مِنْ الْغَبْنِ ذُو تَقْصٍ يَصِيبُ مَنَازِلَا أَخُو الْفَضْلِ مُحَقَّقٌ بِتِلْكَ الْفَضَائِلِ
 وَمَنْ لِي بِحَقِّ بَعْدِ مَا وَفَّرْتُ عَلَى أَرَادَهَا الدُّنْيَا حَقُوقَ الْأَمَائِلِ ؟
 كَذَا الدَّهْرُ كَمْ شَوَّاهَ فِي الْحُلَى جِيدَهَا وَكَمْ جِيْدٍ حَسَنَاءِ الْمَقَادِرِ عَاطِلِ
 وَمِمَّا شَجَانِي أَنْ غُرْمَنَا قَبِي تَغْنَى بِهَا الرِّكْبَانُ بَيْنَ الْقَوَائِلِ
 وَطَارَتْ إِلَى أَقْصَى الْبِلَادِ قَصَائِدِي وَسَارَتْ مَسِيرَ النُّبَرَاتِ رَسَائِلِي
 وَلِي فِي دَقِيقِ النُّحُو وَالنَّقْدِ مَنَطِقٌ إِذَا قَلْتَهُ لَمْ أَبْقِ قَوْلَا لِقَائِلِ
 غَنِيٌّ مِنَ الْآدَابِ لَكِنِّي إِذَا نَظَرْتُ فَمَا فِي الْكَفِّ غَيْرُ الْأَنَامِلِ
 فِيَالْيَتَنِي أَصْبَحْتُ مُسْتَفْنِيَا وَلَمْ أَكُنْ فَخَزْ خُورَزْمٍ وَرَأْسَ الْأَفَاضِلِ
 وَبِالْيَتَنِي مُرِضٌ صَدِيقِي وَمُسَخِّطٌ عَدُوِي وَأُنَى فِي فَهَاهَةِ بَاقِلِ

(١) سَرْحًا : لَمْلَمًا وَأَعَامَهَا . سَامَ فِيهَا سَوَامَهَا : رَعَتْ فِيهَا لَمْلَمًا .

(٢) الرِّغَامُ : التُّرَابُ .

(٣) الدِّيَوَانُ ١٢

(٤) الدِّيَوَانُ ٩٤

فقلتُ بفضلي بالغاً ولو اني كتمتُ إبادي أو كسحباني وائل
ويصرح بطلب العطاء في بعض المدائح ، كقوله لنظام الملك ^(١) :

وكم قلت ألقى في وزارتك للنبي وأدرك وحدي ما أرتجى كل أمل
ولم أدر أن الأردلين يرؤن ما تموناً وأنى لست أحظى بظائل
فوقع إلي هذا الزمان فإنه غلامك يجمعني كبعض الأراذل
وقوله في مدح عبید الله ^(٢) :

لقد طفتُ في نجد البلاد وغورها فما كان إلا بالوزير مُعرجي
وما أرتجى إلا عطية كفه وهل غير هذي الكف كف لمرتجى ؟
وقوله ^(٣) :

وابذل لأهل الفضل منك مودة فإن الفضائل لابنهن ودود
ومتى بذلت لهم وداداً فليكن متخصصاً بزيادة محمود
ونلاحظ أنه لم يقتصر على الطلب الصراح ، بل جهر بأن يؤثره وحده في
قوله : « وأدرك وحدي ما أرتجى كل أمل » .

وطالب بأن يسكن أعظم نوالاً من سواء في قوله :

ومتى بذلت لهم وداداً فليكن متخصصاً بزيادة محمود
وهو في هذا الطلب الصراح يشبه جريراً في قوله لعبد الملك بن مروان ^(٤) :
أغثنى يا أبا عبدك أبي وأمي : سئيب منك إنك ذو ارتياح
شاكراً إن رددت علي ريشي وأبنت القوادم في جناحي

(١) الديوان ٩٤

(٢) الديوان ٣٢

(٣) الديوان ٣٥

(٤) الأغاني ٦٥/٥

وقوله لعمر بن عبد العزيز^(١) :

إني لآمل منك خيراً عاجلاً والنفس مولعةٌ بحب العاجل
والله أنزل في الكتاب فريضةً لابن السبيل وللفقير العائل
ويشبه المتنبي في قوله لكافور^(٢) :

أبا مسك هل في الكأس فضل أنا له فإني أغني منذحين وأشرب
وهبت على مقدار كفتي زماننا ونفسي على مقدار كفيك تطلب
وقوله له^(٣) :

أرى لي بقربي منك عينا قريرةً وإن كان قربا بالبعد يُشَابُ
وهل نافع أن تُرفعَ الحجبُ بيننا ودون الذي أملت منك حجاب؟
وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوني بيان عندها وخطاب

٤ — ويبرع في حسن التخلص من الغزل التمهيدى إلى المدح ، فيصور
نفسه مهبض الجناح من كثرة ما صوب الدهر إليه سهام ، ولكنه صار في
رعاية الأمير الذي يقيه سهام الدهر وخطوبه ، فيقول^(٤) :

أزمعوا السيرُ بُكرةً واستقلوا سقط الغيث حيث ساروا وحلوا
استقلوا فكيف لى بحياة ولقدِمْتُ قبل أن يستقلوا
استمعوا دمي وفي صلاح ودم الصالحين لا يستجَل
غلبتني الدثني وهن ضعاف ربما يغالبُ الأعزُّ الأذل
واستنزلت سعاد منى رزينة ثابت الحلم والحليم كيدل

(٢) ديوان المتنبي ١/١٢٦

(٤) الديوان ١٠٢

(١) ديوان جرير ٤١٥

(٣) ديوان المتنبي ١/١٣٩

لَا تَرَوْكَ كَسْرَةً يَخْشَى إِنَّمَا يُمدِّحُ الْمَلِكَ فِي الْأَوَّلِ
عَجَمَتْ عودى النواذب قَدَمًا تِلْكَ آثارها عَلَى تَدَلُّ
وَأَنَا الْيَوْمَ إِن عَرَفْتِ خَطُوبَ فَلْ أُنِيبْهَا الْأَمِيرُ الْأَجَلِ
إِنَّمَا حَضْرَةُ الْأَمِيرِ لَمِنْ بِشْكَو صُرُوفَ الزَّمَانِ شَمْسٌ وَظَلُّ
كَأَيَّ حَسَنِ التَّخْلُصِ مِنَ الشُّكُوفِ إِلَى الْمَدْحِ ، فَإِنَّهُ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي مَدَحَ بِهَا
نِظَامَ الْمَلِكِ ^(١) صُورَ آلامِهِ مِنْ تَعَاسَةِ حَالَتِهِ ، وَازْدَهَى بِتَقَافَتِهِ وَكَفَافَتِهِ ، وَعَجِبَ
مِنَ التَّغَاضِي عَنْهُ ، وَالْحَنُو عَلَى غَيْرِهِ ، وَتَخَلَّصَ مِنْ هَذَا إِلَى الْمَدْحِ بِقَوْلِهِ :

وَمَا حَقَّ مِثْلِي أَنْ يَكُونَ مُصَيِّعًا وَقَدْ عَظُمَتْ عِنْدَ الْوَزِيرِ وَسَائِلِي
وَأَعْظَمَهَا أُنَى نَسِيبُ نِصَابِهِ إِذَا عَرِضَتْ أَنْسَابُ هَذِي الْقِبَائِلِ
وَقَدْ كَانَ يَرعى النَّاسَ حَقِّي قَبْلَهُ عَلَى عَدَمِ الْقُرْبَى وَبُعْدِ الْوَسَائِلِ
٥ — وَبَعْنَى بِالْحُسْنَاتِ ، كَمَا تَرَى الطَّبَاقَ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي مِنَ الْفَرْزِ بَيْنَ حَيَاتِي
وَمَوْتِي ، وَبَيْنَ قَرَبٍ وَبُعْدٍ ، وَعَزٍ وَذُلٍّ ، وَوَصْلٍ وَانْقِرَامٍ ، وَكَأَنِّي فِي الْبَيْتِ الثَّلَاثِ
بَيْنَ (سَلَامٍ عَلَيْهَا) وَ (إِنْ كَانَ لَا يَقْرَأُ عَلَى سَلَامِهَا) وَبَيْنَ أُمْسٍ وَأَصْبَحَتِ .
وَتَجِدُ الْجَنَاسَ فِي الْبَيْتِ الرَّابِعِ بَيْنَ (رَعَى اللَّهُ) بِمَعْنَى حَفِظَ مِنَ الرِّعَايَةِ
(وَرَعَى فِيهِ سَرَحَهَا) مِنَ الرِّعَى وَالْأَكْلِ ، وَبَيْنَ (سَرَحًا) وَ (سَرَحَهَا) وَبَيْنَ
(رَوْضٍ) وَ (أَرْضًا) وَ (سَامٍ) وَ (سَوَامٍ) .

وَهَذَا الْكَلْفُ بِالْحُسْنَاتِ وَاضِحٌ فِي قَوْلِهِ يمدِّحُ بَنِي زُرَيْرٍ ^(٢) :

كَمْ قَلْتُ فِي خُورَزْمَ عِنْدَ تَرَحُّلِي لِرُكَاثِي سِيرِي إِلَى هَمْدَانَا
وَالِى الْكِرَامِ بَنِي زُرَيْرٍ لَمْ تَزَلْ تَجْفُو بَنَاتِ غَرِيرِ الْأَوْطَانَا ^(٣)

(١) سَبَقَتْ آيَاتٌ مِنْهَا فِي طَرِيقَتِهِ الَّتِي بَدَأَ بِهَا قِصَائِدَ الْمَدْحِ .

(٢) الدِّيْوَانُ ١١٠ (٣) بَنَاتُ غَرِيرٍ : الطُّيُورُ

وبنو زريق ما تَزَرُّ ثيابهم إلا على المَصَبات من تَهْلَانَا
٦ — وهو حين يعبر عن عاطفة صادقة جياشة بتحرر من المحسنات المتصيدة ،
لأنه يندمج مع الفكرة أو مع الشعور ، كقوله في تصوير ضيقه بالإقامة في
خوارزم (١) :

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا إِلَى الَّتِي فِيهَا تُغْدِيْتُ وَلَيْسَ دَا
وَلَسَكُنْ تَوَاسَى بِالْكَرَامَةِ غَيْرُهَا وَهَذَى أَرَى فِيهَا الْمَوَانَ عَتِيدَا
وَمَا مَنَزِلَ الْإِذْلَالِ لِلْحَرَمَنْزَلَا وَإِنْ كَانَ عَيْشُ الْخَرْفِيَةِ رَغِيدَا
سَأَرْحَلُ عَنْهَا ثُمَّ لَسْتُ بِرَاجِعٍ وَأَضْرِبُ مَرْمًى فِي الْبِلَادِ بَعِيدَا
فَلَا كُنْتُ إِنْ ضَمْتُ فِيهَا ابْنَ حَرَّةٍ وَلَا عَثْتُ بَيْنَ الصَّالِحِينَ حَمِيدَا
وقوله وهو فاصد مكة عازم على الإقامة بها حتى الموت (٢) :

قَامْتُ لَتَمْنَعَنِي الْمَسِيرُ تُمَاضِرُ أَنَّى لَهَا وَغِرَارُ عَزْمِي بَاتِرُ
سِيرِي تُمَاضِرُ حَيْثُ شَتَّ وَحَدَّثِي أَنَّى إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ سَائِرُ
حَتَّى أَنْيَخَ وَبَيْنَ أَطَارِي فَتَى لِلْكَعْبَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَجَاورُ
سَاقِمٍ ثُمَّ وَثَمَ تَدْفَنُ أَعْظَمِي وَلَسَوْفَ يَبْعَثُنِي هُنَاكَ الْحَاشِرُ
وقوله في مدح ابن وهَّاس (٣) :

فَتَى هُوَ حَالٍ بِالْمَعَالَى بِأَسْرَهَا وَقَدْ حَلَمَتْ مِنْهُ الْمَعَالَى بِأَوْحَدَا
نَجِيبٌ نَمَّتْهُ مِنْ ذُرْوَابَةِ هَاشِمٍ نَقِيَّاتُ أَعْرَاقِ أَطَاقِهِ مَوْلَدَا
وَلَوْ شَاءَ لَمْ يَمْتَدِّ نَجْدُ هَاشِمٍ نِصَابًا كِفَاهَ الْبُيُوتِ تَحْتَمِدَا

(١) الديوان : ٣٧ .

(٢) الديوان : ٤٢ .

(٣) الديوان : ٢٨ .

ونقرأ من سِيماه في قِسمائه شهادة حق أنه سِنطُ أحمد
هو الحرُّ ما أُضدَّى إلى نِعضِ معشر فأبصره إلا نَعَتُ به الصّدى
ولى منه نُضجُ الجُنب والعُقدة التي أبَت أن يرى الرادون أوثق مَعقدا

٧ — وقد يلجأ إلى المبالغة الدالة على نضوب العاطفة ، كقوله في مدح
الملك سنجر ^(١) :

سمَّاه كل الناس كعبةً سُوِّدِرَ أهلُ الخوانج منهم حُجَّاجُها
وكانما السلطان سنجر كعبة للملك منتجبُ الملوك رِتاحِها
رَكِبَ السياسةَ وهي أصعبُ مركب فتطامن لركوبه أُنَاجِها
أَلِفَتْهُ دونهم فما إلجامها إلا على بده ولا إسراجها
لو أنه ركب النجوم لما نَبَتْ أفرادها عنه ولا أزواجها
جَهَنَّمُ الحيا للعِدا طلق إذا ضيفانه نزلت به أفواجها
يحسرى إليهم سَيِّبُهُ بأناملٍ مثلَ البحار تَلالِمْتْ أمواجها
تَبْغِي الحقيقةَ في أمورِك كلها إن الحقيقة واضحة منهاجها
لو أن عدلك شُبَّتهُ بِمِياها لارْتَدَّ كالغذب الفُرات أجاجها

والمبالغة المفرقة واضحة في كثير من الأبيات وبخاصة البيت الخامس والتاسع.

٨ — وللمختشري حكم صاغها شعراً ، كما أن له حكماً كثيرة صاغها
نثراً ، ولكن حكمه الشعرية لا ترقى إلى أوج حكم المتنبي وأبي العلاء ، لأنها
لا تصور دخائل النفوس ، واصطراع العواطف ومشكلات الأفراد والجماعات ،

والطب الناجع في علاج هذه المشكلات ، وإنما هي أقرب إلى الوعظ المألوف
والنصح المعتاد ، كقوله (١) :

ليسَ السيادةُ أكلاماً مطرزةً	ولا مراكيبٌ يجرى فوقها الذهب
وإنما هي أفعالٌ مذهبَةٌ	ومكرماتٌ يليها العقل والأدب
وما أخو المجد إلا من بغى شرفاً	يوماً فهان عليه النفس والنشب
وأفضل الناس حرٌّ ليس يغلبه	على الحِجَا شهوةٌ فيه ولا غضب

خاتمة المطاف

أما بعد ، فقد آن للقلم أن يتوقف بعد تطواف طويل الشقة ، لكنه رغب
الجهد ، حميب المشقة ، لتبين المعالم البارزة من الرحلة في صحبة الزمخشري .
فما هذه المعالم ؟ .

١ - لقد طالعنا اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية وفروعها ناضرة
ناضجة في زخمشر مدينة وإقليم وفيما حولها ، وأشرق علينا من سماء المنطقة
كلها نجوم شع علمها وأدبها على الشرق وعلى الغرب من بخارى إلى قرطبة ،
وما تزال أشعتها تنير الطرق للباحثين والدارسين .

٢ - ورأينا اللغة العربية والثقافة الإسلامية لم تنقشر هناك فحسب ،
بل استقرت استقراراً مطمئناً ، فصبغت مناطق واسعة شاسعة عدة قرون ،
ثم صارت كلها أو أكثرها اليوم من الاعتماد السوفيتي ، فياحسرنا عليها .
ومعنى هذا أن العرب لم يقوموا وحدهم بنشر لغتهم وثقافتهم ودينهم ، بل
إن سكان تلك الأقاليم شاركهم إذ سارعوا إلى الإسلام فاعتنقوه ، وأقبلوا
على علومه ، وبادروا إلى اللغة العربية فأداروا بها ألسنتهم ، وأجروا أقلامهم ،
واصطفوها لغة لهم ، ثم اندمجوا في آدابها وثقافتها فانتقلوا إلى العروبة انتقالاً ،
وإن شئت فقل إنهم استعربوا استعراباً ، حتى صاروا ينافسون العرب في
الإنتاج بالعربية ، والتأليف فيها ، والغوص إلى أسرارها ، وكان كثير من
الأمراء والوزراء كلّفوا بالعلوم العربية والإسلامية ، حفيّاً بالأدب والأدباء ،
حتى لسكانهم بنو العباس في عصرهم الذهبي ببغداد .

٣ — ورأينا الرحلة في طلب العلم أجدى وسائل طلابه ، إذ كان العالم الحجة مقصد العطاش إلى المعرفة يؤمنونه من بلاد نائية ، كما تنقل الرخشري من إقليم إلى آخر ، واستقى من مدينة بعد مدينة ، ودرس على هذا وسمع من ذلك ، ولم يأنف — وقد بلغ مرتبة المناظرة للعلماء — أن يجلس من أستاذ كبير جلسة المتعلم المشوق إلى أن يجيزه أستاذه .

٤ — وتبين لنا أنه كان مشغولاً بالمعرفة ، بتزويدها من الأساتذة تارة ومن الكتب تارة ، فتنوعت ثقافته ، وتميزت عقلية ، وتعددت مؤلفاته ، وكثر تلاميذه والمعجبون به ، فشغل معاصريه ومن بعدهم ، سواء في ذلك موافقوه ومخالفوه ، وما تزال بعض كتبه من المنابع الأصلية للفكر العربي الإسلامي إلى اليوم ، كالكشف وفنونه ، وأساس البلاغة وحقائقه ومجازاته ، والمفصل وشروحه .

٥ — وليس من الزيد في شيء أن نصف الرخشري بأنه كان أرفع المعتزلة تأويلاً للآيات القرآنية ، لتطابق مذهبهم . ومن حقه أن نشيد بأنه ما كان يريد من هذا التأويل الذي عني به نفسه إلا أن يبرز الخالق سبحانه وتعالى عن أية شبهة قد تتسرب منها المشابهة لمخلوقاته أو المماثلة ، فقد كان الرجل عريق التدبير ، عميق الإيمان ، عظيم التقوى ، غيوراً على الإسلام أشد الغيرة .

٦ — كذلك كان الرخشري أول من فرق بين علوم البلاغة وقسمها إلى معان وبيان ، وجعل البدع تابعا لها وحلية ، ثم جاراها في هذا التقسيم السكاكي ومن بعده إلى اليوم .

٧ — وهو صاحب السبق إلى تأليف معجم لغوي مرتب على الحروف الهجائية ، هذا الترتيب الدقيق السهل الذي نجده في أساس البلاغة ، كما نجد شبيهاً به في كتابيه الآخرين الفائق والمستقصى .

٦ — على أنه قد كان — وهو فارسي الأصل — مغرماً باللغة العربية بفضلها على سائر اللغات ، ومؤثراً للعرب يرفعهم إلى أسنى الدرجات ، لأنه ربط ارتباطاً

وثيقاً بين العروبة والإسلام ، وبين حب العروبة والإسلام ، وكان يحتشئ من الشعوبية على البلاد التي أسلمت واستعربت ، لأن الذي ينعق على العرب اليوم سينعق على الإسلام في الغد ، ولأن وحدة اللغة والثقافة والعقيدة والحضارة والتاريخ والوجدان المشترك كلها دعائم وطيدة في حصن الإسلام ، يسند بعضها بعضاً ، فلا بد من الحفاظ عليها موصولة متساندة ، وإلا تطرق الوهن إلى الصرح الأشم الذي يترى به أعداء الإسلام أينما تربص .

٩ — وعلى الذين يتهمون اللغة العربية بالعمق والجود أو النزارة أن يرجعوا إلى مؤلفات الزمخشري ، ليعلموا أن العربية ثرية مرنة نشور ، اتسعت في مؤلفاته للتعبير الدقيق عن قضايا التشريع وعلم الكلام والفلسفة والنحو والبلاغة ، وسلمت لغيره الفني وأشعره ، كما وسعت اللحوم التي مارسها سابقوه ومعاصروه ولاحقوه ، ولم تغتر إلا حينما تغتر أهلها ، وتخلفوا عن مسايرة الزمن ، لأن اللغات لا تحيا وحدها بمعزل عن المجتمع الذي يتكلم بها ويقرأ ويؤلف ويعبر .

١٠ — والخير لمن ينصرفون عن العلوم والآداب طموحاً إلى متاع زائل أن يتأسوا بالزمخشري ، إذ أنه قلق في أول حياته ، ثم تغلب على مثل هذا الطموح ، فانصرف إلى الإنتاج ، لأنه وجد فيه الجهد الذي لا يفنى ، والجاه الذي لا يحول ، والسعادة التي لا يرتفعها شيء ، حتى لقد استعاض بمؤلفاته عن الزوجة والبنين ، بل فضلهما عليهم تفضيلاً .

١١ — وإني لأمل أن تشرق علينا كتب التي توارت ، فقد كان كتابه (المستقصى في أمثال العرب) محتجباً لم يطبع إلا منذ ثلاث سنوات ، وأعل فيها أوفى عدد منها فيضاً غزيراً يروي الظامئين .

وأرجو أن يطبع ديوانه ، فإن به شعراً كثيراً يتراوح بين التوسط والجودة ، وهو في حاله تصوير لبعض مظاهر المجتمع الذي عاصره ، ولبعض الأحداث التي مرت به ، وهو صورة لنفسه ، وأفنان في دوحة أدبه .

المراجع

١ — أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . شمس الدين المقدسى . ليدن

سنة ١٩٠٢ .

٢ — أساس البلاغة . الزمخشري . مطبعة دار الكتب بالقاهرة (١٣٤١

هـ — ١٩٢٢ م)

٣ — أطواق الذهب في المواعظ والخطب . الزمخشري . شرح الشيخ يوسف الأسير . الطبعة الثالثة ببيروت سنة ١٣١٤ هـ

٤ — أعجب العجب في شرح لامية العرب . الزمخشري . الطبعة الثانية

سنة ١٣٢٤ هـ .

٥ — الأعلام — الأستاذ خير الدين الزركلى . الطبعة الثانية .

٦ — أمالي المرتضى . السيد المرتضى . القاهرة سنة ١٩٠٧ .

٧ — إنباء الرواة على أنباء النحاة . القفطى . تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل

إبراهيم . مطبعة دار الكتب سنة ١٣٧٤ هـ . ١٩٥٥ م .

٨ — الأمموزج في النحو . الزمخشري . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية

سنة ١٢٩٩ هـ .

٩ — الانتصار أبو الحسين الخياط . القاهرة ١٩٢٥ م

١٠ — الانتصاف من الكشاف . أحمد بن المنبر السكندري . على هامش

الكشاف .

١١ — الأنساب . السمعاني . نسخة مصورة سنة ١٩١٢ م

١٢ — إيران في عهد الساسانيين . كريستنس . ترجمة الدكتور يحيى

الخشاب . القاهرة ١٩٥٧ م

- ١٣ — البداية والنهاية في التاريخ . ابن كثير . مطبعة السعادة بمصر .
- ١٤ — البصائر والذخائر . أبو حيان التوحيدي . بتحقيق الأستاذين ..
أحمد أمين والسيد طلحة صقر . مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٧٣ هـ . ١٩٥٣ م
- ١٥ — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . السيوطي . مطبعة السعادة .
سنة ١٣٢٦ هـ .
- ١٦ — البلاغة العربية : تاريخ ونظور . الدكتور شوقي ضيف . دار
المعارف سنة ١٩٦٥ . القاهرة
- ١٧ — البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .
مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٦٧ هـ . سنة ١٩٤٨ م
- ١٨ — تاريخ آدب اللغة العربية . جورجى زيدان . دار الهلال
سنة ١٩٥٧ م .
- ١٩ — تاريخ آل سلجوق . العماد الأصفهاني . مطبعة دار التأليف بمصر .
- ٢٠ — تاريخ أبي الفدا . المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٢٥ هـ .
- ٢١ — تاريخ الأدب في إيران . برون . ترجمة الدكتور أمين الشواربي .
مطبعة السعادة . سنة ١٣٧٣ هـ . سنة ١٩٥٤ م .
- ٢٢ — تاريخ الحضارة الإسلامية . ف . بارتولد . ترجمة الأسة ذمرة طاهر .
مطبعة دار المعارف .
- ٢٣ — تاريخ الرسل والملوك . الطبرى . المطبعة الحسينية بمصر .
- ٢٤ — تاريخ الفلسفة في الإسلام . دى بور . ترجمة الدكتور محمد أبو ريده .
القاهرة سنة ١٩٢٣ م
- ٢٥ — ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . مطبعة دار المعارف .
- ٢٦ — ثلاث رسائل للجاحظ . نشرها يوشع فinkelstein

- ٢٧ — الجبال والأمكنة والمياه . الزمخشري . ليدن سنة ١٨٥٥ م
- ٢٨ — الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية . فون كريمر .
ترجمة الدكتور مصطفى بدر .
- ٢٩ — الحيوان . للجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون
- ٣٠ — الدولة الخوارزمية والمغول . الأستاذ حافظ حمدي . مطبعة الاعتماد
سنة ١٩٤٩ م
- ٣١ — الدولة العباسية . الأستاذ حسن خليفة . الطبعة الأولى .
- ٣٢ — ديوان جرير . مطبعة الصاوي بالقاهرة .
- ٣٣ — ديوان الزمخشري . مخطوط بدار الكتب . أدب ٥٢٩ .
- ٣٤ — ديوان المتنبي . بشرح البرقوقي . المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٨ هـ
١٩٣٠ م
- ٣٥ — ربيع الأبرار ونصوص الأخيار . الزمخشري . مخطوط بدار الكتب
١٥٥ أدب .
- ٣٦ — الرحلة المغربية . محمد العبدري البناسي . تحقيق الأستاذ أحمد بن
جلو . نشر كلية الآداب الجزائرية
- ٣٧ — الرسالة القشيرية . القشيري
- ٣٨ — زرادشت الحكيم . الأستاذ حامد عبد القادر . مطبعة نهضة مصر
سنة ١٩٥٦ م .
- ٣٩ — شرح العميون في شرح رسالة ابن زيدون . ابن نباتة . تحقيق
الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

٤٠ — سلاجقة إيران والعراق . الدكتور عبد المنعم حسنين . القاهرة .

سنة ١٩٥٩ م

٤١ — سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي . محمد بن أحمد النسوي ،

تحقيق الأستاذ حافظ حدى مطبعة دار الفكر العربي سنة ١٩٥٣ .

٤٢ — شرح أدب الكاتب . الجواليقي . مطبعة القدس سنة ١٣٥٠ هـ .

٤٣ — شرح المفصل . موافق الدين يعيش بن علي بن يعيش . إدارة

الطباعة المنيرية بمصر .

٤٤ — ضحى الإسلام . الأستاذ أحمد أمين . مطبعة دار القاليف سنة

١٣٥٥ هـ . ١٩٣٦ م .

٤٥ — طبقات الشافعية الكبرى . السبكي . المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٥٤ .

٤٦ — طبقات للفسرين . السيوطي . طبعة أوروبا .

٤٧ — الطراز . يحيى بن حمزة العلوي . مطبعة المقتطف سنة ١٣٣٣ هـ .

سنة ١٩١٤ م .

٤٨ — ظهر الإسلام . الأستاذ أحمد أمين . مطبعة لجنة التأليف سنة

١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م .

٤٩ — عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح . بهاء الدين السبكي .

من شروح التلخيص . القاهرة ١٣٤٢ هـ .

٥٠ — علم الأخلاق لأرسطو . ترجمة الدكتور أحمد لطفى السيد .

٥١ — عيون الأخبار . ابن قتيبة . مطبعة دار الكتب بالقاهرة .

٥٢ — الفائق في غريب الحديث . الزمخشري . تحقيق الأستاذين علي

البيجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم

- ٥٣ - الفرق بين الفرق . البغدادى . مطبعة الحلبي ١٣٦٤ ١٩٤٥ م
- ٥٤ - في علم النفس . الأستاذ حامد عبدالقادر والأستاذ محمد عطية الإبراشي
- ٥٥ - القاموس المحيط . الفيروز آبادى
- ٥٦ - قلائد الأدب في شرح أطواق الذهب . الميرزا يوسف خان . مطبعة
القدس بمصر سنة ١٣٢١ هـ
- ٥٧ - السكامل في التاريخ . ابن الأثير . المطبعة الأميرية .
- ٥٨ - الكشف . الزمخشري . الطبعة الأولى بالمطبعة البهية للمصرية ١٣٤٣ هـ
- ٥٩ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . حاجي خليفة . الطبعة
الأولى سنة ١٣١١ هـ
- ٦٠ - لسان الميزان . ابن حجر العسقلاني . الطبعة الأولى بالهند سنة ١٣٣١ هـ
- ٦١ - مجموعة رسائل للجاحظ . طبعة سامي
- ٦٢ - محاضرات في تاريخ الدولة العباسية . محمد الخضرى . الطبعة
الرابعة سنة ١٣٥٣ هـ سنة ١٩٣٤ م
- ٦٣ - مختصر تاريخ العرب . سيد أمير على . مطبعة لجنة التأليف ١٩٣٨ م
- ٦٤ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان . أبو محمد عبدالله بن أسعد اليافعى .
الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣٣٨ هـ .
- ٦٥ - المستقصى في أمثال العرب . الزمخشري . مطبعة حيدر آباد الدكن
سنة ١٣٨١ هـ - سنة ١٩٦٢ م
- ٦٦ - معجم الأدباء . ياقوت . طبعة الدكتور فريد رفاعي
- ٦٧ - معجم البلدان . ياقوت . مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م
- ٦٨ - مفاتيح الغيب . الفخر الرازي . المطبعة الأميرية ١٣٨٩ هـ
- ٦٩ - مفتاح العلوم - السكاكي .

- ٧٠ - مقامات الزمخشري . بشرح الزمخشري . الطبعة الثانية بمصر ١٣٢٥ هـ
- ٧١ - مقدمة الأدب . الزمخشري . القسم الأول والثاني . مطبعة ليبسيك ١٨٤٣ م والقسم الثاني إلى الخامس مخطوط بدار الكتب ٢٧٢ لغة .
- ٧٢ - مقدمة ابن خلدون . تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافي . مطبعة لجنة البيان العربي بمصر
- ٧٣ - الملل والنحل . الشهرستاني . طبعة الجمعية الفلسفية بمصر .
- ٧٤ - منهج الزمخشري في تفسير القرآن . الدكتور مصطفى الجوافي . دار المعارف
- ٧٥ - النية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل . المرتضى . مطبعة دائرة المعارف النظامية بمحدر آباد الدكن ١٣١٦ هـ
- ٧٦ - مذهب رحلة ابن بطوطة . الأستاذ أحمد العوامري والأستاذ محمد أحمد جاد المولى . المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٣٩ م
- ٧٧ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . المقرئزي . القاهرة ١٣٢٦ هـ
- ٨٧ - ميزان الاعتدال في معرفة الرجال . شمس الدين الذهبي . مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ هـ
- ٧٩ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . ابن تغري بردي . مطبعة دار الكتب سنة ١٣٥٣ هـ - سنة ١٩٣٥ م
- ٨٠ - نزهة الألباء في طبقات الأدباء . ابن الأنباري . طبعة مصر سنة ١٢٩٤ هـ
- ٨١ - نقد العلم والعلماء . ابن الجوزي . مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٠ هـ (٢٠ م - الزمخشري)

٨٢ - نوانغ الكلم . الزمخشري . الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٣٢ هـ -

سنة ١٩١٤ م

٨٣ - وفيات الأعيان . ابن خلكان . تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد

الحمد . القاهرة ١٩٤٨ م

٨٤ - يتيمة الدهر . النعالي . المطبعة الحنفية بدمشق سنة ١٣٠٠ هـ

الفهرس

مقدمة ٣

تمهيد

يثنه

١ - خوارزم ٥ - ٩
موقعها ، مكانتها بعد الفتح ، وصفها قديما : وصف المقدسي ، وصف
ياقوت ، وصف ابن بطوطة ، بعض مدنها ، مدينة زرخشر .

٢ - الحياة السياسية ٩ - ١٤
خضوع البلاد للحكم العربي مدة ، خضوعها للدولة السامانية ، عناية
السامانيين باللغة الفارسية واللغة العربية ، حذبهم على السنة .
خضوعها للدولة السلجوقية ، آثار الوزير نظام الملك في تشجيع العلوم
والآداب .

خضوعها للدولة الخوارزمية ، السلاطين الذين أدرتهم الزرخشري :

٣ - الحياة الثقافية ١٥ - ٣٤
كلمة عامة عن استعراب أقاليم خراسان وخوارزم وما وراء النهر ، كثرة
العلماء والمؤلفين والمدارس والكتبات هناك ، تشجيع الحكام للحركة
الفكرية والأدبية ، ميزة أهل خوارزم في اتجاههم الفكري .

لمحة إلى إقليم خوارزم خاصة (١٦)

غنى الإقليم بالعلماء والأدباء ، كلف السلاطين بتشجيع العلم والآداب ،

ديوان الإنشاء ، إنتاج العلماء والأدباء بالفارسية والعربية ، أمثلة لهم ، مناهج المؤلفين في النحو والصرف والعروض ، منهمجهم في اللغة ، منهمجهم في البلاغة .
المعتزلة (٢٢) . كثرتهم بالعراق وفارس وخراسان وما جاورها ، تأييد البويهيين لهم ، غلبة الاعتزال على خوارزم .
القضاء (٢٥) : غلبة مذهب أبي حنيفة ، نظام التقاضى .

لمحة إلى المنطقة كلها (٢٦)

كثرة العلماء والمؤلفين والأدباء ، جهود البويهيين والسامانيين والسلجقة في تنشيط العلم والأدب ، فضل الوزير نظام الملك ، المكتبات وأثرها ، علماء الحديث والفقهاء ، علماء اللغة والأدب ، الفلاسفة ، المتصوفة .

٣٥ - ٤٧

الفصل الأول

حياته

نسبه ، مولده ، دراسته بزمخشري ، رحلاته إلى بخارى (٣٥) مدحه نظام الملك ، دلالة هذا المدح (٣٦) لماذا لم ينل ما أراد ؟ بأسه واتجاهه إلى خراسان ، مدحه بعض رجال الدولة (٣٨) دلالة هذا المدح (٣٩) رحلته إلى أصفهان عاصمة السلجقة ، مدحه ملكها (٤٠) بأسه من هؤلاء جميعاً ، عزمه على الترفع والمكوف على التأليف ، رحلته إلى بغداد (٤١) اتجاهه إلى مكة ليقوم بها ، حفاوة أميرها ابن وهاس به (٤٢) اطمئنانه إلى الإقامة بمكة ، زيارته همدان (٤٣) تطوافه بالجزيرة ، عودته إلى وطنه ، لومه نفسه على هذه العودة (٤٤) رجوعه إلى مكة ، تعريجه على الشام ، تشجيع ابن وهاس له على تأليف الكشف (٤٥) سفره إلى خوارزم ، تعريجه على بغداد (٤٦) إقامته بخوارزم حتى الوفاة (٤٧) .

أساتذته

أبو مضر محمود بن جرير الضبي (٤٨) ، علماء بخارى ، أبو منصور الخارثي ،
أبو سعد الشقاني ، أبو الخطاب بن أبي البطر (٤٩) أبو علي الحسن بن المظفر
التيسابوري (٥٠) الدامغاني ، ابن الشجري ، أبو منصور ابن الجواليقي ، عبد الله
ابن طلحة اليابري (٥١) .

الفصل الثالث

تلاميذه

كثيرة تلاميذه في خراسان والعراق وخوارزم : أمثلة لهم (٥٢ - ٥٤)
استجازة بعضهم له (٥٤) تلاميذ كتبه (٥٤) .

الفصل الرابع

مؤلفاته

جهود خوارزم في حاية الإسلام ، آثار النهضة العلمية والأدبية التي بلغت
أوجها في القرن الرابع (٥٦) شغف الزمخشري بالدرس والبحث ، فراغه للعلم ،
استعاضته بكتبه عن النسل (٥٧) .

مؤلفاته في العلوم الدينية ورجالها (٥٨)

مؤلفاته في اللغة (٥٩)

مؤلفاته في النحو (٦٠)

مؤلفاته في العروض (٦١)

مؤلفاته في الأدب (٦١)

٩٨ — ٦٤

الفصل الخامس

معالم شخصيته

معنى الشخصية (٦٤) صفاته الجسدية (٦٥) شغفه بالثقافة (٦٥) اعتزاله (٦٧) عزه نفسه (٧٠) بين الطموح والقناعة (٧٣) تدينه (٧٨) تواضعه (٨٤) حبه للعرب والعربية (٨٨) قسوته على مخالفيه (٩١) عزوبته (٩٦)

٢٤٤ — ٩٩

الفصل السادس

في رحاب التفسير والتأويل

لمحة إلى التفسير قبل الزمخشري (٩٩) عدة المفسر في رأى الزمخشري (١٠٠) تأثره بعبد القاهر الجرجاني (١٠٢) المعتزلة الذين سبقوه إلى التأويل (١٠٣) القاضي عبد الجبار الهمداني وجهوده (١٠٤).

الكشاف

الباعث على تأليفه (١٠٨) بعض من نقل عنهم : القاضي عبد الجبار ، مجاهد ، عمرو بن عبيد (١٠٩) أبو بكر الأصم ، الزجاج (١١٠) الرماني ، عبد الله بن دستور ، سيبويه ، الجاحظ ، الواقدي ، مشات من القراء واللغويين والنحاة والفقهاء والمفسرين (١١١)

أهم مباحث الكشاف

أولاً - في خضم المعتزلة

لمحة إلى المعتزلة ونشأة مذهبهم (١١٢)
أصول المعتزلة وكيف أيدها الزمخشري (١١٩)

(١) التوحيد

معناه عندهم (١١٩) معتقدات بنوها على التوحيد :

١ — نفي الصفات المستقلة الفدنية (١٢٠)

٢ - نفي التشبيه (١٢١) .

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني » ، تعليق ابن المنير (١٢١) .

تأويله لقوله تعالى : « ثم جعلناكم خلائف في الأرض لننظر كيف تعملون » (١١٢) تعليق ابن المنير (١٢٣)

تأويله لقوله تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في أسمائه » ، تعليق ابن المنير (١٢٣) .

تأويله لقوله تعالى : « وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يُشركون » (١٢٤) تعليق ابن المنير (١٢٥) .

تأويله لقوله تعالى : « الرحمنُ على العرش استوى » (١٢٥) .

تأويله لقوله تعالى : « إنَّ الذين يُبَايعونك إنما يُبَايعون اللهَ ، يدُ الله فوق أيديهم » (١٢٦)

تأويله لقوله تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » (١٢٦) .

تأويله لقوله تعالى : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (١٢٦)

تعليق ابن المنير (١٢٧)

٣ — إنكارهم رؤية العباد لله في الآخرة .

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظرك إليك ، قال لن تراني » (١٢٧) ، تعليق ابن المنير (١٣٠)

تأويله لقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار » (١٣٤) تعليق ابن المنير (١٣٤)

تأويله لقوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » (١٣٥)

٤ — رأيهم في أن القرآن مخلوق

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » (١٣٦) تعليق ابن المنير (١٣٧)

(٢) العدل

١ — معناه عندهم (١٣٧) تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتتوّلوا وهم معرضون » (١٣٨) تعليق ابن المنير (١٣٩)

٢ — نظرية الصلاح والأصلاح (١٤٠) تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائز ، ولو شاء لهداكم أجمعين » (١٤١) تعليق ابن المنير (١٤١) .

تأويله لقوله تعالى : « فأخرجهم عجلًا جسدًا له خوار » فقالوا هذا إلهكم وإله موسى » (١٤٢)

تأويله لقوله تعالى : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » (١٤٢) تعليق ابن المنير (١٤٢)

تأويله لقوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سققاً من فيضة . . . » (١٤٣) تعليق ابن المنير (١٤٣)

تأويله لقوله تعالى : « هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » (١٤٤) .

٣ — نظرية الحسن والقبح الذاتية (١٤٤)

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (١٤٥) تعليق ابن المنير (١٤٦) .

تأويله لقوله تعالى : « وما كان الله ليضلَّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » (١٤٦) تعليق ابن المنير (١٤٧) .

تأويله لقوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (١٤٧) تعليق ابن المنير (١٤٧) .

(٣) حرية العباد

معنى هذه الحرية (١٤٨) تسميتهم أنفسهم أهل العدل (١٤٨) لماذا أطلق عليهم خصومهم لفظ القدرية (١٤٨) تبرؤهم من هذه التسمية ، أدلهم على مذهبهم (١٤٩) توسط الأشعرى بين مذهبهم ومذهب الجبرية (١٥٠) .

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هدانا » (١٥٠) تعليق ابن المنير (١٥٠) .

تأويله لقوله تعالى : « ومن يُرد الله فتنه فإن تملك له من الله شيئاً » (١٥١) تعليق ابن المنير (١٥١) .

تأويله لقوله تعالى : « وقال الشيطان لما قضي الأمرُ إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم » (١٥١) تعليق ابن المنير (١٥٢) .

تأويله لقوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدةً » (١٥٣) .

تأويله لقوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (١٥٣) تعليق ابن المنير (١٥٤) .

(٤) الوعد والوعيد

معناها (١٥٥) تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « إن الله لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بهِ ، ويَغْفِرُ ما دونَ ذلكَ لمن يشاء » (١٥٥) تعليق ابن المنير (١٥٦) .

تأويله لقوله تعالى : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا » (١٥٧) تعليق ابن المنير (١٥٧) .

تأويله لقوله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ » (١٥٨) تعليق ابن المنير (١٥٨) .

تأويله لقوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » (١٥٩) تعليق ابن المنير (١٥٩) .

(٥) المنزلة بين المنزلتين

منشأ الخلاف في الحكم على مرتكب الكبيرة (١٥٩) الآراء في ذلك (١٦٠) دليل المعترضة (١٦٠) تأويل الرخصى لقوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » (١٦١) تعليق ابن المنير (١٦١) .

تأويله لقوله تعالى : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » (١٦١) .

تأويله لقوله تعالى : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا » (١٦٢) .

تأويله لقوله تعالى : « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » (١٦٣) تعليق ابن المنير (١٦٣) .

تأويله لقوله تعالى : « وَإِنْ رَبُّكَ لَذُوْ مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » (١٦٣) تعليق ابن المنير (١٦٤) .

تأويله لقوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا » (١٦٤) .

تأويله لقوله تعالى : « إِنْ يَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُصَلِّكُمْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » (١٦٥).

تأويله لقوله تعالى : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّعَمَ، إِنْ رَبُّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » (١٦٥).

(٦) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

مرابطهما (١٦٥) رأى الزمخشري (١٦٦)

ثانياً — مذاهب فقهية

لم يقتصر الزمخشري على مذهبه الحنفى (١٦٧) أمثلة من عرضه للأحكام الفقهية :

في قوله تعالى : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحُجِّ فَلَا اسْتِيسْرَ مِنْهُ هَدْيٌ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحُجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتَ » (١٦٧).

في قوله تعالى : « وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » (١٦٧)

في قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَيْضِ الْقَلِيلِ هُوَ أَذَى فَاغْتَرِزُوا النَّسَاءَ فِي الْخَيْضِ » (١٦٨)

في قوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُرْعِيَهُنَّ الرِّضَاعَةُ ٠٠٠ » (١٦٨)

في قوله تعالى : « وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ » (١٦٨)

في قوله تعالى : « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجَابُ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » (١٦٩)

في قوله تعالى : « وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ، فَإِنْ أَنتُمْ مِنْهُمْ رَشَدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » (١٦٩)

في قوله تعالى : « لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُوفِ أَيْمَانِكُمْ ... » (١٧٠)
 في قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم
 هذا » (١٧١)

في قوله تعالى : « الَّذِينَ يظَاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ... »
 (١٧٢)

في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ » (١٧٣)

ثالثاً - قراءات

عنايته بذكر كثير من القراءات (١٧٥) ذكره للمصاحف (١٧٥) ذكره
 لروايات شتى (١٧٥) أمثلة للقراءات :

في قوله تعالى : « وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَإِذَا ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَعَلَى الَّذِينَ بَطَلُوا فَنَدَاهُ فَنَدَاهُ طَعَامُ مَسْكِينٍ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ ... » (١٧٧)

في قوله تعالى : « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّبِعْهَا مِمَّا سَلَفَ » (١٧٧)

في قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ » (١٧٧)

في قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ » (١٧٧)

به » (١٧٧)

في قوله تعالى : « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا

بِالْقِسْطِ » (١٧٧)

في قوله تعالى : « إِنِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ

حَقٍّ ... » (١٧٧)

في قوله تعالى : « قال رب اجعل لي آية ، قال آيتك ألا نكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » (١٧٨)

في قوله تعالى : « أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نفيرا » (١٧٨)

في قوله تعالى : « سماعون للكذب أكلون السخيت » (١٧٨)

في قوله تعالى : « لعل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (١٧٩)

في قوله تعالى : « ليكفر عنهم أسوأ الذي عملوا » (١٧٩)

في قوله تعالى : « وما هو على الغيب بضنين » (١٧٩)

مفاضلة بين القراءات

في قوله تعالى : « وإنا لجمع حذر » (١٨٠)

في قوله تعالى : « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ... » (١٨٠)

في قوله تعالى : « كثرت كلمة تخرج من أفواههم » (١٨١)

استبعاد القراءات الشاذة وإنكارها

في قوله تعالى : « أفلم يئس الذين آمنوا أن لورثاء الله لهدى الناس جميعا »

(١٨١)

رابعا - آراء نحوية

تعريضه للإعراب (١٨٢) أمثلة للآيات التي عرض فيها للنحو :

في قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما

بالقسط » (١٨٢)

في قوله تعالى : « ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالفق الإصباح وجعل الليل

سكنا والشمس والقمر حسبانا » (١٨٣)

في قوله تعالى : « إن يشأ يسكن الريح فيظللان روا كد على ظهره » (١٨٤)

في قوله تعالى : « فلولاً كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض » (١٨٥)

في قوله تعالى : « وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف » (١٨٥)

في قوله تعالى : « هو الذي يرثكم البرق خوفاً وطمعاً » (١٨٦)

في قوله تعالى : « لا أقسم بيوم القيامة » (١٨٧)

خامساً - مسائل لغوية

حرصه على تحلية بعض الدلالات الدقيقة (١٨٩) .

في قوله تعالى : « والذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون » (١٨٩) .

في قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » (١٩٠)

في قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » (١٩٠)

في قوله تعالى : « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » (١٩١)

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه . . . » (١٩١)

في قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها . . . » (١٩٢)

في قوله تعالى : « ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً عينا فيها تسمى سلسبيلاً » (١٩٣)

في قوله تعالى : « وأنزلنا من المعصيرات ماءً ثجاجاً . . . » (١٩٤)

في قوله تعالى : « وكذبوا بآياتنا كذاباً » (١٩٤)

سادسا - نصوص شعرية

استشاده بالشعر كما استشهد سابقوه (١٩٥) لم يحرم الإسلام الشعر كله (١٩٥) أمثلة من استشاده بالشعر في تفسيره :

في قوله تعالى : « والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيما نكم » (١٩٦)
في قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » (١٩٧)
في قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة » (١٩٧)

في قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة فانتا لله حنيفا » (١٩٨)
في قوله تعالى : « يظاف عليهم بكس من معين » (١٩٩)
في قوله تعالى : « وإنه لحب الخير لشديد » (١٩٩)
في قوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » (١٩٩)

سابعا - بلاغة ونقد

تمهيد (٢٠٠) كثرة البلاء والأدباء والفلاسفة من المعتزلة (٢٠٠) عنايتهم بالكشف عن وجوه الإعجاز البلاغي (٢٠١) انتفاع الزمخشري بدراسات المعتزلة والأشعرية وعبد القاهر الجرجاني (٢٠١) تفرقة الزمخشري بين علمي البيان والمعاني (٢٠٢) ، رأيه أن علم البديع تابع لها (٢٠٣) تأثر السكاكي بالزمخشري (٢٠٣) تأثر يحيى بن حمزة العلوي به (٢٠٤)

أمثلة مما ذكره من علم البيان :

١ - التشبيه .

في قوله تعالى : « إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جملة صفر » (٢٠٥)

٢ - تشبيه التمثيل :

في قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً . . . » (٢٠٦)

٣ — الاستعارة :

في الآية السابقة

في قوله تعالى : « ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » (٢٠٩)

في قوله تعالى : « وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين الذين يفتضون عهد الله من بعد ميثاقه » (٢١٠)

الاستعارة المرشحة في قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » (٢١١)

في قوله تعالى : « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم » (٢١١)

٤ — الكناية ، تفرقة بينها وبين التعريض (٢١٢) أمثلة لها :

في قوله تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم » (٢١٢)

في قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (٢١٣)

في قوله تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم . . . » (٢١٣)

في قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان وتعلم ما توسوس به نفسه ونحن

أقرب إليه من حبل الوريد » (٢١٤)

في قوله تعالى : « إذا زلزلت الأرض زلزالها . . . » (٢١٤)

في قوله تعالى : « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بقاويل الأحلام بعالمين »

(٢١٤)

٥ — الحجاز المرسل ، حقيقة ، أمثلة له :

في قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها . . . » (٢١٥)

في قوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » (٢١٦)

في قوله تعالى : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (٢١٦)

٦ — الحجاز العقلي ، معناه ، أمثلة له :

في قوله تعالى : « يُضِلُّ بِكَ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا » [٢١٦]

في قوله : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم

وما كانوا مهتدين » [٢١٧]

في قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد »

(٢١٧)

أمثلة من علم المعاني

١ — القصر ، أمثلة له :

في قوله تعالى : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن

مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » (٢١٨) .

في قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » [٢١٨]

في قوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » [٢١٨]

في قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة » [٢١٩]

آيات أخرى [٢١٩]

٢ — الفصل والوصل ، أمثلة لهما :

في قوله تعالى : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (٢١٩)

في قوله تعالى : « قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » (٢٢٠)

في قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون

بالغيب وبقية يوم الصلاة وما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ..»
(٢٢٠)

٣ — التوكيد

في قوله تعالى : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ..»
(٢٢١)

٤ — التقديم والتأخير ، أمثلة :

في قوله تعالى : « قل أغير الله أنخذ ولياً (٢٢١)
في قوله تعالى : « أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » (٢٢٢)
في قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » (٢٢٣)
في قوله تعالى : « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » (٢٢٤)
٥ — الحذف :

في قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » (٢٢٥)
في قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجد ما ودعك ربك وما قلى » (٢٢٦)
٦ — الالتفات . هو في رأيه من علم البيان وفي رأى البلاغيين بعده من علم المعاني .

في قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » (٢٢٧)
تأثر السكاكي بالزمخشري

٧ — التعبير بالمضارع عن الماضي

في قوله تعالى : « والله الذي أرسل السراح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت » (٢٢٨)

٨ — التعبير بالماضي عن المستقبل .

في قوله تعالى : « أنى أمر الله فلا تستعجلوه » (٢٢٩)

في قوله تعالى : « ويوم يفتح في الصور فتنزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله » (١٢٦)

٩ — الجملة الاسمية والجملة الفعلية . دلالة كل منهما

في قوله تعالى : « واخشوا يوماً لا يجرى والدن عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » (٢٢٧)

في قوله تعالى : « وإذا حلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم » (٢٢٧)

أمثلة من علم البديع

١ — الجفاس :

في قوله تعالى : « وجئتكم من سبأ نبياً يقين » (٢٢٨)

في قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي » (٢٢٨)

٢ — الطباق :

في قوله تعالى : « ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » (٢٢٨)

٣ — تأكيد المدح بما يشبه الذم :

في قوله تعالى : « وما تقوموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (٢٢٩)

٤ — اللف والنشر . معناه .

في قوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن . . . » (٢٢٩)

٥ — المشاكسة . معناها .

في قوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها »

(٢٣٠)

في قوله تعالى « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » (٢٣٠)

ثامنا — تعليل وتمحيص

١ — مقدرة على التعليل والتحميص . أمثلة لتعليله :
 في قوله تعالى : « كَلِمَاتُ رُزْقٍ قَوَامٌ مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا . . . » (٢٣٢)
 في قوله تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ » (٢٣٣)
 في قوله تعالى : « لِلذِّكْرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى » (٢٣٣)
 في قوله تعالى : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » (٢٣٤)

٢ — أمثلة من تمحيصه :

نفية رؤية الجن (٢٣٥) نفية الحسد بمعنى التأثير الفعال (٢٣٥)
 سخريته بما ذكره بعض سابقيه من هم يوسف عليه السلام بالمعصية (٢٣٦)
 استهجانه ما ذكره عن تعلق داود عليه السلام بامرأة (٢٣٨)
 تعليقه الساخر على أن صراخ الغفل الوليد سببه مس الشيطان له (٢٣٩)
 ٣ — أمثلة من متابعتة لأغلاط سابقيه :

في قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عِنْدَ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا » (٢٣٩)
 في قوله تعالى : « وَقَالَ غِرْعُونُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي . . . » (٢٤٠)

في قوله تعالى : « أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرُوءٌ » (٢٤٠)
 في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ . . . » (٢٤٠)

قيمة الكشف وأثره

موسوعة علوم شتى (٢٤٢) إعجاب الزمخشري به (٢٤٢) ثناء ابن
خلدون عليه (٢٤٣) ثناء يحيى العلوى (٢٤٣) اختصار البيضاوى والتسقى له
(٢٤٤) تعقيب كثير من العلماء عليه (٢٤٤)

٢٤٥ — ٢٦٧

الفصل السابع

في بحر اللغة

(١) أساس البلاغة

طريقة تدوين المعاجم (٢٤٥) طريقة الزمخشري (٢٤٦) عنايته ببيان
الغنى الحقيقية والمجازية للكلمات (٢٤٦) ذكر التصاريف والمشتقات والجمع
والمزبدات ومعانيها مرتباً بعضها على بعض (٢٤٨) وضعها في عبارات
أدبية (٢٤٨) بعض العبارات من كلامه (٢٤٨) أمثلة (٢٤٨) إغفاله
بعض المواد (٢٥٢) قيمته وأثره (٢٥٢)

(٢) المستقصى في أمثال العرب

طريقة ترتيبه (٢٥٤) موازنة بينه وبين مجمع الأمثال للعبدانى (٢٥٥)
نماذج منه (٢٥٦)

(٣) الفائق في غريب الحديث

تطور التأليف في غريب الحديث (٢٦٠)
طريقة الزمخشري في الفائق (٢٦١) نماذج منه (٢٦٢)

(٤) أعجب العجب في شرح لامية العرب

لماذا ألفه؟ (٢٦٤) عنايته القدماء بشرح اللامية (٢٦٤) انصراف

الزنجشري في شرحه إلى النحو (٢٦٤) استشهاده بالآيات والشعر (٢٦٤)
عناية المستشرقين باللامية (٢٦٤)

(٥) الجبال والامكنة والمياه

موضوع الكتاب (٢٦٦) نماذج منه (٢٦٦)

٢٦٨ — ٢٨١

الفصل الثامن

في شعاب النحو

(١) المفصل

تعريف به (٢٦٨) كثرة شروحه (٢٦٩) شرح ابن يعيش (٢٦٩)

(٢) مقدمة الأدب

أقسام الكتاب (٢٧٠)

(٣) الأنموذج

٢٧٢ — ٢٨٧

الفصل التاسع

في حديقة النثر

نثره الفنى (٢٧٢) موضوعاته (٢٧٢) الطابع العام لأسلوبه : كلفه بالسجع
والحسنات وحل المفهوم والتلاعب بالمصطلحات (٢٧٢) أمثلة (٢٧٣) .

(١) نوايع الكلام

موضوعه ، نماذج منه (٢٧٥)

(٢) المقامات

متى ألفها ؟ وأين ؟ (٢٧٦) موضوعها (٢٧٦) شرحه لها (٢٧٧) مثال من
شرحها (٢٧٧) نموذج من مقامة العزلة (٢٧٨) نموذج من مقامة النحو
(٢٧٩) من مقامة العروض (٢٧٩)

(٣) أطواق الذهب

موضوعه (٢٨٠) نماذج منه (٢٨١)

(٤) النصائح الصغار والبوالغ الكبير

موضوعه (٢٨٢) نماذج منه (٢٨٢)

(٥) ربيع الأبرار

متى ألفه؟ (٢٨٣) موضوعه (٢٨٣) طريقته (٢٨٤)

نماذج منه (٢٨٤)

٢٨٨ — ٢٩٦

الفصل العاشر

في روضة الشعر

ديوانه المخطوط (٢٨٨) موضوعاته (٢٨٨) خصائص شعره (٢٨٩) :

نضوب عواطفه في الأعم الأغلب (٢٨٩) رصانة أسلوبه (٢٨٩) بدء بعض

المدائح بغزل تمهيدى لحرارة فيه (٢٨٩) بدء بعضها بالشكوى والسخط

والفخر (٢٩٠) حسن التخلص من التمهيد إلى المدح (٢٩٢) العناية بالحسنات

(٢٩٣) تلخيصه من الحسنات حين يعبر عن عاطفة قوية (٢٩٤) المبالغة في

بعض شعره (٢٩٥) حكمه (٢٩٥) .

٢٩٧ — ٢٩٩

حاتمة المطاف

٣٠٠ — ٣٠٦

المراجع

كتب البوواف

١ — وحى النسيب في شعر شوقي :

دراسة لغزل شوقي من حيث بواعثه وخصائصه

٢ — وطنية شوقي :

دراسة مفصلة للوطنية في شعره ، ومظاهرها المختلفة ، ممتدة على دراسة العصر الحديث من الناحية السياسية ، وعلى نصوص من شعر شوقي وموازنت بينه وبين غيره من شعراء العصر الحديث ، وتوضيح موقفه من الخلافة الإسلامية وأنه لا يتعارض مع وطنيته

٣ — الإسلام في شعر شوقي :

دراسة لتدبيره ومظاهره في شعره من إيمانه بالله ، ومدائح له للبنى ، وإشادته بخصائص الإسلام ، ودفاعه عنه ، ودراسة فنية لهذا الشعر الديني .

٤ — الفكاهة في الأدب :

يقناول الفكاهة وأصوبها وتقسيمها إلى أنواع طبقا للبواعث النفسية ، ويعرض في تفصيل لدلالات الفكاهة الاجتماعية والسياسية واللغوية .

٥ — البطولة والأبطال :

يعرض للبطولة وأسسها وأنواعها ، ولصور من أبطال العرب في الجاهلية والإسلام ، وبعض أبطال مصر الحديثة ، مع التحليل .

٦ — أبوحيان التوحيدي .

دراسة لعصره السياسي والعلمي والأدبي ، وعرض لحياته ، وثقافته ولصلاته بوزراء عصره ، وتحليل لشخصيته ، وتعريف بكتبه ، وتحليل لأسلوبه ، وموازنت بينه وبين معاصريه ، وبينه وبين الجاحظ .

٧ — سماحة الإسلام :

تحليل منصف لسماحة الإسلام في نواح شتى في السلم والحرب ، معتمد على التشريع والنصوص والتطبيق ، مع موازنات بين الإسلام وغيره من الأديان والشرائع والقوانين والفسقات .

٨ — أدب السياسة في العصر الأموي :

يتناول الأحزاب السياسية ونشأتها ومذاهبها ، ويعرض نماذج من أدبها شعرا وخطابة وحوارا وكتابة ، مع تحليل لهذا الأدب ، ودراسة لخصائصه ، وموازنات بين بعضه وبعض . وعرض للعصبية القبلية والجنسية وآثارهما في الشعر والسياسة .

وبه ترجمة لبعض الأدباء الساسة .

٩ — سوسن :

قصة مصرية سامية العرض ، نبيلة الغرض .

١٠ — مع ابن خلدون :

عرض لآرائه في التربية وعلم الاجتماع التي لم يعرض لها الدارسون من قبل ، ودراسة لأدبه من نثر وشعر .

١١ — الغزل في العصر الجاهلي :

دراسة للغزل في الجاهلية من حيث أصوله ، وبواعثه ، وأنواعه ، ونشأته كل منها وعلاقتها بالبيئة ، مع موازنة بين الغزل في الجاهلية والإسلام نال به المؤلف درجة الماجستير من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى .

١٢ — المرأة في الشعر الجاهلي :

دراسة مفصلة للمرأة في العصر الجاهلي من الشعر ، من حيث مكانتها في الأسرة والقبيلة والمجتمع ، أمّا وزوجة وبنات وأختان وقريبة . ودراسة للمرأة في

الحياة العامة في السلم والحرب ، وثقافتها وصناعاتها . ودراسة للمرأة في الحياة الفنية ، من حيث أثرها في الغناء ، ومن حيث روايتها للشعر ، وتقدها له ، ولشاعريتها ، وأنواع شعرها وخصائصه ، مع موازنات بينها وبين النساء المعاصرات لها في العالم القديم .

نال به المؤلف درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز .

١٣ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي

بحوث تمهيدية ، وتوثيق للشعر الجاهلي ، ودراسة له من حيث تصويره لألوان الحياة الاجتماعية والدينية والعادات والمعتقدات ، ولصلات العرب بغيرهم من الأمم .

١٤ - أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي

عرض وتحليل لصور الطبيعة في الشعر الجاهلي من حيوان ونبات وجماد وظواهر في الأرض وأجلو ، واستنباط الخصائص العامة في تداول الشعراء للطبيعة ، ودراسة لأصداء البيئة في موضوعات الشعر وأخيلة الشعراء وفهمهم .

١٥ - تيارات أدبية بين العرب والفرس :

يتناول صلات العرب والفرس في الجاهلية والإسلام ، وأثرها في كل من الشعبين في العقائد والنظم والعادات واللغة والأدب . . الخ .

١٦ - المثل السائر لابن الأثير :

تقديم وتحقيق وتعليق

١٧ - الطبرى

دراسة لعصره ، وبيئته ، وحياته ، ومصادر ثقافته وألوانها ، وعرض لتلاميذه ، ومؤلفاته ، ودراسة لشخصيته ، ولما هجه في التفسير والتاريخ والفقه .

١٨ - فن الخطابة :

دراسة للخطيب ، وعديته ، وصفاته ، وعوامل نجاحه ، ودراسة للخطابة ،
وأواعها ، وأصولها ، وأساليبها ، وتصوير الأمم لها ، وتعقيب بدراسة منفصلة
للخطابة السياسية في العصر الأموي .

١٩ - بطولة وبطل :

دراسة للبطولة ، وتحليل لبطولة الرئيس جمال عبد الناصر من خلال حياته
وأعماله وأقواله .

٢٠ - الجاحظ :

دراسة لعصره ، وحياته ، ومعالم شخصيته . ومؤلفاته ، وخصائصه الفنية ،
مع تحليل بعض كتبه .

٢١ - تحت راية الإسلام :

بحوث شتى في الدفاع عن الإسلام ، وفي الكشف عن ألوان من الثقافة
الإسلامية .

٢٢ - القومية العربية في الشعر الحديث :

دراسة لدعائم القومية العربية في تفصيل ، وعرض للشعر الذي أثر فيها وتأثر
بها من انخيلج إلى المحيط ، ودراسة فنية لهذا الشعر ، وتوضيح لجهود مصر قديما
وحديثا في مجال القومية العربية .

٢٣ - الزمخشري :

دراسة لعصره ، وحياته ، وأسانيده ، وتلاميذه ومؤلفاته ، ومنهجه في
التفسير ، وما تضمنه من تأييد مذهب المعتزلة ، وما اشتمل عليه من آراء فقهية
ونحوية وبلاغية الخ . ودراسة لجهود الزمخشري في ميادين اللغة وغيرها ،
وتحليل لنثره وشعره . .